مكتبة ياسمين

رواية

أغالب مجرى النهر

سعيد خطيبي

نوفل

مكتبة ياسمين

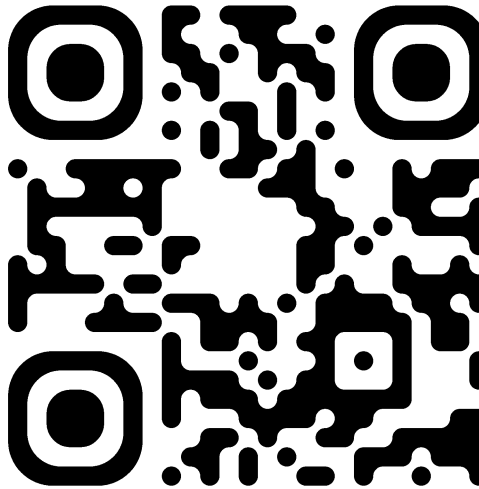

أغالب مجرى النهر

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت في آذار 2025 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2025
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

telegram @
yasmeenbook

صورة الغلاف: **© Magdalena Russocka / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **محمد هاشم**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-06-0589-3
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-06-0590-9

رواية

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

أغالب مجرى النهر

سعيد خطيبي

نوفل

إلى
محمّد برادة

«نحن نروي حكايات تؤنسنا، لأننا نجهل أنفسنا»

يمينة مشاكرة

telegram @
yasmeenbook

البنت

نويتُ قطع أنفاسِه، لكنْ لم أتخيّل نفسي محتجَزةً في هذا المكان، الذي لا تتعدّى مِساحته خمس خطواتٍ طولًا ومثلها عرضًا، وأنا أقاوم خفَقات قلبي بمناجاة ربّي، راجيةً ألّا يخيِّبني. أشعر بانقباضٍ في معِدتي، وأمتنع عن مدّ يدي إلى صحنٍ معدِنيٍّ، قدّمه إليّ شرطي من كوّة الباب، يمتلئ نِصفه أرزًا وتمرح فيهِ نملتان. أضغط على أسناني كي لا أبكي، مع أنّ لساني يرغب في الصراخ. لكن لن يبالي أحد بحالي، مثلما لم يبالِ أحد بصُراخات امرأةٍ تقبع في المَحبس المجاور، قضتْ ليلَها تطلب رؤية شخصٍ يُدعى هلالي، وهي تطرق بابَها وتستغيث بأن يُفرجوا عنها، فسددتُ أذنيَّ بكفَّيَّ إلى أن خمد صوتها. ظنّي أنّه قد أُغمي عليها. فآثرتُ الصبرَ مع أنّ أعصابي لا تحتمل طولَ انتظار.

أمسكتُ شعري بيديَّ، أرغب في نتفهْ. ورغبتُ في التمدّدِ، لكنّني لم أُطق صلابة الأسمنت في هذا المَحبس الواقع في مخفرٍ، لا وسادة فيه ولا فراش.

لطمتُ خدَّيّ، اللذَيْن رشَحا بدمعٍ ممزوجٍ بعرقٍ، من شدّةِ الحرِّ: يا ربّي فرّج عنيّ!

أُحدّق في الحيطان التي تطوّقني، ولا تفارق مِنخريّ رائحة زنخة فاحت مِنْ مغسلةٍ، مصنوعةٍ من خزفٍ، تشقّق حوضها، وقد نضب الماء من صنبورِها. مثلما نضب من بيوت الناس، فصاروا يشربون ماء الوادي، بعد تصفيته من دود العَلَق.

أحسستُ بصعوبةٍ في التنفس، وخشيتُ أن يطول مكوثي في هذا المكان، فلا أرى أبي مرةً أخرى. أمّا أمّي، فرجّحتُ ألّا يهمّها أمري. قد يحوّلونني إلى سجنٍ بعيدٍ، فلا يتاح لأحدٍ من أهلي زيارتي. وأقبح ما جال في خاطري أن أفقد ابنتي. سوف يسخر منها الأطفال: «أمّكِ في الحبس»، وتلوذ بالبكاء كعادتها كلّما سمعتْ ما لا يسرّها. وعندما يُفرج عنّي، بعد أن تتساقط أسناني ويبيضّ شعري، لن تتعرّف إليّ. لن أرافقها إلى المدرسة عندما تكبر، ولن أحضر عرسها. لقد أنجبتُها كي أخسرها.

تلاطمتْ تلك الأفكار في بالي، ورغبتُ في التخلّص من خوفي مثلما رغبتُ في العودة إلى عملي. حياتي بين بيتٍ وعيادةٍ لا في محبس. علّمَني الطبّ كبت قلقي وتحمّل المشقّات. لكنّني نسيتُ كلَّ ما تعلّمتُه، مُصرَّة على أنّ خطأً قد وقع، فأنا لم أفعل شيئًا يستحقّ سَجني. لكن مَن يصدّق كلامي!

شعرتُ كأنّني جروٌ يحاصره أطفال بالركل، وأنا أجول ببصري بحثًا عن حبلٍ أُعلّق عليه رقَبتي أو آلةٍ حادّةٍ أفتح بها شراييني، فلم أعثر على مُرادي. غطّتْ عينَيّ غِشاوة من كثرة الدمع، وقمتُ زامّةً شفتيَّ كي تكفّا عن ارتجاجهما، تكوي يديَّ حرارةٌ. أرغب في التعارك مع أحدهم، أن أهشّم رأس تلك الشرطيّة، التي تفوقني وزنًا وتقلّ عنّي طولًا، والتي أودعتني، في اليوم السابق، هذا المكان.

«اقلعي حوايجك!». حال وصولي أمرتْني بعينَيْنِ صارمتَيْنِ أن أتجرّد من ثيابي، فلسعتْ وجنتَيَّ حرارةٌ من شدّة الخجل، وأنا التي

لا أتعرّى أمام أقرب الناس إليّ. لكنّني امتثلتُ وساورني شعور بأنّني أتعرّى من روحي لا ثيابي. أغمضتُ عينَيّ، وهي تجسّ بدني بيدَيها الخشنتَيْن.

«افتحي فمكِ». تفقّدتْ أسناني، ثمّ أمرتني أن أُخرج لساني ففعلتُ. «قولي: عـاآآآ». كأنّني شاة يتفحّصها زَبـون، عارية رحتُ أتساءل في نفسي: علامَ توقّعَتْ أن تعثر؟ مخدّرات أم سلاح؟

أمسكتُ لساني عن نعتها بـ«خامجة»، فالغضب حجّة الضعفاء، كما سمعتُ من أبـي. لم تعثر على شـيءٍ، فأمرتني بنظرةٍ هازئةٍ أن أُعيد ارتـداء ملابسي، بعدما حجزتْ خاتَمي وساعة معصمي، ثمّ أغلقتْ الباب بعارضةٍ حديديّةٍ وانصرفتْ. ليتها تعود فأطرق جبهتها الناتئة، لكنّني طرقتُ الباب براحة يدي، مرّة، مرّتَيْن، وثلاثًا: «افتحوا... افتحوا»!

لـم أسـمع سـوى صـدى طَـرْقـي، ثـمّ دهمني ارتـخـاء فـي يدي وبلعْتُ ريقي. أعدتُ صُراخي وتخيّلتُ ابنتي تدسّ رأسَها في حجري. أظنّني سمعتُ همسَها في أذنيَّ: «ما تخافيش ماما». بل أنا خائفة وأخمّن ما تفعله في غيابي. هل تشتاق إليّ؟ طفَتْ في ذهني صورتها وهي تضحك عندما أشتري لها لعبةً، ثمّ تحدّق إليّ شاكرةً بعينَيْها السوداوَيْن، أو في ابتهاجها وهي تلبس ثوبًا جديدًا. هل بكت في غيابي؟ هل نامت بينما أنا مسجونة؟ خالجني شعور بأنّني أخطأتُ في إنجابها وأذنبتُ في حقّها.

عدتُ إلى الأدعية وتكرار قِصار السور، ثمّ سمعتُ أذانَ الظهر، ما يعني أنّني قضيتُ يومًا كـاملًا في هـذا المحبس. واصلتُ قرع الباب، متجاهلةً الارتخاء الذي اكتسح يدي، عندما أطلّ عليّ شرطيّ من الكوّة، بحاجبَيْن كثيفَيْنِ:

– اصبري... حتى يوصل لَمْعلّمْ.

سألتُ من يكون هذا «لَمْعلّمْ»، من غير أن أُبلَّغ إجابة:

– متى يصل؟

– الله أعلم.

ردّ عليّ ذو الحاجبَيْن الكثيفَيْن، كاشفًا عن أسنانه العلويّة المعوجّة. ثمّ انصرف كمَنْ أسعده ما حلّ بي، غيرَ راغبٍ في سماع أسئلةٍ أخرى، فشتمتُ والديه في سرّي. إنّه من نوع الرجال الذين نستثقل روحهم، دائمًا ما أفرض على أمثاله تسعيرة أعلى من غيرهم حين يأتون إلى عيادتي. وقد حفِظتُ ملامحَه، فإن أُفرج عنّي وجاء يشتكي ضررًا في عينَيْه، فسأمتنع عن مداواته.

حضنتُ ساقيّ بين ذراعيّ، كي أُخمد رغبتي في ركل الحائط، قبل أن أسمع وقع خطواتٍ، فاستقمتُ وعدّلتُ تنّورتي. عادتِ المرأة التي تقبع في المحبس المجاور إلى صراخها، وعاد ذو الحاجبَيْنِ الكثيفَيْنِ وفتح بابي: «اتبعيني عند لمْعلّمْ».

عرَفتُ أنّ تلك الكلمة يقصدون بها المحقّقَ، الذي أمرني بالجلوس قُبالته، على كرسيٍّ خشبيٍّ برِجْلٍ أقصر من نظيراتها. في غرفةٍ تتوسّطها طاولة يعلوها هاتف، آلة كاتبة، رزمة أوراقٍ، وكوب قهوةٍ فارغ، يستعمله كمنفضة سجائر، فيما السّاعة المثبّتة على الحائط تجاور عقاربها الواحدة زوالًا.

ظلّ بدني يترنّح وأنا أردّ على أسئلته، التي جعلتْني أندم على ما عشتُه.

* * *

telegram @
yasmeenbook

أعلمَها المحقّق باسمه:

– جمال درقين.

شرعتْ رُكبتها اليسرى في الاهتزاز، فطلبتْ منه ماءً. عبّتِ القنينة، وتطايرتْ قطرات من طرفَي شفتَيْها.

شرع المحقّق يلطم آلته الكاتبة التي لم تشتغل. فخشيَتْ أن يصبّ نرفزته على رأسها، إن اشتكتْ إليه وجود نملٍ في الأكل الذي قُدّم لها. حدّقت في وجهه الطويل الذي يشوبه شارب خفيف، وأفادتْه بمعلوماتها، التي دوّنها بقلم:

– عقيلة تومي، المولودة خالدي، في 28 مارس 1957 ببوسعادة. ابنة عزوز وقمرة ديلي. ساكنة في حيّ الهضبة.

سألها عن عملها وهو يعلم أنّها قد داوتْ أمّه وأنقذتْها من العمى:

– طبيبة عيون، في عيادتي الواقعة في حيّ 19 جوان.

عاد الدم إلى شرايينها بعدما تدفّق الماء في حلقها، وأصرّتْ على السؤال:

– لماذا سارعتُم إلى توقيفي يوم أمس؟ وقد كان يوم إجازة!

أعلمها بالشبهة الموجّهة إليها، فعضّتْ لسانها مُخفيةً قلقها وعلّقتْ:

– لم أعلم أنّكم تعملون أيّام الجمعة!

انحنى برأسه إلى أوراقه، فبانتْ صلعته، متجاهلًا تعليقها ومواصلًا أسئلته.

– نعم، تزوّجتُ مخلوف تومي قبل ستّ سنوات. لا بدّ أنّكَ التقيتَه. فقد تعاون مع الشرطة، بوصفه طبيبًا شرعيًا.

– هل أحببْتِ زوجَكِ؟

– لم أستطع أن أحبّ شخصًا أخاف منه.

– هل أحبّكِ؟

– الرجل لا يحبّ امرأة يحتقرها.

استغرب أن يطول زواجها برجلٍ لا تكنّ له مودّة:

– ليس مهمًّا كم سنة تقضيها المرأة مع زوجها.

– ...

– رأس الحبّ هو احترام الشريك. ومخلوف لم يحترمني.

لم يُجارِها في تعريفها للحبّ، فهو لم يختبر ذلك الشعور رغم بلوغه الأربعين. قضى نصف عمره طلبًا للُقمة تُسكتُ جوعه والنصف الآخر في تعقّب لصوصٍ وقتلة.

– هل تعرّفتِ إليه قبل الزواج؟

– لا.

كعادة نسوة المدينة، يتزوّجن بمن لا يعرفن، ثم يندمن على ما فعلن.

– علاقتي به كانت مثل علاقة أيّ زوجَيْن آخرَيْن.

– ماذا تقصدين؟

– سادها هدوء ثم نشِبتْ خلافات.

هذه هي الكلمة التي ودّ الوصول إليها: «خلافات».

– كان بوسعكَ أن تسأله عنّي بحكم أنّك عرفتَه.

غاب عنها أنّ مخلوف كان متكتّمًا، كما أعلمها المحقّق.

– الكتمان أفضل من الكلام.

عدّدتْ فضائل هذه الخصلة، بحكم أنّ ما يحصل بين زوجَيْن ليس موضوع تنكيت، ثم واجهتْه:

– هل تتحدّث عن علاقتك بزوجتك مع زملائك؟

لطم ساعة يده، التي توقّفتْ عن الدوران، وأجاب:

– لستُ متزوّجًا.

ودّ أن يجيب: كدتُ أتزوّج، لولا أنّ والد المرأة التي تعرّفت إليها ألزمني مهرًا يفوق طاقتي.

– لم أقصد التدخّل في شؤونك، تأسّفتْ.

شعر بأنّها من النوع الذي لا يجيب عن الأسئلة بصراحةٍ، وسوف يحتاج معها إلى صبر.

الصبر من صفات المحقّقين، غمغم، ثمّ عاد إلى الكلام عن مخلوف تومي.

– نعم، كنتُ أطهو طعامه، وأقصد مكان عمله كذلك.

– ماذا كنتِ تفعلين في مكان عمله؟

تعلم أنّ الإجابة عن هذا السؤال تعني إدانتها. فخفضتْ رأسها في صمت، وشرعتْ تفكّر في الوقائع التي أوصلتْها إلى المخفر، منذ زيارتها المشرحة، قبل أربعين يومًا.

1

وصلْتُ إلى المشرحة من أجل التكفّل بجثّة شاب في الحادية والعشرين من عمره. «اسمه سمير قليش»، قال مخلوف. وأضاف: «هوى من الطابق الخامس، وجرت جمجمته مثل حساءٍ على الرصيف».

يتعيّن عليّ استئصال قرنيّتَي الميّت. ذلك الفعل يُشعرني برضا عن نفسي، بأنّني أسديتُ خدمة للأحياء، الذين سوف يرتدّ إليهم بصرهم. كذلك أكون قد أفرحتُ زوجي الطبيب الشرعي، صاحب المكان، الذي تريحه مذمّتي بدل مدحي، والذي يقف أمامي، عاقدًا يديه المغطّاتَيْن بقفّازَيْن مطّاطيَّيْن خلف ظهره، صامتًا مثل مؤمنٍ خاشع في الصلاة.

كلّما زرتُ هذه المشرحة، المطليّة حيطانها بأدعيةٍ يتامى وأرامل وثكالى، قلّبتُ جثثًا بين يديّ كما تفعل ابنتي بدُميتها. ورحتُ أتخيّل ساعاتها الأخيرة قبل أن تنحدر إلى آخرتها. أتلمّس وجوهًا باهتة وأيديَ متصلّبة، من دون أن أذرف دمعة واحدة. صارت مشاهدتي الموتَ تُشبه مشاهدة أحوال الطقس في التلفزيون، لا تثير حسرتي ولا توقد شماتتي.

كلّ الموتى يتشابهون حين تنفصل أرواحهم عن أجسادهم، لكنّ حكاياتهم تتعدّد. منهم من قضى نحبه غرقًا أو حرقًا، ومنهم من هَشّمتْ ضلوعَه شاحنة، أو أوصله خنجر أو رصاصة إلى مثواه الأخير. ومنهم من هوى من علوٍّ شاهق مثل هذا الميّت، الذي سترتُ وجهه بفوطةٍ بنفسجيةٍ، فلم تظهر عينه اليمنى سوى من ثقب صغير، وشرعتُ في تحريك مِشرطي، مستعينةً بنور الكشّاف الضّوئي.

ظننتُ أنّ مخلوف سيتعلّم الحرفة، من كثرة مشاهدته إيّاي أعمل، فيقتلع القرنيّات بنفسه، ويجلبها إلى عيادتي، لكنه لم يجرؤ:

– أنتَ خوّاف.

هزِئْتُ بصوتٍ خافتٍ، مترقّبة ابتسامة منه، لكنّه رمقني بنظرةٍ فيها شرر، مقطّبًا حاجبيه:

– أخاف ربّي.

أنا أيضًا أخاف الله وأستجيب لقوله «من أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعًا». وكلّ القرنيّات التي أقتلعها، أزرعها في عيون مرضى، مثل مَن يزرع محبّة في قلوبٍ معتلّةٍ، فتعيد إليهم الأبصار، بعد أن يقبض زوجي ثلاثة أرباع ثمنها. ولا غَرو في أنْ صِرتُ أشهرَ طبيبةٍ في بوسعادة، فمن المرضى مَن يعرض عليّ سبائك ذهبٍ كي أتدبّر له قرنيّة.

هاتان القرنيّتان الجديدتان ستذهبان إلى السيدتَيْن: فوزيّة الخيّاطة، التي أصابت قرنيّتَها قروح، وتخشى ألّا تعود إلى مهنتها. وشهلة البرق، التي ناضلت إبّان الاستعمار والتي يوقّرها كبار القوم. بدأت قرنيّتها تَتلف، وإذا عالجتها فسوف تتوسّط لي عند أصحاب المكاتب المكيّفة والبطون المتدلّية، في قضاء حاجاتي.

أقنعتُ المرأتَيْن بأنّني أستورد القرنيّات، مع علمي أنّ الكذب يُزهر لكنّه لا يثمر. ولم تشكّا في أنّني أحوزها من مشرحةٍ في مدينةٍ يبغض أهلها التبرع بالأعضاء، مستشهدين بكلامٍ من الدين، بأنّ للميّت حرمةً وأنّ بدنَه أمانة. كذلك أبغض مجادلة مخلوف الذي يعترض على كلّ كلامٍ أتلفّظ به، لكنّه لا يعترض على فعلي المناوئ للقانون، ما دام يراكم منه مالًا. استأصلتُ قرنيتَي الميّت اليمنى فاليسرى، مثل ميكانيكيٍّ يقتلع قِطعتَي غيارٍ من مركبةٍ معطوبة.

في الماضي، كلّما هممتُ بنزع قرنيّةٍ، ارتعد قلبي مثل سمكةٍ علقت في خطّاف صنّارةٍ، خوفًا من فشل العمليّة. وفي الليل توقظني كوابيس وشعري ملتصق بخدّي من شدّة التعرّق. رأيتُ مرّة، في

المنام، ميّتًا يستفيق ويحتجّ على فَعلتي، يطاردني وأنا أركض بقدمَيْن حافيتَيْن. ومرّة رأيتُ نفسي قد متّ، وأخذتْ طبيبة بلا ملامح تقتلع قرنيّتَيّ، وأنا أرجوها أن تكفّ عن فعلها من دون أن تسمع صوتي. ثم تمرّستُ في عملي وتخلّصتُ من عادتي القديمة بعضّ باطن خدّي. بفضل الموتى تغلّبتُ على خوفي.

لم يدم اقتلاع القرنيّتَيْن أكثر من نصف ساعة. ولمحتُ ندبة أعلى كتف الميّت، فوجهه لا يوحي بأنّه من الفتيان الشجعان. داعبتْ قلبي رغبة في تمشيط شعره، مثلما أمشّط شعر ابنتي، كي يقابل ربّي في أحسن خِلقةٍ، لكنّني تقيّدتُ بعملي فحسب. تخيّلتُ أنّه عاش حياة كما ينبغي لشابٍ في عمره أن يحيا. لم يكن وسيمًا ولم يكن دميمًا. خرج إلى البلكونة لتعليق قفص حسّون، كما حكى لي مخلوف: «تسلّق الحائط كي يرفع القفص إلى مكان أعلى، لكنّ ساقه انزلقت».

لم تنفع معه محاولات الإنعاش، فارتدى كفنًا. ماذا حلّ بعصفوره؟ هل فرّ من قفصه؟ أم لا يزال أسيرًا، مثلما أنا أسيرة زوجي؟ ومن المقدّر أنّ هذا الشاب قد هام بفتاةٍ أو فتاتَيْن، قد يكون أحبّ زميلةً له أو جارةً، ومن المحتمل أنّ حبيبته تركن إلى مِخدّةٍ في غرفةٍ مظلمةٍ، وتلطم خدّها أو تنتف شعرها، حزنًا على رحيله.

أنا أيضًا أحزنني موته وأشفقت على حال أهله. ثمّ خِطتُ جَفنيه فصار منظره مثل نائم، قبل أن أرتّب أغراضي في حقيبتي، التي أدسّ فيها قلقي وأوهامي، والتي لم تفارقني منذ أن صرتُ طبيبة.

منذ الثامنة من عمري رغبتُ في أن أصير طبيبةً، لأقلّل آلام أمّي التي تنعتني بأقبح الكلام لأتفه الأسباب، والتي تشتكي، على الدوام، من وجعٍ في المعِدة أو من صُداع. لكنّني لم أفكّر في تخصّص العيون. أردتُ أن أصير طبيبة وكفى. إلى أن أقنعني أستاذ في

الجامعة بأن أختار هذا التخصّص، بعدما رأيتُه يستبدل عدسة مُعتمة في عين مريضٍ بأخرى اصطناعيةٍ، بيدَيْن رشيقتَيْن كقائد جوقة. علقتْ تلك العمليّة في ذهني، مثلما علقتْ في ذهني صور سُكارى يرقصون في الشارع، ذلك اليوم الحارّ، عقب فوز بلدنا على ألمانيا في كأس العالم 1982.

سرتُ في ذلك التخصّص، مستسهلة وعورته. وأبي لم يتحمّس لقراري:

– ديري وش تبغي!

فهو لم يستملح ولم يستقبح خياراتي، بل ظلّ على الدوام حياديًا مثل شرطيّ مرور. فيما زجرتني أمّي:

– هذا مش تخصّص تاع نساء.

وقصدُها أنّ سنوات الدراسة سوف تطول ويفوتني قطار الزواج. تصدّيتُ لرأيها، فأردفتْ:

– اللي تزرع الريح تحصد الغبار.

هي لا تعلم أنّ برجي هو الحمل، إذ لا تؤمن بالأبراج، وحين أريد أمرًا لا بدّ أن أصل إليه. هي كذلك حين تذمّني لا تخونها الكلمات. دعتْ عليّ بلسانٍ يفوح برائحة عدسٍ، وهي ترفع سبّابتها إلى السماء: «يا ربّ يجيني خبرك مدهوسة بسيّارة». لكنني تزوّجتُ وتخرّجتُ وأنجبتُ، ولم تدهسْني سيّارة كما تمنّت، ولا هي اعتذرت عن سوء ظنّها بي.

سوف أقضي عمري بجنب الموتى، تمتمتُ وغادرتُ المشرحة، بعد إغداق دعواتٍ لروح الميّت؛ فأمّه ستصل في أيّ لحظة. بينما مخلوف يتهيّأ مستعجلًا للذهاب إلى جمعية الأيتام، التي يصرف عليها من جيبه، للاطمئنان إلى وافدين إليها، وقد قاربت الساعة الثالثة ظهرًا. سألتُه:

– هل توصلني إلى البيت بسيّارتك؟

– لا وقت لديّ.

– تخاف الله ولا تخاف على زوجتك! غمغمتُ وأنا أشعر بخيبةٍ من تجاهله لي.

قصدتُ حمّام المستشفى، ووقفتُ في طابورٍ أنتظر دوري نصف ساعة. ثم خرجتُ إلى الشارع، ولمحتُ سيّارة رينو 4 صفراء تمرّ قربي، يُزيّنها من الخلف رسم (خمسة) درءًا للعين. لم أتبيّن ملمح السائق، تصوّرتُ أن يطلّ برأسه ويطلق كلمة غزل نيئة كعادة الرجال الذين يفكّرون بأنابيبهم السّفلى، لكنّه لم يفعل.

حثثتُ خُطاي إلى الحافلة، صعِدتُها وبقيتُ واقفةً طوال الطريق، فلم يتنازل لي أحد عن مقعده. وقبل أن أدخل البيت صادفتُ جارتي طاطا نوسة، التي عرضت عليّ مشترياتها من أوانٍ منزلية، بعدما سحبتْها بحركةٍ خفيفةٍ من سلّتها المصنوعة من الحَلْفاء؛ تُرمس قهوةٍ تتوسّطه خطوط ذهبيّة اللون، فناجين وصحنان من فخّار. قالت: «شريتهم بالرخيص». فخمّنتُ أن أشتري أواني جديدة مثلها. «اشري قبل ما يفوت الحال!»، أضافت، فكلّما مضى الحال ازدادت الأسعار.

غيّرتُ ثيابي وقصدتُ الروضة، وجدتُ ابنتي مينة في انتظاري. لقد أتّمت هذا العام 1990 سنتها الرابعة. وهي السنّ التي يصير فيها الطفل مِلحاحًا لا يسامح من يخالفه رأيًا. أصرّتْ على أن أشتري لها بوظة فامتنعتُ، إذ أمنع عنها الحلوى كذلك، رغم الحرّ في آخر يومٍ من أبريل. ثمّ شرعَتْ في البكاء فوافقتُ.

من حُسن الحظّ أنّ ماكينة البوظة في المحل لم تكن تشتغل عقب انقطاع الكهرباء، فأَرضيْتُها بكيس شيبس، وأعفتني من بكائها المستميت. في طريق العودة، سألتْني:

– علاش بابا ما يخرج معنا؟

لم يسبق أن رافقَنا إلى مشوار، كمن يخجل أن يراه الناس معنا.

– مشغول.

– علاش مشغول؟

لم أردّ عليها لأنّ بالي انشغل بكلمات أمّي، التي خاطبتني، قبل يومَيْن: «راقبي زوجكِ».

هل أصدّق كلامها لأنّها أمّي أم أدافع عن مخلوف لأنّه بَعلي؟! هل تعرف أشياء عنه أجهلها؟ كلماتها صارت مثل حصاةٍ في حذائي. ألححتُ: «لِمَ يجب أن أراقبه؟».

تجاهلَتْ الردّ عليّ، مثلما تجاهلتُ الردّ على ابنتي، بعدما وعدتُها أن أحكي لها، في الليل، قصّة أليس التي زلّت قدمها إلى بلاد العجائب، من غير أن أعلم أنّ قدمي زلّت إلى أرض مصائب.

* * *

انهمك جمال درقين في تدوين أقوال عقيلة تومي، التي سألت نفسها:

– كيف للمرأة أن تعرف شريكها إذا لم تتخاصم معه؟

خفّ اهتزاز ركبتها اليسرى، ثمّ أجابت عن سؤالها:

– النساء يتشاجرن دفاعًا عن أنفسهن، لا مقتًا لأزواجهنّ.

تعلّم جمال درقين الصمت إزاء المشتبه بهم، كي يتيح لهم فرصة للإفصاح، لكنّها عادت إلى صمتها، فبادرها:

– ماذا تعرفين عن مخلوف؟

– ليس الكثير.

– إن أقررتِ بما فعلتِ به، فقد ينطق القاضي بحكمٍ مخفّفٍ في حقّك.

أراد أن يُطمئِنها إلى أنّه يقف إلى جانبها.

– أنا مستعدّة لمواجهة القاضي.

ساءل جمال درقين كثيرًا من المشتبه بهم، الذين كرّروا أسطوانتها، في نفي الشكوك عن أنفسهم.

– الجميع يشهد بحُسن سيرتي. اسأل عائلتي، مرضاي وكذلك زملائي الأطباء.

من المحتمل أنّكِ أحسنتِ إلى الناس جميعهم، لكنّكِ أذنبتِ في حقّ أحدهم... هذا ما جال في باله من غير أن يُقاطع كلامها.

– الطبيبة يهمّها مساعدة الغير لا إيذاؤهم.

– ...

– كلّما عالجتُ مريضًا شعرتُ براحةٍ في قلبي.

نبّهها أنّ مهمّته تنفيذ القانون، لا الإصغاء إلى مدحها نفسها. ثمّ مدح نفسه بدوره:

– لقد حللتُ ستّ عشرة قضيةَ قتل هذا العام!

وعجزتَ عن إصلاح ساعتك... تمتمتْ وهي ترمق الآلة الكاتبة التي لم تشتغل.

لا شيء يشغل بالها سوى أن تُخلّص نفسها وتعود إلى ابنتها:

– هل تخيّلتَ نفسكَ في سجنٍ، بشبهةٍ أنت بريء منها، بينما أقرب الناس إليكَ ينتظركَ في البيت؟

كلّما تذكّرتْ ابنتها، ارتفعتْ نبرة صوتها وارتعشتْ يدها اليمنى:

– ابنتي مينة في حاجة إليّ مثلما أنا في حاجة إليها.

– أنصحكِ بمحو صورتها من بالكِ.

2

عندما علم مخلوف بأنّني اتّصلتُ بمدير المستشفى، شحذ سكاكين بغضه لي: «هبلتِ».

كالمُتُه بشأن طبيبةٍ تأخّر راتبها، بحكم منصبي كمندوبةٍ للنّقابة، وقبل أن أُنهي إجابتي شعرتُ بنار تستعر في خدّي، إثر صفعة. عزمتُ على الردّ بمثلها، لكنّه يتجاوزني قامة. ثمّ ختم إغارته عليّ ببصقة على جبهتي ووصفني بـ«خامجة»، وأنا ممتنعة عن البكاء: «أضربكِ من أجل مصلحتكِ».

من حرصه على مصلحتي... خرج وتركني أتلمّس موضعَ الصفعة، مستشعرةً طنينًا في أذني، راغبةً في شنقه، قبل أن أنهار على الأرض وأحضن ابنتي، التي دسّتْ رأسها في حجري، وهي تصغي إلى زفراتي. تلك هي طريقتها في التعاطف معي.

ابنتي مينة لا أخت لها تروي لها قصصًا، ولا أخ يلاعبها في غيابي، فيغتنم أبي وحدتها ويصفع سمعها بحكايته عن شارلي شابلن، الذي التقاه وهو مراهق. حين حتّم عليه الفقر الانتقال إلى العاصمة والعمل عتّالًا في الميناء، يعبّئ البواخر المتّجهة إلى مارسيليا بالسلع كلّها: جلود، تبغ، فواكه، حبوب وحطب.. خجله جعله لا يذكر الخمر، ولا ينال سوى الفُتات مقابل العمل عشر ساعاتٍ كلّ يوم، كما قال:

– عندما حلّ ذلك الممثّل بشعره المسرّح إلى الخلف، مثل مَن خرج لتوّه من صالون حلاقةٍ لا من باخرةٍ، مرتديًا معطفه الشتوي رغم الطقس الدافئ. خاب ظنّي إذ لم يطلّ بثيّابه التي اعتدناها في الأفلام. لكنّني ابتهجتُ لأنّ ربّ العمل أذن لي، مع العتّالين الآخرين، بمغادرة مواقعنا لمرافقته إلى الفندق. كنّا نهتف باسمه وهو يلوّح لنا بيده.

سألتْه مينة:

– علاش تبعته للأوتيل؟

– نحب نشوفه.

– علاش تحب تشوفه؟

لم يردّ عليها، وواصل حكايته:

– في اليوم التالي، تبعتُه مع فضوليين آخرين، عند خروجه إلى التنزّه. انتهزنا فرصة توقّفه أمام محلّ تحفٍ قديمةٍ، فأقبلنا إليه نودّ مصافحته. من يصافح ذلك الممثّل كان يسكنه فرح لا يقلّ عن فرحة مَن ذهب إلى الحجّ، أو فاز في يانصيب. كنّا عشرات الأشخاص نتدافع إليه بعيونٍ شاخصةٍ وأيدٍ ممدودةٍ، مثل جيش ذبابٍ يودّ البطش بوجهه، ففرّ إلى الداخل للاختباء. تزاحمْنا وكسرْنا واجهة المحلّ. ارتفع هرجنا، فتدخّلت الشرطة. ظفرتُ بقبعته وأفلتُّ من الهراوات.

– وين هذي القبّعة؟ استفسرتْ ابنتي.

– في غرفتي.

قبّعة سوداء ومستديرة، لا يزال محتفظًا بها.

– سوف أكسب ثروة إن بعتُها، هكذا تفاخر.

حكايتُه لم تعجب ابنتي، فانصرفَتْ إلى أمّي في المطبخ.

سألتُه: «رفعتَها من الأرض أم اقتلعتَها من رأسه؟»

احتجّ على سؤالي ونفى التهمة عن نفسه. وضع سبّابته على شفتيه، كمن يأمرني أن أصمت وأصدّق كلامه. مع أنّني أصدّق ما أرى لا ما أسمع.

ليته باعها ووفّر لنفسه ولنا عيشةً أقلّ نكدًا. فقد اكتفى طوال سنين بالطواف بين شوارع مُتربةٍ، يلتقط القُمامة على متن شاحنةٍ، ولم يستخرج بطاقة هويّةٍ سوى في الأعوام الأخيرة؛ فكلّ وثائقه كانت شهادة ميلادٍ ورخصة قيادة. مع شهادةٍ أخرى في الثرثرة، عن

حروبٍ تجري في أفريقيا أو زلازلَ وفوران براكينَ في آسيا. يداوم على مشاهدة قنواتٍ أجنبيةٍ، بعدما اقتنيتُ له صحنًا لاقطًا، ولا سيما الفرنسية منها، التي تنقل أخبار البلاد أكثر ممّا تفعل القناة الوطنية، التي لم تؤكّد أو تنفِ ما تتداوله الألسن عن فرار مساجين. سألتُه إن سمع شيئًا عنهم فهزّ رأسه يمينًا ويسارًا، وهو يسحب نفَسًا من سيجارته، متابعًا شريطًا عن مدينةٍ في شرق أوروبا، تحتفل بالأول من مايو، والناس يظهرون أمام الكاميرا تعلو وجوهَهم ابتسامات.

مدن شرق أوروبا يسعى إليها سيّاح مرفّهون أو هكذا سمعتُ في التلفزيون. لا بدّ أنّ رجالها تُسيل وسامتُهم لُعابَ النساء، ونساؤها بوزن الريشة، لا يحتجن إلى حِميةٍ مثلي. لقد صرتُ أتفادى التعرّي في السرير أمام زوجي، قبل إطفاء النور.

قبل الإنجاب كنتُ ببدنٍ متوسّطٍ، ينحو إلى الامتلاء من دون ترهّل. لكن بعد الوضع، انتفختُ مثل فُطر. أخشى أن تنعتني أمّي بكلامٍ شائنٍ إذا صارحتُها بندمي على الإنجاب. قد تصفني بالجاحدة أو المرتدّة، وتقول إنّ عليّ الذّهاب إلى إمامٍ يرقيني من وساوسي. فهي تُعيبني بالعيوب التي فيها. تقول إنّ أنوثة المرأة في رَحِمِها وكلّ ذات رحِمٍ عليها أن تُنجب، ذلك هو قانون أمّي، وقانوني أن أُعرض عن إنجاب أخٍ أو أختٍ لابنتي.

لم يعد بوسعي ارتداء بنطلونات الجينز تفاديًا لسخرية المارّة منّي، وهم ينفخون خدودهم ثم يضغطون عليها بسبّاباتهم، في إشارةٍ منهم إلى أنّ عليّ أن أنحف. لا يعلمون أنّ جمال المرأة في انحناءاتها كما قرأتُ في الجريدة، وأجمل أيّامي حين كنتُ حاملًا. الحامل تُغفَر لها الزلّات كلّها؛ تأكل بلا حسابٍ ولا يُضايقها رجل، تسلم من المعاكسات ويُوقّرها الجميع.

جرّبتُ الامتناع عن السكّر والخبز فلم ينخفض وزني. صرتُ أخشى الوقوف على ميزان الجسم مثل خشيتي من فظاظة مخلوف، الـذي يعزو ترهّلي إلى كثرة العمل. يريد منّي أن أكتفي باقتلاع القرنيّات في المشرحة، ثم زرعها في عيون المرضى بعد أن يقبض ثلاثة أرباع ثمنها، من غير أن أسأله أين يذهب ومن أين يأتي ولماذا يتأخّر في العودة إلى البيت، عندما لا يـداوم في العمل ليلًا. يظنّ نفسه ذا القرنَيْن وأنا تابعة له، لكنّني أقاوم مِزاجه بضحكاتٍ بلهاء. أشبك ذراعيّ وأُدخل رأسي بين كتفيّ إلى أن يغيّر كلامه.

لقد استقررتُ معه في الطابق العلوي من بيت والديّ، وفررتُ من منزل حماتي الشديدة التأفّف من طبخي المملّح. تحجّجتُ بضوضاء جيرانها، التي كانت تُربك نوم طفلتي. لم يسرّها أن نفارقها وعابت بدورها جيراني: «لأنّهم بسطاء وليسوا من الأغنياء؟»، فسّرتُ قولها. «كما أنّ بيت والـديّ أقرب إلى المستشفى من بيتكِ، حيث المشرحة التي يعمل فيها مخلوف»، أقنعتُها.

كذلك لا يمكننا أن ننفرد بسكنٍ إلى أن تكبر مينة، التي تحتاج إلى عناية أمّي، حين أغيب في عيادتي. الأمومة لا تختلف عن الأسْرِ، فقد ضاعفتْ من أرقي. كانت ابنتي في أشهرها الأولى تبكي في الليل كمن استجمعت أحزان اليتامى، فأذيقها من حليبي وتسكتْ. وحين يطول هدوؤها أستفيق من نومي لأطمئنّ إلى أنّها تتنفّس.

لم أحسم أمري: هل أحبّها أم أنّني أمارس دوري بالفطرة؟ مع أنّني تمنّيتُ في صغري أن أصير أمًّا. كنتُ أسرّح شعر دميتي، ذات الـذراع المقطوعة، ثم أقرّبها من صدري كأنّني أُرضعها إلى أن تدقّ أمّي رأسي بقبضة يدها: «عيب».

هذه الكلمة موشومة على لسانها مثل الوشم الذي تزيّن به ظهر يدها. السكوتُ في حضرتها أكثر أمنًا من الكلام.

كذلك لم أحسم أمري تجاه زوجي: هل أتيح له فرصة أخرى؟ أم أبادر إلى ما يدور في خاطري؟ تمنّى أن يُرزق ذكَرًا لكنّني أنجبتُ أنثى، فصيّرني عدوّة له. يعلم أنّ ماء الرجل هو ما يحدّد جنس الجنين، لكنّه يؤثر النكران. آمنتُ أن صبري معه سوف يليّن قلبه، لكنّه عاند. سألتُه عقب الولادة عن اسم لابنتنا، فأجاب: «الزواج الذي لا ينجب ذكرًا مضيعة للوقت».

سمّيتها يمينة نسبة إلى أمّه، على أمل أن يغيّر سلوكه، لكنّني أخطأتُ التّقدير. تعوّدتُ مناداتها مينة، راجيةً لها حياةً آمنة، وأن تنجو من الارتباط برجلٍ مثل زوجي، الذي لا يبادرني بكلامٍ يشعرني بأنّني ذات مرتبةٍ في فؤاده.

هل الحبّ شاقّ إلى هذه الدرجة؟ أليس يعلم أنّ الحبّ يطيل العمر ويطمر عيوب المُحبّ؟ إنّ الشرط الأوّل للطبيب الشرعي أن يلتزم الكتمان، ومخلوف كتم مشاعره نحوي ولا يزال. أنبتَ في قلبي أشواكًا وأوحى إليّ أنّ الزواج ليس سوى غسل ثياب رجلٍ آخر، غير ثياب أبي وشقيقي. تزوّجتُ على الورق وقلبي ظلّ عازبًا، مع أنّني تجاوزت الثلاثين من عمري. صرتُ أنسى عيد ميلادي وظهرت خُصلة بيضاء في رأسي. «من يظهر شيبها يبطل كلامها عن الحبّ»، تقول خالتي.

لا شيء أسوأ من الموت إلّا زوج مثل مخلوف؛ يَعيب عليّ انخراطي في نقابة الأطبّاء، التي صرتُ مندوبة لها في هذه المدينة، أُصغي إلى مشاغل العاملين في الصحة. سوف أنتفع منها بدورات تدريبٍ في فرنسا.. علّلتُ التحاقي بها، بما يُرغمني على التواصل مع خصمه؛ مدير المستشفى. ووعدتُه بالانسحاب منها بمجرّد إتمام مهمّتي الأخيرة، في تصوير مقابلةٍ مع صحافي موفد من التلفزيون في العاصمة، يكنّى بودو. سوف يُجري استطلاعًا في بوسعادة، لمناسبة

انتخابات البلديّة، المزمعة الشهر المقبل، وأحدّثه عن ضرورة إنشاء كُليّة طبّ. ستصير الأولى في نوعها جنوب البلاد، إذا استمع المسؤولون إلى كلامي وأقنعَتْهم حججي.

حين أخبرتُ أبي أنّني سأقابل بودو، علّق: «إن شاء الله يردّ دَيني عليه».

أبي وبودو تجاورا في الجبهة الإيطالية، سنوات الحرب العالمية الثانية.

– من جراء الحرب والغارات، انقطعت الصّلة البحرية بين الجزائر وفرنسا، وبتّ بلا عملٍ في الميناء. بدلًا من أن أجبَر مثل غيري على الالتحاق بالجيش، تطوّعتُ طلبًا للُقمة العيش، في عام أكل فيه النّاس الجيفة.

– ماذا فعلتَ في الجيش؟ سألتُهْ.

– حلقوا شعري على الزيرو ولبستُ بزّة عسكرية، مع خوذةٍ تشبه طنجرة. صرتُ أنام ببطنٍ ممتلئٍ، واقتديتُ بأوامر ضابط أخضعَنا لتدريباتٍ، كانت تنتهي بتوزيع علب سجائر. ثمّ أوصلنا إلى الجبهة الإيطالية، فاستقبلتْنا طائرات ألمانية بقذائف اخترق صفيرها أذنيّ مثل طنين نحل.

– فكّرتَ في الفرار؟

– ورأس يمّا لم أفكّر في الفرار! بل رغبتُ في أن أصير سائقًا في الجيش، لكنّني ظللتُ في صفّ المشاة. واستحسن الضابط أدائي، فنقلني إلى سريّةٍ أكثر عتادًا، التقيتُ فيها بودو، بطوله الذي يقارب المتر والثمانين سنتمترًا وبشرته القمحيّة. هانت عليّ مشقّتي واستبدلتُ حكايات معه بخوفي. كنّا نتقدّم في المعارك من دون خشية أن نُقتل، بل كنّا نخاف أن نسقط أسرى.

– لماذا؟

– خشينا أن نُعدَم تحت دبابّةٍ، فنُدفن في حفرةٍ جماعيّةٍ. سند بودو ظهري وسندتُ ظهره. وكم من مرّةٍ حسدتُ الجنود الذين يتسلّمون رسائل من أهاليهم، فيما لا أحد يكاتبني.

– لم يكاتبك جدّي وجدّتي؟

– جدّتكِ وجـدّكِ كنتُ قد دفنتُهما بعدما مسّهما الطاعون، الذي مسّ خمسمئة نفْسٍ أخرى. فقدتُ ثلث وزني في الحرب، لكنّني نجوتُ أنا وبودو من الموت، بعدما دفنّا نصف زملائنا تحت التراب. أتذكّر حين أسعفتُه من جوع، ذات مرّةٍ، بعلبة سردين. وعدني أن يدفع لي ثمنها حين نعود، لكنّه لم يفِ بدَينه.

أمّا فرنسا، فقد وفتْ بوعدها لأبي. سلّمتْه وسامًا وتعويضًا، لقاء خدمته في الجيش. عاد بأثر جرحٍ غائرٍ في معصمه، نال رخصة قيادةٍ واشترى شاحنة نقل بضائع ثمّ بيتًا، قبل أن يتزوّج أمّي. وتلك حكاية لا يودّ العودة إليها. فقد كان يكلّمني من دون أن يحيد بنظره عن التلفزيون. ولا بدّ أنّ بودو نسي قصّة السردين، لكنّني سأسأله عنها حين ألتقيه.

– من المحتمل أنّه نسيَك، قلتُ وأنا أحكّ قفاي.

– ينسى كلّ شي عدا الكرافتة اللي يطلع بها في التلفزيون، أجابني.

لا أستلطف ربطات العنق التي يظهر بها ذلك الصحافي، زاهية الألوان ولا تتناسق مع بدلاته القاتمة. لكنّ برنامجه يروقني؛ يفضح فيه أعطاب الـبلاد، من مشاريع معطّلةٍ وأخـرى مؤجّلةٍ، ما جعل له جماهيرية.

– ستعود إلى القناة الوطنية وتشاهدني حين أظهر في برنامجه؟ سألتُ أبي وأنا أداعب خصلةً من شعري.

لم أسمع إجابةً منه، بل سمعتُ هدير المروحة الكهربائية المعلّقة على السقف، التي تُنعش المكان بالهواء. فقد قام من مكانه للردّ على الهاتف، بينما تشير الساعة على الحائط إلى العاشرة صباحًا، ثمّ عاد يتأفّف: «متّصل مجهول».

لا يُسمع سوى زفيره، ولم يكفّ عن مضايقتنا، منذ أسبوع.

غرقتُ في التفكير دقيقة أو دقيقتَيْن بما يمكنني لبسه لمقابلة بودو. هل أرتدي تنّورةً أم فستانًا؟ هل أضع مكياجًا غزيرًا حول عينَيّ وشَفتَيّ لإخفاء أنفي الكبير، الذي ورثتُه عن أبي؟ أم أقابله بخلقة ربّي؟ لم أعلم أنّني سوف أتخلّى عن المكياج، وينوب ثوب الحداد عن ثيابي الأخرى.

* * *

أمر جمال درقين شرطيَّيْن بتفتيش عيادة عقيلة، عقب توقيفها، قصد الوصول إلى قرينة، تؤكّد الشّكوك التي تحوم حولها.

– هل عثرتُم على شيء؟

تزايدت نبضات قلبها، خوف أن يكون الشرطيان قد عثرا على شيءٍ يبرّر إحالتها على سجنٍ ستطول سنوات.

– ألم تعثروا على شيءٍ تسألونني عنه سوى الجريدة التي كنتُ أطالعها؟

تعوّدتْ، في ما سلف، مطالعةَ جريدة «لوموند» التي ازداد ثمنها، فاستبدلتْ بها جريدةً محليّة، ظهرتْ عقب إقرار دستورٍ جديدٍ، العام الماضي، يُلغي احتكار الحكومة سوق الصحف.

– تلك جريدة تشوّه صورةَ البلد! عقّب جمال درقين.

– صدرت برخصة نشرٍ، على حدّ علمي.

وبـرّرتْ إصرارَها على مطالعتها، بعدما توقّفت يدها اليمنى عن الارتعاش:

– كنتُ أطالع فيها بُرجي.

فهي تطالع الأبراج، منذ سنّ المراهقة.

– مطالعة الأبراج لا تلغي إيماني بالقضاء والقدر، أضافت.

برجها يخبرها، كلّ مرّة، بأشياء تحصل وأخرى لا تحصل.

– كما أنّ الأبراج تخفّف من ضجري.

– ...

– أنا من مواليد برج الحمل. وأنت؟ سألتْه.

لم يكن المحقّق من النوع الذي يثق في الأبراج، ولا يعرف إلى أيّ برج ينتمي. علّقتْ:

– أظنّك من برج الميزان. لأنّك على العكس منّي، عنيد في تشبّثك بآرائك.

– أنتِ طبيبة أم عرّافة؟

– أنا أعرف سرائر مرضايَ من مجرّد النظر في عيونهم.

قاطع كلامها:

– حياتي مثل حياتكِ تسير مثلما خطّط لها ربّ السماوات.

وانتقل في مساءلتها عن شقيقها ميلود:

– يعمل ممرّضًا في عيادتي.

– وماذا أيضًا؟

– لا يشاركني شيئًا عن حياته.

– لكنّه يشاركُكِ في أفعالكِ!

3

اختفى الكوكايين، الذي أستعين به للتخدير أثناء العمليّات. بينما باب العيادةِ لم يمسَسْه ضرر، وشقيقي الممرّض لا يعلم مَن تسلّل إلى الداخل. «أحتمل أنّ الفاعل فتح القُفل بمفكّ براغٍ أو سكّينٍ»، قال لي.

أوصيتُه والغضب يكوي أمعائي، بعدم استقبال أيّ مريضٍ، مهما كانت حالته، من غير موعدٍ مسبّق. بات كلّ مريضٍ مشتبهًا به في نظري. لكنّني أشفقتُ على العجوز، التي حلّت بوجهٍ يبرق فيه وشم بشكل خطَّيْن متوازيَيْن على ذقَنها، يشبه وشم جارتي نوسة. خطّان يعنيان الفرح والحزن، تعوّدت النّساء وشمَهما في الماضي، عندما يُقبلن على زواجٍ أو إنجاب. سمحتُ لها بالدّخول، ثم ندمتُ.

خلتُ أنّها تعاني ضعف بصر أو مصابة بالسّكّري ما أودى بها إلى اعتلالٍ في الشّبكية، فجاءت تلتمس نظّارة. صافحتُها بكفٍّ مستقيمةٍ، واستعددتُ لأن أُجلسها وأسقي عينَيْها قطراتٍ توسّع البؤبؤ، قبل أن تخاطبني باستياءٍ كمَن تخاطب كنّتها:

– مرضي في الرّكبة.

اشتكتْ من التهابٍ في مفاصل رُكبتيها، ومن عجزها عن قطع مسافاتٍ متوسّطةٍ أو صعود الدّرج:

– كلّ يوم نْخرّج زوجي، اللي شاخ أكثر منّي، نتمشّى ونشمّ هواء، وخايفة نقلع عليه هذي العادة، صارحتني.

ماذا فعلتْ لتحافظ على علاقتها مع زوجها كلّ هذا العمر؟ خشيتُ أن أسالها فتظنّني أتطفّل على شؤونها.

تلك ليست المرّة الأولى التي يأتي فيها شخص يعاني أمراضًا أخرى غير العينَيْن فيلعب بأعصابي، ويُضطرُّني إلى اختبار صبري. مع ذلك، فقد تعاطفتُ مع المرأة التي هرولتْ إليّ، منذ شهرَيْن، بعدما

سلّط زوجها مكواةً ساخنة على نهدها، لأنّه شكّ في وفائها له. أو تلك السائحة التي لجأت إليّ بصوتٍ يرتعش، بعدما خطف مراهق قرطها في الشارع، تاركًا أذنها تنزف. لكنّني عانيتُ مع هذه العجوز أكثر من غيرها. أخبرتْني أنّها خضعتْ لحجامة لم تُفدها، مثلما لم تُفد كلماتي في إقناعها بأنّ علاج المفاصل ليس من تخصّصي، وهي تصرّ على أنّني أحوز دواءً يشفيها:

– الطبيبة تعرف كل شي!

لو أنّني أعرف كلّ شيء لعرفتُ مَن سرق الكوكايين.

كلّمتُها بصوتٍ عالٍ، مستعينةً بحركات يدي التي رشحت راحتها بالعرق، كي أرشدها إلى طبيبٍ يقيم قريبًا من بيت حماتي. ولم تغادر عيادتي لأنّني وجّهتُها إليه، بل لأنّني افتريتُ عليها بأنّها ستَبرأ من علّتها إذا فحصها وهي صدّقتني، فالكذب يشفي المرضى أكثر من الدواء. دعت لي:

– الله يرحم الكرش اللي جابتك.

لو عرفَتْ عداوتي مع أمّي لغيّرتْ دعاءها، قلتُ في نفسي، بينما يسترق شقيقي ميلود السمْع إلى حديثي معها، بعدما بلغني وقع خطواته من خلف الباب.

«سمعتُ شقيقتي عقيلة، التي تصغرني بأربع سنواتٍ، تتكلّم بنرفزةٍ مع عجوز، بينما أنا أطوف بين أرجاء العيادة، للاطمئنان إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام. لم يسبِق أن خيّبتُ ظنّها في عملي، فبمجرّد أن تناديني: «ميلود!»، أكون ممتثلًا أمامها. أفعل ما تأمرني به، وكلّما تعسّر عليها أمر استنجدتْ بي. فهي الطبيبة وأنا ممرّض «والعين ما تعلو على الحاجب». ومنذ أيّام لا يشغل بالَها سوى لقائها المرتقب بصحافي آتٍ من العاصمة، وترجو أن

أساعدها بنصائح وأفكارٍ من شأنها إقناعه وإقناع المسؤولين من خلفه، بمشروع كليّة طبّ. تقول على الدوام إنّ لي أذنَي خُفّاشٍ تلتقطان دبيب نملة. «الممرّض خُلق كي يصغي إلى الآخرين» أجيبها. كانت أقرب الناس إليّ في صغري. كنتُ أصطاد العقارب، بغصنٍ طويلٍ ثمّ أُغرقها في حوض بنزينٍ، وأبيعها لصيدليٍّ يستفيد من سُمّها في خلطات دواءٍ، وأغدق عليها بالشوكولاتة، أو أُضحكها إلى أن تظهر أنيابها، عندما أستعير قبّعة شابلن من أبي. أطلي وجهي بالطحين وأرسم شاربًا بالحبر، فأقلّد ذلك الممثّل في مشيته مثل دميةٍ، بقدمَيْن منفرجتَيْن مثل بطّةٍ، ومنتعلًا حذاءً أكبر من مقاسي بعد أن أكحّل عينَيّ. تشاركها أمّي الفُرجة، وهي التي شاهدت أفلام شابلن في التلفزيون، فحفِظتْها مثلما تحفظ نمائم جارتنا طاطا نوسة، التي وقّعت السنون على وجهها تجاعيدَ، وسرقت منها بياض بشرتها، لكنّها لم تقوّس ظهرها وزادت لسانَها شبابًا.

ثمّ كبرتُ وانقلبَتْ حياتي وبتُّ لا أتكلّم سوى عند الحاجة، مبتسمًا بابتذالٍ في وجوه المرضى، كاشفًا عن أسناني التي أنظّفها بعود سواك. كذلك أقوم بواجبات سبّاك وكهربائيٍ في العيادة، وأجيب عن أسئلة شقيقتي من غير مواربة».

سألتُهُ ذات مـرّة إن كانت له حبيبة. كلّا، لم أنطق بكلمة «حبيبةٍ»، بل قلتُ بلغةٍ مهذّبةٍ:

– هل تعرّفتَ إلى زوجتك المستقبلية؟

أجاب بالنفي خافضًا بصره، وهو يحكّ عنقه بيد ويدسّ الأخرى تحت إبطه.

نوى في الماضي خطبة فتاةٍ، لكنّ رغبته لم تكتمل، وأمّي لم تُثقل عليه بأن يتزوّج مثلما ألحّت عليّ: «امرأة بلا رجلٍ مثل دارٍ بلا سقف». وبعدما تزوّجتُ وأنجبتُ صارت تنصحني بترصّد مخلوف. لكنّها لا تتدخّل في شأن شقيقي مثلما هو لا يتدخّل في شأني، مقتديًا بآية «لكم دِينُكم ولي دِين». وعندما ألححتُ في سؤالي عن تأخّره في الزواج، أجاب:

– لم أعثر على المرأة التي تلائمني.

لم يُفدني بصفات المرأة التي تلائمه، ولم أصرّ في الكلام، فهو يعمل بلا كلل. يصل كلّ يومٍ إلى العيادة قبلي ويغادرها بعدي. يحصل أن يختفي على عجل، في ساعات الدوام، إرضاءً لمعِدته، ثمّ يعود إلى مكانه، بعد اقتناء كوب قهوةٍ أو قطع «بغرير»، الذي يحضَّر بالدقيق الأبيض والسمن والعسل. يأكل من غير شوكةٍ وسكّينٍ، فتصير يداه لزجتَيْن ويصافح بهما المرضى. وددتُ نهيَه، لكنّني خفتُ أن يشعر بأنّني أتأمّر عليه. ولم يحصل أن اعترض على راتبه أو طلب منّي زيادةً، لكنّني أُغدق عليه العطايا كلّما بعتُ قرنيّة. على الرغم من قربه منّي، لم يسألني عن مصدرها. أظنّه يعلم ولا يتكلّم. إنّه من النوع الذي يطمر الأشياء في قلبه ولا يُظهرها.

لا بدّ أنّ ميلود يُخفي اكتئابًا ويُحجم عن الإفصاح عنه. من المحتمل أنّه أحبّ امرأةً ولم تراع مشاعره، فقد علّمتْني مهنتي التكهّن بحالات النّاس. يكفي أن أفحص عينَيْ أحدهم كي أقدّر حاله، إن كان يتجشّم وَسواسًا أو أرقًا. مع ذلك فإنّ شقيقي لا ينسى، كلّ صباح، أن يزوّدني بالجريدة، التي لا يقرأها بل يستعين بها في التنظيف. أروّح بها عن نفسي، فأطالع أحوال برجي، الذي يعدني بالسعادة من دون أن أعثر عليها. كما أصادف فيها أنباءً ترفع نبضات قلبي:

«امرأة تخنق رضيعَها وتحاول الانتحار... تفكيك عصابة أشرارٍ كانت تسيطر على حيٍّ سكنيٍّ وتهدّد المارّة بسواطير... اختطاف مدير مصنعٍ والتحريات جارية... نبش قبورٍ وقطع أيدي جثثٍ في مدينةٍ ساحليّةٍ... طفلان في الحادية عشرة من عمرهما يقتلان زميلهما في المدرسة بقضيبٍ من حديد».

ثمّ وقع بصري، ذلك اليوم، على خبرٍ شغَل بالي في استراحة الغداء، الذي لا يتعدّى سلَطة أرزٍّ وطماطم وبطاطا، مؤمنةً أنّ من شأنها أن تخفض وزني.

قرأتُ خبرًا عن طلاق ممثّلةٍ شهيرةٍ، تستأثر بكلّ ما تحلم به امرأة. كيف يُعقل أنّ زوجها خانها وضاجع أخرى؟ ألم تنصحها أمّها كما نصحتْني أمّي: «راقبي زوجكِ»؟ من الواضح أنّ المشاهير أشدّ تعاسةً منّي، ويجب ألّا أغضب إن خانني زوجي. أرجو ألّا يخونني مع امرأةٍ مصابةٍ بمرضٍ فينقل إليّ العدوى، رغم حرصه على تعاطي مضادّاتٍ حيويّةٍ، وحرصي على غرز إبرةٍ في كلّ شمعةٍ مشتعلةٍ كي لا يستيقظ عضوه مع غيري، كما أوصتني خالتي.

كلّما ازدادت ثقة المرأة في زوجها ازداد ميله إلى خيانتها، هكذا قرأتُ في الجريدة. لكن من حقّي أن أحلم بتجريب حياة المشاهير، أن أعيش في قصرٍ من حولي خدم، وأن أسافر إلى بلدانٍ بعيدةٍ، فأشاهد بحارًا وأنهارًا وغابات. أنا لم أزر سوى القاهرة، في شهر عسلي الذي لم يدم سوى أسبوع. وما زلتُ أرجو أسفارًا أخرى، لكنّ خيط أوهامي قطعه رنين التلفون، كأنّه ليس من حقّي أن أحلم دقيقةً أو دقيقتَيْن.

رفعتُ السمّاعة بين أذني اليمنى وكتفي، كي يتسنّى لي أن أعدّل حمّالة صدري، التي بلّلها عرقي. رششتُ عطرًا في الجوّ، قبل أن

يعاجلني صوت رئيس البلدية، الذي يودّ مقابلتي في مكتبه، لأعرض عليه خطّتي من أجل إقناع بودو بإنشاء كُليّة طبّ.

أشعر بأنّ رئيس البلديّة لا يثق في فكرتي، التي نازعني فيها الدكتور قدور جندال، الذي يمتهن مثلي طبّ العيون، لكنَّني سوف أقنعه بما أخطّط له. طمأنتُه:

– سوف أحضّر شيئًا مكتوبًا وأعرضه عليكَ عند زيارتي مكتبك.

أردفتُ:

– خطّة مُحكمة يقتنع بها المسؤولون في العاصمة.

حككتُ حاجبي وأضفتُ:

– ستزداد شعبيّتك.

رغم علمي أنّ الناس سيصوّتون، في الانتخابات، لمَن يملأ قلوبهم بوعودٍ يعجز عنها السحَرة.

أتمنّى أن نظفر بتلك الكُلّيّة ونُعفي الطلبة من التنقّل مئات الكيلومترات، إلى جامعات الشَمال، مع ما يتحمّلونه من مشقّةٍ وكُلفةٍ نظرًا لجيوبهم الفارغة وعائلاتهم الفقيرة. لكنّني لا أعرف كيف أقنع بودو، ومِن خلفه المسؤولين بفكرتي. أنا لم أقنع زوجي بأن يُحبّني فكيف أقنع كبار القوم بأن يحقّقوا مطمحي؟ أحتاج إلى وقتٍ للتّفكير كي تصير فكرتي مقبولة.

ظلّت الخواطر تغلي في ذهني إلى أن أتممتُ فحص مرضايَ. ثمّ سألتُ ميلود، وأنا ممسكة بوجهي بين يديّ، أن يشير إليّ بفكرةٍ أو اثنتَيْن كي أقنع صحافيّ التلفزيون بمشروعي، قال: «السكّان يزدادون عددًا مثل الذباب، والمرضى كذلك. كما أنّ المشروع سوف يتيح مناصب شغل للبطّالين».

دوّنتُ كلامه، فهو سندي في الأمور التي تتعسّر عليّ؛ ينصحني فأستجيبُ له. كما أنّه، مثل أبناء المدينة، فخورٌ ببودو، الذي خرج منهم وبات يشغل منصبًا مرموقًا.

خرجتُ عائدةً إلى البيت فسمعتُ أذان المغرب، ولمحتُ حديقة الأطفال المجاورة لعيادتي، المحاطة بسياجٍ معدنيٍّ، يرتفع منها أزيز جرّافة ومِطرقة ثاقبة، أردّد في سرّي: سوف يُجدّدونها ويُصلحون الزحاليق والأراجيح، قبل وصول كاميرا التلفزيون. تلك الحديقة، المفروشة بالرمل، التي أحبّ أن أتلصّص فيها على الأطفال يلعبون. ومضيتُ أدندن كلمات «ناس الغيوان»: «خليني نبكي وانوح... خلي مشكلي مطروح...».

عجّلتُ خَطوي، فحين يحلّ الظلام، يستولي مَن لا سكن لهم على الطرقات. استأتُ مجدّدًا من أنّ عليّ شراء كميّةٍ جديدةٍ من الكوكايين، تساوي راتب أسبوعٍ من العمل، وواصلتُ الدندنة: «يا الأهوال... وحدي والليل وأمواج العافية تميل... كثر الظلم والقتيل... ما بقى الأمان...»، حين ظهرت مرّة أخرى سيارة رينو 4 صفراء اللون.

لم تـدنُ منّي في المرة السالفة صدفةً، بل كانت تتعقّبني. شعرتُ بارتجاف في معدتي وأنا ألتفتُ حولي. هل هو أحد أقارب ميّت اقتلعتُ قرنيّتَيْه ويودّ الاقتصاص منّي؟

* * *

سألها جمال درقين عن شهلة البرق، فأجابتْ:

– لم يحصل أنْ التقيتُها قبل أن تزور عيادتي. اتصلتْ بي كي تضبط موعدًا، كما يفعل غيرها من المرضى، وجاءت لإجراء فحوصٍ، ثمّ مرّة ثانية للخضوع لعمليّةٍ في عينها.

لا بدّ أن أحدًا من أهلها عرف شهلة البرق، خمّن.

– مخلوف كان يسمع عنها، أجابتْه.

واستطردتْ:

– أعلمتُه أنّها حدّدت موعدًا وأنّني سأُجري لها عمليّة. هي امرأة ذائعة الصيت، من المنطقي أن أكلّمه عنها.

أمّا مخلوف، فلم يكن يحدّثها عن عمله سوى عندما يسمح مزاجه بذلك.

– من المنطقيّ أيضًا أن تكلّمي عنها والدَكِ!

– افترضتُ أنّه يعرفها، فقد شارك هو أيضًا في حرب التحرير.

راحت تتفاخر بماضي والدها، ونفى المحقّق معرفته به.

– اسألْ قدامى المحاربين.

لا يهمّه والدها، بل يهمّه أن يعرف علاقتها بشهلة البرق، أضافت:

– لم يسبِق لأبي أن حدّثني عنها.

والدها تقدّم في السنّ، وذاكرته لا تُسعفه باستحضار كلّ الذين عرفهم، هكذا فكّرتْ وعقّبتْ:

– للذاكرة غِربال، تستبعد أشياءَ وتحتفظ بأخرى.

– وأنتِ تُخفين أشياءَ في علاقتكِ بشهلة.

4

أصدر القاضي حكمًا بالإعدام على شهلة البرق، عقب اتهامها بتفجير مقهى وتوقيفها إثر وشاية. لكنّها فرّت من سجنها، بعدما اقتلعت شبّاك زنزانتها وقفزت إلى الخارج، مغتنمةً ضعف الحراسة، فيما تأخّر السجّانون في الانتباه إلى فعلها. حصل ذلك عام 1959. ومِن النمّامين مَن يقول إنّها دفعت رشوةً وتواطأ حارس معها. فقد كانت فدائيّة خلال حرب التحرير، لا تثير الشكوك من فرط تشبّهها بالأوروبيّات، في العشرينيّات من عمرها، بشامةٍ أسفل فكّها. صارت حكايتها على الألسن كلّها، وكان الأطفال يلعبون بمسدّساتٍ من بلاستيك، وكلٌّ منهم يسمّي نفسه باسمها.

رأيتُ صورةً قديمة لها، ببشرةٍ بيضاء ناعمةٍ وشعرٍ بلون النفط الخام، تصلُح أفيش فيلمٍ أو مسرحيّة. لم تهجر عملها السرّي في زرع قنابل تقليديةٍ، تخفيها في سلّةٍ مصنوعةٍ من حَلْفاء، حتى الاستقلال عام 1962. ثمّ أخذتْ ثأرها من الذي وشى بها، كما سمعتُ من الأفواه، وهو أحد الحركى. وتلك كلمة عاميّة مفردها حركيّ، يُقصد بها جزائريون تعاونوا مع المستعمِرين. وظلّت شهلة، التي نسي الجميع اسمها العائلي، مفضّلين الإشارةَ إليها بكُنيتها «البرق»، تحظى بتقديرٍ من البسطاء وعلية القوم، الذين يتقرّبون منها بهدايا وكلامٍ محبّبٍ، مثل مَن يتقرّب إلى أولياء الله الصّالحين.

«عملتُ واجبي». ردّت عليّ بعدما صارحتُها بمشاعري نحوها، وهي تجلس قبالتي، تشبك يدَيْها وتحرّك رأسها من الأعلى إلى الأسفل، فيتحرّك معه قرطاها الذهبيّان.

اليوم موعد عمليّتها من أجل زرع قرنيّةٍ جديدةٍ في عينها، مكان الأخرى التي بدأت تتلف، وقد بلغت منتصف الخمسينيات

من عمرها. لم يبدُ عليها قلق من العملية التي تنتظرها، فنظراتها كانت ثابتة وهي تتطلّع إليّ، ولستُ أدري هل يعود ذلك إلى ثقتها في نفسها أم إلى ثقتها فيَّ أنا؟ أرجو أن يكون الجواب الثاني، فقد سرّني أن تقصد عيادتي برفقة بِكرها: «ينتظرني في غرفة الرجال». قصد إعادتها إلى البيت، بعد أن أفرغ من عملي.

أظنّ أنّها أتت إليّ بعدما سمعتْ كلامًا طيّبًا عنّي، فهي من نوع النساء اللواتي لا يُقبلن على خطوةٍ من غير حساب، مثل عظاءةٍ تستشعر الخطر أو الأمان قبل أن تخطو إلى الأمام. لكن لا خيار لها، لا أحد يزرع قرنيّاتٍ سواي. وبحكم سُمعتها ومالها، وهي المقيمة في حيّ الغاردن الذي يقطنه مَن تيسّر ماله وعلا نسبُه، ببُيوته التي تحفّها الحدائق وأرصفته التي لا تشوبها حفرة، كما أنّها تصرف على جمعيةٍ خيريّةٍ لإطعام أطفال الشوارع وكسوتهم، كان بوسعها أن تعالَج في فرنسا. فهناك لا أحد يسرق قرنيّات الموتى، بل يحصل أن يتبرّع بها ذووهم عن طيب خاطر. بل يحقّ لها السفر والعلاج على نفقة الدولة، التي تتيح عيشًا مريحًا لمجاهدي حرب التحرير مثلها.

«نأكل التراب وما نروحش إلى فرنسا». استعادت تلك الجملة المقتبسة من لسان الرئيس هواري بومدين، الذي كرّمها بوسام استحقاق. فنظّمت له جنازةً مصغّرةً عقب وفاته في 1978، مشى فيها أطفال المدينة وكهولها حزنًا عليه.

أمّا أنا، فلا أريد أن آكل ترابًا، بل أريد زيارة فرنسا، فأستفيد من دورات تدريبٍ في مستشفياتها. وأحظى بلقاء بنات عمّي، اللواتي حملهنّ والدهنّ إلى الضفة الأخرى، ثمّ مات. أتخيّلهنّ يعزفن البيانو أو يرقصن الباليه، ويسبحن في البحر ويستلقين تحت الشمس، فيما أنا لم أتعلّم السباحة. لم يصرفن وقت فراغهن مع ليفة غسل الأواني كما فعلتُ. لكنّني لم أتذمّر من حالي، وأحلم بأن تنشر هذه السيّدة

كلامًا محفّزًا عنّي، بعد أن أشفيَ عينها. قد يسمع رأيَها مسؤولون، فأصبح معالجةً لأصحاب المناصب لا عامّة الناس فحسب. هيّج حلمي لساني، فسألتُها معاضدَتي في إقناع بودو بتكريس برنامجه كاملًا لمشروع كُليّة الطب:

– لا أعرفه. أجابتني كمَن تضايقتْ من طلبي.

لكنّني على قناعةٍ بأنّه يعرفها، وسوف أورد اسمها في لقائي به، فأكسب ثقة المشاهدين والمسؤولين في العاصمة.

أضافت:

– اتّكلي على ربّي.

هذه هي النصيحة التي اكتفتْ بها، فشعرتُ بأنّها تضمر ممانعةً في مساعدتي، راجيةً أن يكون حدسي مخطئًا كالعادة.

شرعتُ في تحضير مِشرطي والعتاد المرافق له، الذي زرعتُ به قرنيّةً في عين فوزية الخيّاطة كذلك، ثمّ دخل ميلود لمساعدتي، وهو يمسّد فروة رأسه المتوسّطة النعومة، وسألتْني عنه:

– هو الممرّض.

وقصْد أن أحسّسها باطمئنانٍ، أردفتُ:

– شقيقي الأكبر.

سطع وجهها، المدهون بكريماتٍ، بابتسامة. وتوقّعتُ أن تسألني عن زوجي كما تفعل نسوة أخريات، فأجيبها بأنّني متزوّجة برجلٍ يتكلّم بيدَيْه. اشتكى أمس من كَثرة حركة مينة، قائلًا: «بسبب تربيتكِ الخامجة لها»، فأجبتُه: «تشبه أباها». لم أخطأ في كلامي، مثلما لم تخطئ صفعته طريقها إلى خـدّي. لكنّ شهلة طرحت سؤالًا آخر:

– مَن هو والدكِ؟

– عزوز خالدي.

ظننتُ أنّ نُطقي باسم والدي سيعيد إلى بالها ذكرياتِ العمل الفدائي، لكنّها لم تتحمّس للكلام. أضفتُ:

– كان يُكنّى «كردادة»، زمن حرب التحرير.

لم أسمع ردًّا منها وكأنّ سؤالها لا يعدو كونه فضولًا.

ذكرتُ لها اسم أمّي قمرة ديلي، التي تكفّلت بتزويد فدائيّاتٍ بأقراصٍ سامّةٍ، في سنوات الحرب، يبتلعنها إن جرى اعتقالهنّ وفشلن في مقاومة التعذيب، فنفت معرفتَها بها. لم يفاجئني الأمر فقد كان عملها يدور في السرّ. وأرجّح أنّ أمّي تعاملتْ مع فدائياتٍ أُخرياتٍ، كنّ يغرسن في أمكنةٍ عامّةٍ قنابل أبي، التي تعلّم صنعها أيّام الحرب العالميّة الثانيّة.

– كبِرتُ وصرتُ أنسى، علّقت شهلة البرق.

ذكّرتُها ألّا تنسى تبعات زراعة القرنيّة، فنظرها لن يتحسّن في الحين، بل يحتاج إلى أسابيع. كما أخبرتُها أنّها ستعاني حساسيةً من الضوء وصعوبةً في فتح عينها. لقد جاءت كما نصحتُها من غير أن تأكل شيئًا الليلة السابقة، فأجابتْني:

– ربّي يجيب الشفا.

تقدّم منها ميلود، بقامته القصيرة وصدره العريض، يقيس ضغط دمها. ثنت كمّها ولمحتُ سوارًا مزيّنًا بأحجارٍ كريمةٍ يُحوّط معصمها. تأكّد شقيقي من أنّها لا تعاني أمراضًا مزمنة، ولا تتعاطى أدوية تتعارض مع التخدير، قبل أن يطلب منها العدّ من واحدٍ إلى عشَرةٍ، ثمّ حقن وريدها. وقبل أن تكمل العدّ أغمضَتْ عينَيْها.

لم تشعر شهلة البرق بآلام العمليّة، مثلما لم أشعر بما نوت عليه ضدّي.

* * *

استغرب جمال درقين أنّ عقيلة لم تبادر إلى الخلع، وأنّ مخلوف لم يفكّر في تطليقها:

– أحمد الله أنّني لستُ مطلّقة!

– ...

– أنتَ تعرف ماذا تعني امرأة مطلّقة في بلدنا!

ودّت أن تقول إنّ المطلّقة تصير منبوذة، لكنّها غيّرتْ كلامها:

– لا أحد يقف في صفّها.

مع أنّ جمال درقين يعرف نساءً مطلّقات، يعشن حياة عاديّة لا تفرق عن حياة نسوةٍ أخريات.

مَن تدخل السجن كذلك تصبح مذمومة، قالتْ في سرّها، لكنّها لم تفصح عن رأيها مفضّلةً العودة إلى سؤاله:

– كان بوسعي أن أطلب الخلع.

– ما منعَكِ؟

– الخلع لم يكن في مصلحتي.

– لماذا؟

– كان سيطلب منّي مخلوف تعويضًا، مثلما يمليه القانون.

على الرّغم من كونها طبيبةً وتكسب عيشَها بيُسرٍ.

– لكن مَن يضمن المبلغ الذي كان سيطلبه منّي! برّرتْ موقفها، وأضافت: كما أنني خشيتُ أن أفقد حضانة ابنتي.

– إذن تخلّصتِ منه، لتتفادَي صفة مطلّقةٍ وتضمني ابنتَكِ إلى جانبكِ؟

5

رأيتُ سيّارة الرينو 4 الصفراء مركونةً على مقربةٍ من العيادة، فعضضتُ شفتي السفلى ورعشتْ رُكبتي اليسرى. فكّرتُ في أن أركض إلى الروضة لأعيد ابنتي إلى البيت، وأحضن بدنها الذي لا يزيد على اثني عشر كيلوغرامًا، لأطمئنّ إلى أنّها في أمان.

ماذا يريد منّي صاحب هذه السيارة؟ لقد ثابرتُ على ألّا أترك أثرًا على الجثث التي اقتلعتُ قرنيّاتها، وتعهّد مخلوف ألّا يفضح سرّنا. فهل غدر بي؟ أنا لا أنزع قرنيّاتٍ سوى عندما يطلبها مرضى. لا أقوم بفعلي من أجل مالٍ فقط، بل إزالةً للعمى من عيون الأحياء، وإرضاءً لزوجي وكذلك ربّي. كما أنّ مخلوف يعلم أنّه سيقضي سنوات في السجن، بعد أن تُصعق أطرافه بالكهرباء أو يُعلَّق من رجلَيه على سقف، إذا اكتشف أحدهم أمرنا.

مضيتُ إلى عملي نحو الثامنة صباحًا، متغاضيةً عن سؤال ميلود إن كان له علم بسائق الرينو 4، فقد آثرتُ أن أكتم الحكاية، إلى أن أتبيّن صواب رأيي من عدمه. لم تخطئ أمّي إذ قالت إنّني مسكونة بوَسواس. من المحتمل أنّ الأمن يتعقّبني ليتيقّن من حسن سلوكي، قبل السماح لي بتصوير مقابلةٍ مع بودو، همهمتُ. لبستُ قبقابي ومِريلتي القاتمة اللون، التي تُظهرني بشكلٍ أنحف، مسترخيةً على كرسيِّي، أتلمّس خشب مِنضدتي، وداعيةً خالقي أن يُزيح من طريقي شرورَ الجنّ والإنس. أزحتُ عن وجهي خُصلتَيْن من شعري المصبوغ ببنيٍّ فاتح، ثمّ استقبلتُ أول مرضاي؛ سيّدة بنحو الأربعين، تدسّ صرّة قرنفل في صدرها تعطّر رائحتها: «أعاني حكّةً في عينَيّ ودموعًا لا إرادية، مع حسَاسيةٍ من ضوء الشمس».

تبيّن لي أنّ مردّ ذلك إلى رمَدٍ ربيعيٍّ يعانيه كثيرون. مع ذلك، أخضعتُها لقياس ضغط العين، وتأكّدتُ أنّ حالتها لم تشتدّ. وصفتُ لها محلولًا يخلّصها من ارتيابها بأنّ سوءًا مسّ عينَيْها، بعدما حكّتهما بإصبع ملوّثةٍ بحمض غسل الأواني، وحسدتُها على ثوبها المُطرّز بلون الذهب، الذي اقتنتْه من خيّاطٍ أمازيغيٍّ، كما أعلمتْني: «يستورد القماش من مالطا».

ثم دخل مراهق بعينَيْن محمرّتَيْن، مع والده المربوع القامة، الذي ترك يدي ممدودة وهو يخفض بصره، لأنّه لا يصافح النساء، مكتفيًا بنطق «أهلًا» خافتة. اعتقدتُ أنّ ابنه يقاسي التهابًا، قبل أن يشرح لي:

– اعتدى عليه صديقه.

تعرّض للكماتٍ على وجهه إثر تنازعهما أوعيةً بلاستيكيةً، يجمعها المراهقون من القمامة ويبيعونها بدنانيرَ معدودة. هكذا هو الحال؛ الصغار يعتدون على الصغار والكبار يعتدون على زوجاتهم. سوف يكبر هذا المراهق وقد يرسل إليّ ذات يومٍ زوجتَه، بعينَيْن مُحمرّتَيْن كذلك.

في مثل سنّه كنتُ مرتعبة من الدم الذي سال بين ساقيَّ فمسحتُهُ بخِرقة، متحمّلةً التواءً في بطني، وتدرّبتُ على صوم رمضانَ لا على العراك. لكنّني لم ألحظ خطرًا على عينَيْه، بعد معاينتهما بالمِجهر العاكس واختبار بصره بمخطّط سنيلين:

– لا بأس عليه.

خرج ووالده شاكرَيْن، من دون أن يخفّ اضطرابي وتفكيري في السيارة الصفراء. بل شعرتُ بقرصةٍ في معِدتي، مع دبيب نملٍ في أصابعي. شعرتُ باضطرابٍ حين حلّ الشخص التالي، بشاربٍ خفيفٍ وبشَرةٍ خَمريةٍ، تطلّ زغبات صدره من قميصه، ما جعل الحرارة ترتفع

في صدري. وقفتُه تُؤهّله لأن يؤدي دور جنتلمانٍ في فيلمٍ مصريٍّ، رغم العرق الذي رسم هلالَين تحت إبطَيْه. تسمّرتُ في مكاني دقيقة أو دقيقتَيْن، قبل أن أستقيم مبتذلةً عبارات الترحيب، محافظةً على مسافة مترَيْن تفصلني عنه.

– من زمان ما تلاقيت بك!

قالها بابتسامةٍ أظهرتْ أسنانًا أدمنتْ التدخين، بعدما أزاح القبّعة التي غطّت رأسه. وأخفى نظّارة شمسية في جيب بنطلونه.

كلّما قابلتُ شخصًا يشبهه عاودتني ذكراه، وكلّما تلفّظ أحدهم باسمه التفتُّ خلفي. عمِل محصّلًا في حافلةٍ، تفوح منها رائحة وقودٍ وكسوة مقاعدها ممزّقة، على خطّ العاصمة. كنتُ أركبها للذهاب إلى الجامعة، فالطريق إليها طويلة، تجعل الدم يتجمّد في الساقَيْن، ومغازلة رجلٍ كانت تخفّف عنّي الضّجر. وقف جنبي، ذات يومٍ، بعدما جمع الأجرة من الركاب، بفروة رأسٍ كثيفةٍ يتعذّر على المشط تسريحها وقميصٍ حائل اللون. بصق في خرقةٍ ثم مسح بها حذاءه، وبادرني بهمس: «اسمي ثامر». تبادلنا كلماتٍ عجلى وأنا أحدّق إلى ذقنه البارزة بلحيةٍ نامية. ثمّ تجدّدت لقاءاتنا كلّما عدتُ إلى بوسعادة في إجازة.

كنّا نلتقي بعيدًا عن الأعين، في ساعة ينصرف فيها الناس إلى صلاة الجمعة، خلف مقرّ الحزب، الذي علته لافتة «الاشتراكية، خيار لا رجعة فيه»، وظننتُ أنّ ثامر خياري الذي لا رجعة فيه كذلك.

كان الوقت يقصر في صُحبته ويطول حين أبتعد عنه. شدّني بصوته الذي يُبرئ المريض ويتناثر مثل نغمٍ، ولا سيما حين ينطق باسمي بعذوبةٍ جعلتني مستعدّةً أن أتعرّى أمامه، من دون خجل. كان يضحك ويُضحكني معه. وحلمتُ بأن أنجب منه طفلًا أو اثنَيْن، متغاضيةً عن نصيحة أمّي بأنّ مَن تفكّر في الرّجال لن تفلح في

دراستها، متخيّلةً أن يهبني خاتَمًا ليلة الدخلة، مصغيةً إلى أحاديثه عن أخيه مليك، الذي مسّه شلل ويسير على كرسيٍّ متحرّك.

ظننتُ أنّني أحببتُهُ، وأنّني سوف أسكن جنبه في شقّةٍ مزيَّنةٍ شرفتها بنباتاتٍ وأزهارٍ أسقيها كلّ صباح. لكنّ علاقتنا لم تدم أكثر من عامٍ، مع وعودٍ طارت في الهواء وقبلةٍ تمتلئ بالحنان والاشتهاء، بطعم القهوة التي ملأت حلقه، حين أزاح خصلةً سقطت على عينَيّ وطبع شفتَيْه على شفتَيّ، فتورّد خدايَ. شعرتُ بسخونةٍ تصعد من بطني إلى صدري، ثمّ قضيتُ ليلتها ألامس موضعَ القبلة وأبكي بكاءً يطلع من أحشائي، لأنّ أمّي حرمتْني طوال سنينَ التفكيرَ في قلبي. أظنّها غارتْ منّي وحرّمتْ عليّ أن أعيش ما لم تعشه، وأنا التي لم أحرمها دروس محو الأميّة كي ترتّل القرآن.

كلما فكّرتُ في ثامر هبط قلبي إلى ما بين ساقَيّ وابتسمتُ. علّمني كيف أنطق بكلمة «أحبّك» بتأنٍّ، قبل أن يدخل السّجن، بعدما اختلس مالًا من سائق الحافلة التي عمل فيها، فشعرتُ بأنّ الشمس قد أعتمتْ. أُفرج عنه عندما صار الشاذلي بن جديد رئيسًا للبلد، حينذاك مسحتُ خدّه براحة يدي لأخفّف عنه. ثمّ ارتحل إلى العمل في بلدة كلالة، المنبسطة بين مروجٍ خضراء، والواقعة على الطريق المؤدّية إلى العاصمة، تتخلّلها مسالك ملتوية، وتحوم حولها سيّارات إسعافٍ من فرط الحوادث فيها.

راسلني منها مرّة واحدة. كتب لي برقيّة بخطٍّ رديءٍ وأخطاءٍ كمَن يكتب بأصابع رجليه، يقول فيها: إنّ «كلالة تملى العين»، وسقطتُ أنا من عينه... انقطع عنّي وضاع قلبانا. ملأ صدري حزنًا مشوبًا بغضبٍ منه. دعوتُ أن تنهال على رأسه المصائب كلّها، ثم استغفرتُ ربّي، فقد أدخلني بحر الهوى ثم أخرجني منه ناشفة. وقضيتُ سنواتٍ لا أثق في الرجال سوى بمقدار ما أحتاج إليهم.

أجبتُه:

– كلّ شيء بالمكتوب.

ظننتُ أنّ إجابتي واضحة، تفيد بأنّ أمورًا تغيّرت في حياتي، وليس بوسعنا أن نعود إلى الخلف، فالتزم الصمت والتزمتُ بدوري كطبيبةٍ في السؤال عن عينَيْه إن كان يحتاج إلى فحص:

– أرجو أنّكَ بخير!

ثمّ حبستُ أصابع يدي اليمنى في يدي اليسرى، مثل مَن يحبس مشاعره. وقدّرتُ أنّه يعاني قِصَر نظر أو عيبًا آخر في الإبصار، لكنّ ترقّبي لم يدم سوى ثوانٍ وجاوبني عكس ظنوني:

– مش العين اللي تمرض، بصح القلب.

أجابني وهو يصوّب عينَيْه البُنِّيَّتَيْن نحوي، فشعرتُ بقطرات عرقٍ تتسرّب إلى الشقّ الفاصل بين ردفيّ. ارتفع نهدايَ ثم عادا إلى موضعهما، مع تفّاحة آدم تصعد وتنزل في رقبته، وأنا أقمع رغبتي في سؤاله عما فعل في السنينَ التي اختفى فيها عنّي. هل استقرّ في كلالة كلّ هذا الوقت؟ هل هو متزوّج؟ هل له أبناء؟ كيف حالُ أخيه الذي لم يكن يكلّ من تكرار اسمه؟

لا شكّ أنّ ثامر يعرف أنّني تزوّجتُ الرجل الذي يقف جنبي في صورةٍ على مِنضدتي، نظهر فيها على طرف النيل في شهر العسل. التقطناها في يومٍ مشمسٍ، خرجتُ فيه من الفندق مرتديةً فستانًا بلونٍ أزرق فاتحٍ بينما ارتدى مخلوف بدلة بربطة عنقٍ حمراء. صورة بلا إحساس. أنصبها على المِنضدة عندما يدخل رجل وأخفيها في الدُّرج عندما تدخل امرأة. فالطبيبات يشهرن صور أزواجهنّ كمن تشهر أظفارها حذر التحرّش. عكس صورة أبي محتضنًا ابنتي، المنتصبة جنبها، التي وثّقتُها في عيد ميلادها الأخير، ولا أغيّر مكانها. ويقتضي

عليّ أن أغلق أوهام هذا الرجل في الحين، لأنّ كلّ مغازلةٍ بين طبيبةٍ ومريضٍ في عيادتها تُحتسب تحرّشًا منها.

– طِبّ القلب ليس تخصّصي.

رجوتُ ألّا يدخل ميلود من غير استئذانٍ، فيرى ارتباكي أمام ثامر ويزجرني. مع أنّه لا يتدخّل في شأني، لكنّه لا يختلف عن الرجال الذين يظنّون أنفسهم أولياء على أخواتهنّ، أو ينقل ما رأى إلى مخلوف. قد يختلفان في أشياءَ لكنهما لن يختلفا في رصد ظلّي. مهما فعلتُ فسأظلّ في خانة المشكوك فيها، ذلك هو عُرف الرجال. امرأة تعمل وتخرج من البيت، كلّ يوم، هي محلّ رِيبة.

– مرضى آخرون في الانتظار، وحالاتهم عاجلة.

هكذا تحجّجتُ، مترقّبةً أن ينصرف، لكنّه خفض جَفنَيْه زامًّا شفتَيْه، متحسّرًا مثل مَن تقدَّم إلى وظيفةٍ ورُفض. ظننتُ أنّه سيخرج في الحال، لكنّه أخرج قُصاصةً ورقيةً من جيبه، مُدوَّنًا عليها رقمَ هاتف.

– إن شاء الله نسمع صوتكِ في التلفون.

مدّ يدَه نحوي كي يسلّمني قُصاصتَه، فشعرتُ بسخونةٍ في شحمتَيْ أذنيّ، وهو يرمقني بنظرةٍ عطوفةٍ لم أرَ مثلها في عينَي زوجي. امرأة أخرى مكاني كانت ستزهو أن عاد إليها حبيبها، لكنّ مجرّد وجوده أمامي أشعرني بأنّني أخون والد ابنتي. ثامر يصغرني بنحو عامٍ ونصف عامٍ، ومن السهل عليه أن يؤدي دور جنتلمان مع شابّةٍ غيري فيستميل قلبها. لماذا يصرّ عليّ؟ استغربتُ أنّه لم يكترث حين صارحتُه بأنّني على ذمّة الرجل الذي يظهر في الصورة قربي.

– أعرف. ردّ عليّ وهو يضيّق عينَيْه.

يبدو أنّ صفتي كمتزوّجةٍ زادت من رغبته في العودة إليّ، فالرجال لا ينسون حبيباتهم بل يؤجّلون رجوعَهم إليهنّ، وأكذب إن

قلتُ إنّني دفنتُ مشاعري نحوه. لا يمكن أن أنسى رجلًا كان يوقظ نهديّ من غفوتهما بمجرّد أن ينطق باسمي.

في العشرينيّات من عمري، أدمنتُ قراءةَ قصصٍ عاطفيةٍ وحلَمتُ برجلٍ يحضنني. ثمّ كبِرتُ وازددتُ خمسة عشر كيلوغرامًا، غيّرتُ قراءاتي من دون أن أشفى من سذاجتي. لكنّني لن أغامر فأندم؛ يجب أن أكبح مشاعري، فالعودة إلى حبيبٍ قديمٍ تشبه العودة إلى جثّةٍ، والسير فوقها، مثلما كان أبي يسير بين الجثث، أيام الحرب في الجبهة الإيطالية. فقد حكى لي بالأمس: «كنتُ أسير بين جثثٍ، بعد نهاية كلّ قتال، وأدعو ربّي أن يغفر لي أن استللتُ من جيوب موتى سجائر أو نقودًا».

من المحتمل أنّه استلّ ساعاتٍ من معاصم جثثٍ أو خواتم أو كلّ غرضٍ ثمينٍ آخر. لكنّني لم أُحرجه بسؤالي، موقنةً أنّه سينفي كلامي، فأبي يؤمن بأنّ الحياة خدعة، مثلما أؤمن بأنّ الحبّ خدعة، لكنّه أحلى الخدع.

عاودني قلقي من سيارة الرينو 4 التي تطاردني. هل ينتظر منّي صاحبها أن أخرج من عيادتي؟ ماذا ينوي فعله بي؟ أزحتُ مخاوفي من عقلي، وحصرتُ تفكيري في مقابلة بودو الذي صار صحافيًا شهيرًا بشاربه الحليق، بينما ظلّ أبي يسوق شاحنة نفايات. كان يعمل من السادسة صباحًا حتى الثانية ظهرًا، بين طرقات هذه المدينة المهترئة، يلتقط قمامةَ أناسٍ لا يعرفون شيئًا عن ماضيه، وهو غير مهتمٍّ بتذكيرهم.

كلّ عواطفي متحفّزة إلى اليوم الذي سأقابل فيه رجل التلفزيون، لا رجُل قلبي القديم. لستُ مستعدّة أن أوهم نفسي بالعشق مثلما فعلتُ في مراهقتي.

تسلّمتُ من ثامر قُصاصتَه، ونظرتُ إليه وهو يعيد قبّعته إلى رأسه، مغادرًا بخطواتٍ متثاقلةٍ، ويا ليته لم يفعل!

تلك القُصاصة سوف تعيده إلى السجن وتجعلني أندم.

* * *

أدرك جمال درقين أنّ عقيلة حضّرتْ أجوبتَها، فقرّر أن يفتح بابًا آخر قد يفيده في بلوغ ما يصبو إليه.

– ليس لي علاقة بالسياسة، قالت.

– ...

– أنا لا أفرّق بين يمينيٍ ويساريّ، بين محافظٍ وتقدّميٍ، كلّ معارفي بالسياسة لا تتجاوز ما أقرأه في جريدةٍ أو أسمعه في نشرات الأخبار.

هو أيضًا لا يفهم في شؤون السياسة، وزحمة العمل تحرمه مشاهدة نشرات الأخبار. يمتنع عن مطالعة الجرائد في المخفر تفاديًا لفضول زملائه، الذين ينظرون بعين الرِبية إلى مَن يصدّق كلام الصحف. سألها عن عملها، فردّت:

– أنا راضية بعملي كطبيبة.

فاستفسر عن منصبها في نقابة الأطباء:

– عمل تطوّعي، لا أتقاضى أجرًا عنه.

لم يصدّق أنّ أحدًا يقوم بعملٍ من باب التطوّع.

– ظننتُ أنّ انضمامي إليها سيُعينني على مساعدة الغير وتطوير مهاراتي.

– هذا هو السبب؟

– لا شيء غيره.

مع أنّها تقضي ساعات طويلة في عيادتها، كلّ يوم، ويصعب عليها التوفيق بين مداواة المرضى والتطوّع في النقابة، كما أنّها أمّ ولها انشغالات في البيت، أردفت:

– نويتُ الانسحاب من النقابة.

فقد كانت مهمّاتها عبئًا على كاهلها.

– لماذا لم تنسحبي؟

– تأخّرتُ في تقديم استقالتي لأنّني كُلّفتُ مهمّةً أخيرة.

يعلم المهمّة التي تحدّثتُ عنها، وهي مقابلة بودو. فقد علم بقائمة الأشخاص الذين نَوَوا ملاقاة ذلك الصّحافي، وورد من بينهم اسم عقيلة تومي. ثمّ حقّق في سيرتها، كما تقتضيه الإجراءات. سألتْه:

– هل وجدتُم شيئًا مسيئًا في سيرتي؟

طرحَتْ سؤالها وهي تعلم أنّ إجابته ستكون النفي، لأنّه لم يعترض أحد على مقابلتها بودو.

سمعَتْ إجابته، وأضافت:

– يُسعدني أنّ سيرتي ناصعة.

شعرتْ بأنّها كسَبتْ نقطة لمصلحتها، وعاد جمال درقين إلى لطم آلته الكاتبة.

فكّرتْ في أنّ بإمكانها العودة إلى بيتها إذا دفعت كفالة، لكنّ المحقّق مسح الفكرة من بالها. أردفتْ:

– أجزم أنّ موضوع لقائي بودو لم يُثر خلافًا مع مخلوف.

– لم يكن زوجكِ بذلك السوء الذي تخيّلته إذن!

– أنت لا تعرفه كما أعرفه.

6

أعرف زوجي من وقْع خطواته. إن جاء بخطواتٍ متسارعةٍ فهو متعَب ولا يرغب سوى في أن أُدلّك ظهره وساقَيْه، مثلما كنتُ أدلّك ظهر أمّي وساقَيْها في صِغري، ثمّ ينام. أمّا إذا جاء بتؤدةٍ يتجشّأ أو يُصفّر، فذلك يعني أنّ قارورة شراب سخّنت دمه. إنّه يشرب أكثر ممّا يتكلّم، كغيره من الرجال الذين يقضون عمرًا وهم ينهلون من حلمة أمٍّ إلى كأس نبيذ.

دنا من الغرفة وهو يصفّر لحن أغنية: «أنا وغزالي في الجبل... نلقط النوّار...».

فخلعتُ روبي المنزلي المخطّط الذي يشبه ثياب السجناء، وكذلك فعلتُ بحمّالة صدري. أطفأتُ الأباجورة، رغم خوفي من الظّلمة، ودهنتُ أطرافي بكريما مرطِّبة.

تعرّى مخلوف كذلك من غير أن ينبس بكلمةٍ، بل صار وديعًا مثل غزالة. فهو لا يتلطّف بي سوى في الفراش. لكنّ لطافته مثل زبدةٍ، يطلع النهار فتذوب. وفاح منه صُنان حمله معه من المشرحة.

رششتُ عِطرًا في الهواء لكنّ مفعوله لم يطل. ومن حسن حظّ مينة، التي ورثت أنف أبيها النحيف لا أنفي، أنّها لا تشاركنا الغرفة هذه الليلة. معلّمتها في إجازةٍ ليومَيْن، وأجمل أيامها عندما لا تذهب إلى الروضة، ففضّلتْ مجاورةَ جدّتها.

– جدّتي تغنّي وأنتِ ما تعرفيش تغنّي، قالت لي ابنتي ذات مرّة، ولم أعارض قولها.

قضيتُ حياتي في الطبّ ونسيتُ نصيبي من المرح.

رغم أنّني أرضعتُها عامًا ونيّفًا، لم يوطّد حليبي علاقتي بها. أمّي أقرب إليها منّي. أنا أحرمها الحلوى حرصًا على أسنانها، فيما

جدّتها تزوّدها بها عندما تراها تبكي أو تدّعي البكاء. تُخرج من حمّالة صدرها قطعة حلوى، كمَن تُخرج تميمة. وليس بمقدوري أن أحتجّ، تجنّبًا لكلامها اللاذع بأنّني أمّ مهملة. ففي عُرفها؛ الأمّ الصالحة لا بدّ أن تطوف البيت بمئزرٍ متّسخٍ، تنظّف الحجراتِ ثم تبخّرها ببَخورٍ طيّبٍ، منتعلةً خُفًّا مطّاطيًا، مثل الذي كانت تهوي به على ردفيّ في صغري، كلّما عصيتُ أمرها.

«نهار القيامة ربّي يعلقك من رموشك»، هكذا تهدّدني أمّي حين تسمعني أصيح بابنتي، التي ترهقني شقاوتها مثلما أرهقني إنجابها، عندما شقّت القابلة فرجي بمِبضع، من أجل تسريع الولادة، فشعرت بأنّها شقّت بدني نِصفَيْن. أخذتُ أصيح وأنضح عرقًا إلى أن أغمي عليّ، ثم خيّطتْ الفرج، فتمنّيتُ الموت بعد أن تعذّر عليها التوصّل إلى مخدّر يفتقر إليه المستشفى.

عندما استفقْتُ، خشيْتُ أن تكون ابنتي قد اختفت، وصارت في أحضان مَن عجزوا عن الإنجاب، كما يحصل مرّات، لكنّني وجدتُها ممدَّدةً جنبي، وقالت لي القابلة: «هذه هي حياتكِ».

لم تخطئ في قولها، فحياتي ضاعت وتعيّن عليّ ابتكار أخرى مع طفلتي، الكثيرة الحركة القليلة الانتباه، التي لا تعلم كم تكبّدتُ من عناء من أجل نزولها إلى الدنيا، وأنّني تمنّيتُ أن تولد أجمل منّي، بعينَيْن زرقاوَيْن لا سوداوَيْن، وكنتُ كلّما هممتُ بإرضاعها، دعوتُ ربّي أن يبارك في حليبي، مع ما راودني مِن خوفٍ مِن أن ينفَد من صدري. لكنّها شابهتني في صلابة رأسها، وانطلق لسانها بالكلام منذ سنّ الثّانية. التقطتْ مذمّاتٍ من لسان والدها، ثم حفِظتْ حرف «اللام» في عيد ميلادها الثّالث: لا آكل، لا ألعب، لا أنام. لم تعانِ لثغة في الكلام مثلما عانيتُها في صغري، وقبل ثلاثة أشهرٍ تعلّمتْ البصق. تنتعل شبشبي في البيت أو تلاحق به الذباب، وكلّما رتّبت

غرفة الجلوس أعادتها إلى فوضاها وهي تقفز بين الأريكة والوسائد، تُبعثر قطع ثيابٍ هنا وهناك، أو تصوّب مسدّسها المائي إلى اللوحات، التي اقتناها مخلوف وعلّقها على الحائط. وعندما أنهرها يزداد عنادها، فيرتفع صوتي في وجهها مثل راعي الأغنام يهدّد لصًّا. فمن كثرة انشغالي بها هجرْتُ صلاتي. أنا أرأف بها وهي تزيد من صُداعي.

بالأمس، زوّدتها بورقةٍ وقلمٍ، فعادتْ إليّ برسم:

telegram @
yasmeenbook

– ما هذا؟

سألتُها بابتسامةٍ، فردّتْ عليّ بمثلها زادتْ من اتّساع وجهها:

– أرنبُ أليسْ في بلاد العجائب.

– أين أذنه الأخرى؟

– أُرسميها أنتِ!

تعلّمَتْ من والدها أن تتأمّر عليّ. مددتُ يدي إلى شعرها مستحسنةً رسمَها، مثلما مدّ زوجي يدَه إلى نهدي، بعدما نثر أنفاسًا

نتنة من حولي، فعصره في صمتٍ كمَن يحلب ضرع عنزة. إنّه لا يبادرني بقولٍ رطبٍ، معتقدًا أنّ من واجبي الامتثال فحسب. ليته يغازلني كذبًا، فالكذب يحيي القلوب.

لم يطل به الحال أن قلبني على معدتي، مثلما يقلّب جثثه في العمل، كي يمتّع يديه كعادته في دعك ردفيّ، من دون أن يضايقه تغيّر تضاريس جلدي، الذي أصابه سيلوليت لم تنفع معه كريمات. مخلوف يريد منّي أن أُنجب ذكرًا، لكنّه يُشبع رغبته مثل حيوان، ولا يعلم أنّ الحيوان لا يضاجع أنثاه من الخلف، بل يخيّل لنا نحن البشر ذلك. لا يزال مولعًا بالردفَيْن رغم بلوغه الأربعين. لم يتزوّج قبلي ولم يحكِ لي سبب تأخّره في الاقتران. لكن لا لوم عليه، ففي شهادة الزواج لا يرِد أن الرجل مجبر على البوح بماضيه.

أظنّ أنّه عرف حبيبة قبلي، لكنّني لم أخُض معه في هذا السؤال، فقد تعرّفت إليه، بوساطة خالتي الذائعة الصيت في نسج الزرابي، التي تجاور بيت أمّه في حارة «المنظر الجميل»، كما تسمّيها البلدية أو حارة «مدام مارغريت»، كما يسمّيها العامّة، بعدما اعتقدتُ أنْ لا نصيب لي من الرجال منذ علاقتي القصيرة بثامر. جمعت بيننا في صالون بيتها، المزيَّن بسبع سنابل معلّقةٍ على الحائط، يظنّ الناس أنها تجلب الرزق، في يوم أتمّت فيه زربيّة جديدة.

– غسلتُ الصوف وغزلتُهُ بيدَيّ، قالت لي.

– الله يبارك في يديك.

أَجبتُها في زمنٍ كنتُ فيه مستعدّة لصبغ شعري بالأصفر كما تفعل الراغبات في الزواج، أو لمرافقة أوّل رجل يشبك أصابعه بأصابعي ويدعوني إلى مطعمٍ، رجلٍ أُكلّمه فيصغي إليّ، يجعلني أثق في جمالي، وأُسكتُ أمّي التي ثقبتْ طبلة أذني: «المرأة الشاطرة تتدبّر رجلًا يتزوّج بها». كانت تظنّ أنّ عين حسدٍ أصابتني أو أحدًا أطعمني

سحرًا يُبعد عنّي الرجال، الذين كانوا يكتفون بغمزةٍ وهم ينفخون صدورهم، ثم يسترقون النظر إلى حوضي وهم يلامسون أعضاءهم، متظاهرين بفتح أو إغلاق سحّابات بنطلوناتهم، فأشعر بأنّني قبيحة الوجه في أعينهم، وأتمنّى سحقهم تحت قدميّ مثلما أسحق جرادة. كنتُ بحاجةٍ إلى رجل. والرجال يحجبون أخواتهم خلف أبوابٍ مغلقةٍ، ويستبيحون النظر إلى بدني، في مدينةٍ يتعسّر فيها الزواج لمَن تجاوزت العشرين، فالنساء يتزوّجن في السابعة عشرة أو قبلًا.

«تبلغ الأنثى سنّ التمييز في الثانية عشرة» سمعتُ من أمّي، التي تزوّجها أبي في الخامسة عشرة. ولستُ أعلم إن أحبّتْه يومًا أم تحمّلته خوفًا منه، فالحبّ وجه من أوجه الخوف.

لم يكن لقائي الأوّل بمَن سيصير زوجي ملهِمًا. بطنه يشبه طبلًا، وحاجباه متّصلان بشكلٍ كالمثلّث، بينما أذناه كبيرتان مثل أذنَي يربوعٍ، وأبي يقول: «الرجل السويّ أذناه صغيرتان». لم يكن ينظر إليّ حين يتكلّم بل إلى خالتي، مع أنّني ارتديتُ فستانًا مفتوح الصدر. وفشلتُ في تحويل بصره رغم تحديقي إليه برأسٍ نصف مائلٍ، وأنا أمضغ علكًا، مسبّلةً عينَيّ، ومداعِبةً شعري بأصابعي، مع تليين صوتي مثل أمٍّ تهدهد رضيعها. سألتُ نفسي: هل ستعجبه رائحة بدني؟ وأنّني أُحدث صوتًا حين آكل؟ بدا لي هادئًا، يدسّ إصبعه في أذنه حين يتكلّم.

حدَستُ أنّني لن أكرّر بؤس والدتي التي لطالما عاب أبي شكلها أو فعلها، ولطالما كان ينظر إليها نظرة حدأةٍ تنوي الانقضاض على فريسة. ولا أذكر آخر مرّةٍ رأيتُه فيها مبتسمًا، فهو لا يقتدي بالحديث النبوي «تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة».

لكنّ حدسي دائمًا ما يخذلني.

لم نتأخّر في إتمام الخطوبة، بعدما حلّ مخلوف ببيتنا يحمل كعكةً اشتراها من محلّ «حلويات الهناء»، ثمّ تلونا الفاتحة في حضور شاهدَيْن من الجيران. من شدّة فرحي تصدّقتُ بديكٍ مسلوخٍ إلى عائلةٍ محرومة. لم أعلم أنّها ستكون آخر لحظات الفرح في حياتي.

عقب انتخاب الشاذلي بن جديد للمرّة الثانية، بنسبة 100٪ من الأصوات تقريبًا، صِرت زوجة مخلوف تومي بنسبة 100٪ كذلك. قبل أن أُكمل تخرّجي في الجامعة. أقمنا حفل زفافٍ ودفع مهري بشكل «كرافاش بولحية»، وهي سلسلة من ذهب غالية الثمن، مفتولة كالحبل وتتدلّى منها خيوط مثل لحية. لبس برنوسًا أبيض، ولبستُ فستانًا مرصّعًا بحليّ. خضّبتُ يدَيَّ بالحنّاء وغنّت لي جارتي نوسة، بعدما عصبت رأسها بمحرمة الفتول المصنوعة من حريرٍ، التي تتدلّى منها خيوط فضيّة اللون:

«يا مرحبا بذي العروسة... يا محلا قدها... يا محلا زينها...».

ثمّ نصحتْني: عيشي حياتك قبل ما يفوت الحال!

خامر بالي أنّ زواجي سوف يشبه قِصصًا قرأتُها، سوف يعصمني من الهموم، أنّه عيد له أوّل ولا آخر له، أنّه سُلّم يُفضي إلى السماء.

وأردفَتْ نوسة: الزواج فيه السعد والنحس.

علاقتها العصيّة مع بعلها، جعلتها تفكّر في أنّ الرجال كلّهم سواسية. ولم تخطئ في تخمينها.

في ليلة الزِفاف، التهم الضيوف وليمة من كسكسي، دولمة، بوراك، مرق زيتونٍ بالدجاج، وحلويات... شربوا الشاي ومشروباتٍ غازيّة، وعندما انصرفوا دهنتُ ساقيَّ ونهديَّ بكريما مرطّبةٍ، ثمّ أماط زوجي الطرحة التي غطّت وجهي. شاهدتُ لأوّل مرّة عضوًا ذكريًا خارج كتب التعليم، يتدلّى بين ساقَيه. حدّق إليّ مثل جائعٍ يُحدّق إلى صحن أكلٍ، فتعرّقتُ وازدادت خفقات قلبي وأنا أقبض على

حفنة ملحٍ في يدي درءًا للفقر، كما أوصتْني خالتي، بعدما ابتلعتُ أقراصًا مهدِّئة.

يُفترَض أنّ النساء يتزوّجن بعد وقوعهنّ في الحبّ، فيما أنا تزوّجتُ إثر جفافٍ في الحبّ.

مضت سنون وأدركتُ أنّ زواجي سُلّم يُفضي إلى الشقاء.

في صغري كنت أتهيّب الزواج كي لا أُبتلَى بعلاقةٍ مثل التي جمعت أمّي بأبي، ودعـوتُ ربي – إن قـدّر لي اقترانًا – أن أحظى بشاعرٍ يكتب قصيدة عنّي. كنتُ أشاهد أفلامًا وأنتقي أجمل ممثّلٍ، متخيّلةً ارتباطي به. تمنّيتُ رجلًا ذا شعرٍ أملس لا يتجشّأ ولا يشخِر. لكنّني كبِرت فتزوّجت أوّل رجلٍ تقدّم لي. لم يعِدني بحياةٍ رغدةٍ ولم آمل منه سوى ترسيم علاقتنا، فأتخلّص من صفة العزباء، مثلما تخلّصتُ من لبس الكعب العالي، ومن تهكّم أمّي وهي تراني متمايلة في مِشيتي مثل شمبانزي.

– مليح للمرأة تتزوّج بعجوز أو أعمى خير ما تبقى كي شجرة صبّار في القفار، تقول خالتي.

– خير ما يتكلموا فيها الناس كأنّها ملعونة، تؤيّدها أمّي.

لم أتزوّج عجوزًا ولا أعمى، لكنّني ملعونة لأنّني لم ألعق عسل الحبّ مع زوجي، الـذي أنهى غرضه من الخلف، في غضون دقائقَ معدوداتٍ وهو يضغط على عظمتَي كتفيّ بأصابعه الغليظة، مثل مَن يضغط على مقود سيّارةٍ، وأنا مُغمِضة عينَيّ في عتَمة المكان، متمنّية أن يداعب شعري أو ينطق باسمي، فلم يفعل. تمنيّتُ أن يطبع قُبلةً على قفاي أو يقول شيئًا يُسعدني، لكنّه صمَت.

أطلق وحوحة وأطلقتُ تـأوّهًا زائـفًا. ارتجف بدنه مثل موج شاطئٍ، وانهار جنبي، على ظهره الذي ينمو فيه شعر مثل طحالب،

يشهق مثل عدّاءٍ أنهى الماراثون، بعدما تغلغلتْ رائحته في جلدي وصار ملمس عضوه يشبه تينة مجفّفة.

ازدادت رغبتي في التخلّص من هذا الزوج، الذي يعاملني مثل مصبّ نزوات. أودّ أن أكسر عنقه بقاعدة الأباجورة النحاسيّة، لكنّ يديّ ترتعشان مثل مُصابٍ ببباركنسون حين أفكّر في مباغتته من الخلف. نظرتُ إليه في صمتٍ، بعدما أضاء الغرفة بعود ثقابٍ وأشعل سيجارةً، ثمّ شرع يحكي لي عن يومه في المشرحة، طلبًا للنّوم. مخلوف لا يتكلّم بصفو بالٍ سوى في حالتَيْن: عندما يثمل فيشعر بغبطة، أو عندما يُفرغ خصيتيه. وهذه المرّة جمع بين الاثنَيْن ويريد مني أن أصغي إليه. هو لا يعتذر على وقاحاته معي؛ متى كان الأزواج يعتذرون؟ لكنّه شرع يتكلّم في تأنٍّ كمَن يودّ مصالحتي. حدّثني عن أمٍّ مطلَّقةٍ، رآها معلَّقةً من عنقها بكابلٍ كهربائيٍّ طوله نصف متر: «رأسها يميل إلى الأمام، ورجلاها بالكاد تلامسان الأرض».

تبيّن بعد التشريح أنّها ماتت خنقًا لا انتحارًا، بعدما عاينتْ الشرطة آثار أصفاد على معصمَيْها، وعقب التحقيق أقرّ ابنها، الذي بلغ العشرين، بفَعلته: «كانت تدير في فعايل ما يرضاها ربّي ولا العبد».

أعرف هذا النوع من الأبناء؛ ينسبون أفعالًا مخلّةً إلى النساء، قصد تبرير القتل والاستفراد بالميراث.

وكذلك عن سيّدةٍ في الخمسين أذاقها زوجها طعنات في الصدر والذراعَيْن بعدد سِنِيّ عمرها، بسكّينٍ طولها 18 سنتمترًا: «أنهى حقده عليها بأن ضاجع جثّتها».

هذه المرّة السادسة التي يقتل فيها رجل زوجته، منذ مطلع العام. مَن يعجز عن الانتصاب يقتل زوجته، مَن يرتبط بعشيقةٍ يقتل زوجته، مَن يُطلّق يقتل زوجته، مَن يفقد عمله يقتل زوجته، مَن

يتشاجر مع جاره يقتل زوجته، مَن يخسر في القمار يقتل زوجته، وأنا أودّ قتل زوجي.

تساءلتُ في سرّي: إن مات مخلوف، فهل سأقتلع قرنيّتَيْه وأبيعهما؟ أليس من رأفة الخالق أن يُحيي الميّت الحيّ؟ لم أنطق بسؤالي فقد قطع تفكيري بعدما أسمعني قصّة مراهقةٍ في السابعة عشرة من عمرها، باغتها أخوها الأكبر وهي تواعد حبيبها في بيتٍ مهجورٍ، فانتهى أمرها بصخرةٍ دقّ بها رأسها.

الناس يصيبهم جنون في قصص الشرف؛ يصيرون مثل ثيرانٍ عمياء، ويحوّلون القتل إلى لعبة. تخيّلتُ أنّ ميلود تَرصّدني أُواعد ثامر في صِغري! لا أحد يحاكم الجاني إذا فعل فَعلته تحت ذريعة الشرف. ولم أعرف رأي زوجي في ما حلّ بهذه المراهقة، التي عثر في رحِمها على رضيعٍ في شهره الثالث. فقبل أن يسقط في بئر النوم، أطفأ سيجارته وقصّ عليّ حكاية فتاةٍ أخرى في أوائل العشرينيّات: «وصلتْ إلى المستشفى محترقةً بالكامل. بعدما ترصّدها كهل رفضت الزواج منه. تعقّبها بسيارته إلى زقاقٍ غير مأهولٍ، وقام بفَعلته». سوف يقول الناس إنّها جريمة عاطفيّة، ويبرّر الفاعل ذنبه بغَيرته على الفتاة، هكذا خمّنتُ.

لم يعد الشارع آمنًا، فأنا أيضًا تتعقّبني سيّارة ولستُ أدري ماذا يريد منّي صاحبها. مخلوف لم يعلم بذلك، مثلما لم يعلم بعودة ثامر من قاع الذاكرة. ثمّ إنّني لم أخبره أنّ عيادتي تتعرّض لسرقات، كي لا يعاملني مثل قاصر. قررتُ أن أصل إلى اللصّ بنفسي، عندما استكان زوجي لنومه بفاهٍ منفرجٍ وهو يشخِر. صَمَمْتُ أذنيّ بقطن، بعدما سمعت نُباح كلابٍ ضالّةٍ في الشارع، ورششتُ العطر مرّةً أخرى، موصيةً نفسي بأن أحترز في خروجاتي، فلا أسلك زُقاقًا غير مأهول، مثلما يتحتّم عليّ أن أحترز فلا أترك أثرًا خلفي، حين أوقف أنفاس هذا

الرجل الممدّد جنبي، الذي زارني في منامي؛ رأيتُهُ يخنقني، بعدما شكّ في وفائي له، وأنا عاجزة عن الدفاع عن نفسي.

* * *

كلّما سألها المحقّق عن مخلوف، شعرتْ عقيلة بجفاف ريقها.

– لم تخبريني ماذا كنتِ تفعلين في مكان عمله!

– أُفضّل عدم الإجابة.

سبق أن أخبرها أنّ من حقّها التحفّظ عن الإجابة عن سؤال، لكنّ ذلك سيعقّد وضعها، ويجعلها محلّ تهمةٍ بدلًا من شبهةٍ.

– زارني في عيادتي مرّتَيْن أو ثلاثًا، على ما أذكر.

هكذا بادرتْ تفاديًا لسؤاله السابق، وأضافتْ:

– كان دائمًا مستعجلًا، وأنا منهمكة في عملي طوال الوقت.

تعاطف معها أنّها تزوّجت رجلًا لا يداري خشونته، لكنّه عاد إلى السؤال الذي لم تُجب عنه.

– أفدتُك بكلّ ما أعرف.

اكتفتْ بذلك القول، فاكتفى هو أيضًا بالقول إنّها تخفي شيئًا عنه.

– أنتَ لا تصدّق كلامي، لكن لا دليل لك ضدّي.

– ...

– كي تصدّق كلامي، عليكَ أن تفتح عقلك لا أن تنحاز إلى رأيك.

أحسّ بأنّها تمارس دورها كطبيبةٍ وتُسدي إليه نصائح. شعر بأنّ الكفّة مالت لمصلحتها، وعزم على تغيير نبرته في استجوابها.

7

أودعْتُ شكوى ضدّ جيران عيادتي، بعد اختفاء مروحةٍ كهربائيّةٍ أرضيّة.

«إنْ سكتُّ عليهم، فسيأتي يوم يختفي فيه عتاد عملي»، قلت للشرطي الذي دوّن إفادتي، ثمّ غادرتُ المخفر ومضيتُ على أرصفةٍ ندرتْ فيها الأشجار، فندرتْ فيها الظلال. إلى أن بلغتُ دار الثقافة، التي تُؤوي نشاطات نقابة الأطباء، للإشراف على يوم الوقاية من السيدا. لولا وساطة من جارتي نوسة، ما أتيح لي مكان أقيم فيه النشاطات. هي تقرب مدير دار الثقافة، الذي يُشعرني بالترحيب كلّما رآني، وأنا شعرتُ بتضايقٍ من شعر إبطي الذي لم أُزله، ومن شكل أظافري التي طليتُها بلونٍ فاتحٍ على عجلٍ، فلسان زوجي لم يُتح لي وقتًا للاعتناء بشكلي. زادته خفّةً حركات ابنتي التي «تسكن مؤخّرتَها ذبابة»، وحين أطلب منها أن تهدأ، تجيبني: «بابا قال لي اِلعبي».

هل صار يحبّها أم يريد منها تعكير مزاجي؟ أنا مبتدئة في فَهم سلوك الأطفال مثلما أنا مبتدئة في علاقتي بالمكياج، الذي لم أتعلّم استخدامه مثل الأخريات. كانت أمّي تنهاني: «اللي تحط مكياج تخرج من الملّة». صرتُ ألوّن وجهي مثل مهرّجةٍ، من غير أن أَحيد عن الملّة.

«وكيلك رّبي يا يمّا»، تمتمْتُ وأنا أطأ عتَبة دار الثقافة، وكانت فيلا خلّفها فرنسي. في باطنها قبو، وبهوها واسع من رخام، تجاوره ستّ غرفٍ تَقشّر طلاء حيطانها، مع ثلاثٍ أخَر في الطابق الأول، تحوّلت كلّها إلى صالات رسمٍ وموسيقى ومسرحٍ؛ يُهرع إليها أطفال وشبّان، بعد ظهيرة كلّ يوم، يحلمون فيها بأن يصيروا فنّانين. فيما صالة الرقص مخصّصة لبنات العائلات المترفة وأبنائها، والغرفة العلويّة صيّرها المدير مكتبًا له. لكنّه كان غائبًا، رغم أنّ الوقت اقترب من

التاسعة صباحًا. وناب عنه البوّاب، ذو الشارب الكثّ المعقوف مثل مقود درّاجةٍ، الذي كان يكنس الأرض ويمضغ حبّات فول سوداني، في فمّه الأدْرَد. رحّب بي وهو ينكش أذنه، ثمّ قال:

– صاحبتكِ راهي الداخل.

قصدَ سلوى عديلي، طبيبة النساء التي اختبرت عذريّتي، وأفادتني بورقةٍ تَلزم ملف الزواج، قبل عرسي، وأخضعتني لفحصٍ إيكوغرافيٍّ عندما حبِلتُ، وتنوي خلافتي كمندوبةٍ للنقابة، حال انسحابي منها.

تعرفتُ إليها في المدرسة الثانوية، ورافقتني لشراء حمّالة صدر، بعدما اختلستُ دنانير من سترة أبي التي يعلّقها في رَدهة البيت. كانت أمّي تكتفي بلفّ خِرقةٍ على صدري، كي لا ألفت أنظار الصِّبْيَة، فأشعر بما يشعر به كلب بعد لفّ حبلٍ على رقبته، ثمّ توصي أبي بكسوة ميلود. وحين أغضب، تُسكتني: «كل ما كبرت طيزك طال لسانك». ازداد شحمي بسبب أكلها؛ لا أُنكر أنّها طاهية حاذقة، تعرف المزج بين التوابل، من كمّونٍ، كزبرةٍ وفلفلٍ مطحونٍ... أطعِمتُها أكسبتْني شراهةً، ثمّ نصحتْني: «المرأة الصالحة تتعلّم الطبخ»، فرددتُ عليها في سرّي: المرأة الصالحة تطبخ أشياء أخرى غير الأكل.

يأكل الجميع من يديها، عدا مخلوف الذي يدّعي أنّ طعامها سبّب له مغصًا، فبات يمتنع عنه. وظنّي أنّ مغصه جاء من إفراطه في الشرب.

انتقت لي سلوى، ذلك اليوم، حمّالة صدرٍ بلون شعرها الأسود. وقد رافقتني لأنّني خجلتُ من طلب تلك القطعة من الباعة. وَلَجْنا غرفة التبديل قصد تجريبها فأعجبتني. ابتسمتُ فأطبقَتْ شفتَيّ بقُبلةٍ، فاحت منها رائحة كاراميل. ولسعت حرارة وجنتَيّ: «ليس ذنبي أن جعلني ربّي أشتهي شفتَيْكِ الرقيقتَيْن»، برّرت فعلها.

وثّقْتُ علاقتي بها لأنّها كانت مدلّلة، تملك غرفة لها وحدها في بيت أهلها. داومتُ على زيارتها بنيّة حلّ تمارين الرياضيات. لكنّنا لم نكن ندرس، بل نقضي وقتنا في لعبٍ وضحكٍ، نتأمّل صور نساءٍ في مجلّات أزياء، أحسدهنّ على تسريحات شعرهنّ ووجوههنّ المنشرحة ذات البشَرة الفاتحة، متمنّيةً أن تنبتَ لي شامة أسفل خدِّي مثلهنّ. «تنوض لك شامة في مؤخّرتك»، سخرت منّي سلوى، ثم رسمتْ شاربًا بخصلة شعرها، مثل شارب والدها، المحتجَز في إطارٍ معلّقٍ على الحائط. الذي يعمل في فرنسا ويجيء مرّتَيْن في العام، فيُغرقها بثيابٍ جديدةٍ وهدايا.

تعوّدتُ مناداتها باسم دلعها سالي، فتمسح شفتَيها على عنقي وأشعر بأنفاسها حارّةً خلف أذنيّ. تمنّيتها أختًا لي وهيَ تتوسّد صدري مصغيةً إلى نبضات قلبي، وخوف يساورني من أن يفتح أخوها الباب ويباغتنا. ثم ضعُفتْ علاقتنا، بعدما استغربتْ أمّها أنّنا نطيل شبك أيدينا معًا، فخشينا أن تكتشف أمرنا.

كبرنا وأفسدتْ السنون المودّة بيننا، فصارت تنعتني بـ«الملثوغة»، رغم شفائي من لثغتي. ووددتُ صفعها بنعلي، لكنّني خشيتُ أن تشتبك معي بالأيدي وأنا أهاب التعارك مع غيري، فتهكّمت من نهدَيها الضامرَيْن والمتنافرَيْن مثل تمرتَيْن: «عندما تجوعين، ابلعيهما». وندمت أن تمنيتُها أختًا لي. مع أنّني غرتُ من شعرها الذي يصلح صورة على قوارير الشامبو، عكس شعري الذي يصلح على قوارير سائل غسل الأواني. لقد جرّبتُ دلكه بزيت الزيتون وغسله كلّ يوم، ولا يزال مجعّدًا بفعل القيظ.

منذ أن تزوّجتُ، لم يعرف العرسان طريقًا إليها، وفترتْ علاقتها بي.

عندما ارتبطتُ بمخلوف لم تسألني عنه، بل بادرتْني:

«هل ارتبطتِ بإحداهنّ قبله؟».

تفاديتُ الإجابة ولم تصرّ في كلامها. رغم شفتَيها الشديدتَي الحمرة، وضفائرها التي تتهدّل على كتفَيها مثل سنابلَ وهي تختال في مِشيتها، بكعبٍ عالٍ، مثل ممثّلةٍ تمشي على بساطٍ، خاصمَها الحظّ، والحظّ يخاصم الجميلات. لسانها ينطِق بسُمٍّ ولها قزحيّتان بلون البحر، لكنّ الرجال يظنّون أنّ ذات العينَيْن الملونتَيْن جِنّ لا إنس.

يقول عشّاقها السابقون إنّها مملّة وتنعتهم بالحمقى. جمالها جلب لها الذئاب وطرد عنها الخُطّاب. نصحتُها بأن تقصد الشيخ بلخير، الذي يخضّب لحيته بالحنّاء ويقيم في قريةٍ مجاورةٍ، فيكتب لها مثلما كتب لي تعويذة على ورق علكٍ، تمضغه قبل أن تكلّم رجلًا مثلما فعلتُ قبل أن أقابل زوجي، فتستميل قلبه. لكنّها جاوبتني بجفنَيْن مغمضَيْن ونبرةٍ منكسرةٍ:

«مَن تفكّر بعقلها، تغفل قلبها».

«مَن يتقدّم عمرها، يغفل الرجال عنها»، وددْتُ الردّ عليها.

أعرضتْ كذلك عن مقترحي لها بمطالعة عروض الزواج في الجرائد، وأخبرتُها أنّ ما فعلناه في الصغر كان مُزاحًا، وأنّ على المرأة أن تعثر على رجل، هكذا جرت العادات. لم تغفر لي أن سبقتُها إلى الزواج والإنجاب، وقالت لي، ذات مرّة: «إنّ الزواج مِصيدة»، فلسعتُها بنظرةٍ جانبيةٍ مفادها: لا عتاب على مَن جفّ فرجها. لا بدّ أنّها مثل أخرياتٍ يقلن، خلف ظهري، إنّ مخلوف لم يفارقني لأنّني أستعين بتمائمَ وتعاويذ. فهي لم تعد تشتهي شفتَيّ، لكنّني شاكرة لها تقلّبها معي، فقد علّمتْني أنْ لا صداقة لي أقوى من صداقتي مع نفسي.

صافحتني سالي من دون أن تطيل تشبيك يدها في يدي، بابتسامةٍ معوجّةٍ، وأظفارٍ مطليّةٍ بلونٍ قاتمٍ أجملَ من أظفاري: «بونجور».

رددتُ على تحيّتها ثمّ ركنتُ إلى زاوية، في صالة الموسيقى، أعاين مطويّات وملصقات تحضّ على الوقاية من السيدا. فوق رأسي مكبّر صوتٍ، يبثّ أناشيد وطنيّة بصوتٍ خافتٍ، وعلى الحائط عُلّقت ورقة كُتب فيها «المكيّف لا يشتغل».

حلّتْ زميلة أخرى، وهي ممرّضة في المستشفى، أخشى أن يجري تسريحها من كثرة غياباتها، وكثرة طوافها بين أعراس عائلتها والجنازات، وقد أسرّت لي أنّها لا تثق في ما يقال عن السيدا:

«إنّه داء يصيب غير المسلمين»، ودعكَتْ قفاها.

كذلك كانت آراء المُقبلين إلى دار الثقافة، بين مشكّكٍ وصامت. بل إنّ شابًا بطول نخلةٍ، رشحتْ ياقة قميصه عرقًا، أقسمَ إنّه سمع من قريبٍ له أنّ رجلًا أصيب بالسيدا ثم شُفي منه بمنقوع الشيح. وحاول خمسينيّ إقناعي بأنّ ابنته تعرف امرأةً أصابها الداء فداوته بمشروب الزنجبيل، وآخر جزم أنّه مرض لا يصيب سوى الفقراء:

– شوفي تصاور المرضى! تقول عندهم المجاعة!

– فقدان الوزن من أعراض المرض وليس سببًا فيه، أجبتُه.

يُخيّل لمَن يسمع كلامه أنّ أهل المدينة من الأغنياء، بينما الجوعى يزاحمون الذباب على حاويات القمامة جنب سوق الخضر، يتقاتلون فيها من أجل لقمةٍ كما يتقاتل المجاهدون من أجل السلطة في أفغانستان مثلما تحكي نشرات الأخبار، وأنّ القمل يشيّد قصورًا في رؤوس الأطفال الذين يقصدون المدارس كلّ صباح نصف حفاةٍ، ومَن لم يُتح له التعلّم يقضِ وقته في مدّ يده للمحسنين.

– العودة إلى الفضيلة تحمينا من هذا المرض، أضاف.

بل العودة إلى الواقيات الذكرية، وددتُ أن أجيبه. لكن في عرف هؤلاء الرجال مَن يستخدم الواقي الذكري يمسّ بفحولته، ومَن يمُت بالسيدا يدّعون أنّ «المرض الخبيث» أصابه، كناية عن

السرطان. وتكلّفت الاستماع إلى حكايات تشكيكٍ أخرى، إلى أن صار الجوّ ثقيلًا بسبب قلّة التهوية. صرنا نتعرّق كأنّنا في صالة رياضة، ما بعث الملل في القلوب، فأوقفنا النشاط في منتصف النهار، ولم يصل مدير دار الثقافة. كلّفت البوّاب، الذي ارتدى قميص منتخب الكرة ويبرم شاربه كلّما مرّت بجانبه امرأة، أن يوزّع المطويّات والملصقات على المارّة، بعد أن نقدتُه بضعة دنانير.

ودّعتُ الزميلتَيْن ويمّمتُ نحو دار البلديّة، بحيطانها الشاهقة التي تعلوها رايات وطنيّة. لم تكن تبعد عنّي سوى ربع ساعة مشيًا. وككلّ مرّة، لا بدّ أن يذكّرني رئيسها الأشيب، الذي يعلّق غليونًا بين شفتَيْه، بماضيه مفتخرًا بوسامٍ ناله من وزارة المجاهدين: «شاركتُ في كمائنَ واشتباكاتٍ زمن حرب التحرير، وأنجاني ربّي من الموت. كنّا في الحرب مثل إخوةٍ، يؤازر بعضنا بعضًا».

حدّقتُ إلى تجاعيدَ تُطوّق شفتَيه من أثر التدخين، وإلى بقعة قهوةٍ لطّخت قميصه. أردتُ أن أُعْلمه أنّ أبي أيضًا شارك في تلك الحرب، ولا يتفاخر بماضيه، بل يسرد حكاياته على أهله لا غير.

«تكفّلت بصنع قنابل وتخزين السلاح»، أخبرني أبي ذات مرّة. لكنّ الحرب لم تنته مع الاستقلال، بل واصل عمله إلى ما بعد خروج الفرنسيين. «ورأس يمّا لم أعرف الراحة. وقضيت شهرًا في نزع الألغام على الحدود مع تونس، زُرعت من أجل منعنا من التزوّد بالسلاح من الجيران، ممتثلًا إلى تعليمات ضابطٍ جاء من روسيا. رافقني اثنا عشر رجلًا آخر في المهمّة، مات ثلاثة منهم. كان كلّما مات أحدهم، من جرّاء انفجار لغمٍ، دفنّاه في مكان سقوطه».

نزَع ألغامًا مثلما أنزع قرنيّاتٍ، ونجا من دون أن يُصاب بضرر. تلك هي أُعجوبته، وأودّ أن أرويها لرئيس البلدية، لكنّه لا يريد منّي

سوى الإصغاء إليه، تحت هواء المُكيّف، وأنا أكرّر علامات الإعجاب، بفتح عينَيّ على اتساعِهما، توقيرًا لنضاله:

– الله يعطيك الصحة والعافية.

جُلتُ ببصري في أرجاء مكتبه الفسيح، الذي علّق على حيطانه صورًا له مع شخصياتٍ وطنيّةٍ، جنبها روزنامة بتاريخ اليوم (7 مايو 1990). وبدت لي بشرته أكثر شحوبًا من السابق، فقدّرتُ أنّها من علامات التهابٍ كبِديٍّ، وفي هذه الحالة لا يصلح اقتلاع قرنيّتَيْه حين تتسلّق روحه السماء.

قال لي بنبرةٍ وَقورةٍ، وهو يعدّل ربطة عنقه، بينما زغبات تطلّ من مِنخرَيْه:

– بودو طِباعه حازمة.

أعرف أنّ بودو تعلّم في مدرسة شالون، التي تعلّمتُ فيها الكتابة والحساب. وقد سُمّيتْ كذلك نسبة إلى معلّمٍ شهيرٍ عمِل فيها، بعدما بناها فرنسيّون منتصف القرن الماضي، جنب جامع النصارى، الذي تهدّمت واجهته في سنوات حرب التحرير، مثلما سمعتُ، من جرّاء قنبلةٍ تقليدية. هل كانتْ من صنع أبي؟ أبي مثل أمي، يحبّ أن يتكلّم لا أن يُساءَل. تلك هي الصفة الوحيدة التي تجمع بينهما.

لم يكن عامي الأوّل في المدرسة يبشّر بأمان. كنت أدّعي أنّ المعلّم سيغيب، وأمّي تصدّق كذبي فأمكثُ في البيت، منصتةً إلى استياء أبي من مقتل رئيسٍ أميركيٍّ يُدعى جون كينيدي. وحين اكتشف أمر تغيّبي كاد يقتلني، بعدما هوى عليّ بعصا خيزُرانٍ مثل مؤمنٍ يَهوي على شيطان. خجلتُ من مصارحته بأنّ المعلّم يصفع مؤخّرتي أمام زملائي فيسخرون منّي، كلما عجزتُ عن نطق حرفٍ بشكلٍ سليمٍ، وبعد أن تهدأ فورته يلامس صدري ويسألني ضاحكًا: «متى ينبت لكِ نهدان؟». لكن في العام الثاني حلّت معلّمة مكانه،

بتّ أستوعب كلامها ولا أفارق المرتبتَيْن الأولى أو الثانية في الصفّ، من غير أن أُشفى من كذبي تجاه أبي، كلّما غضب منّي أو خشيتُ عقابًا.

أعرف أسطرًا من سيرة بودو، من مشاركته في الحرب العالمية الثانية إلى حرب التحرير، إلى خلافاته مع قيادة البلاد واضطراره إلى الرحيل إلى المنفى، حيث عمل صحافيًا. قبل أن يعود إلى التلفزيون هذا العامّ، يجرّ معه شهرته، منتفعًا من عفو الحكومة عن معارضين مثله. لكنّ ذلك لا يهمّني، إذ إنني سألتقيه بقصد عرض فكرةٍ لا علاقة لها بماضيه، بل بمستقبل البلد، وأجبتُ:

– أعلم ذلك، مثلما أعلم أنّ مشروعنا يستحقّ أن يُنظر فيه.

شابكًا أصابع يديه سألني عن خطّتي في إقناع بودو، ليصل كلامي إلى المسؤولين في العاصمة. فسحبتُ من حقيبة يدي ملفًّا من خمس صفحاتٍ وعرضتُ عليه ما دوّنته في الأيّام الماضية، عن موقع بوسعادة التي تربط مدن الجنوب، والتي تفتقر كلّها إلى كُليّة طبّ. وعن مِساحةٍ خاليةٍ على مخرج المدينة الشمالي، يمكن أن نشيّد فيها البناية مع سكنٍ للطلبة. وأوغلتُ في تفاصيلَ جغرافيّةٍ وأخرى طوبوغرافيةٍ، كما كرّرتُ نصائح أفادني بها ميلود عن أهمية ما أنوي عليه:

– من دون أن نغفل أنّ المدينة تضم ثلاث مدارس ثانويةٍ؛ اثنتان للذكور وواحدة للإناث. كلّ عام يتوجّه طلبةٌ إلى دراسة الطب في مدن الشمال.

لستُ أدري هل اقتنع رئيس البلديّة بكلامي، أم هزّ رأسه كي يعجّل في إنهاء المقابلة التي دعاني إليها، متحجّجًا باجتماعٍ مع لجنة الإسكان، ومتأفّفًا:

– وصلَنا ستّمئة طلبٍ مقابل خمسين سكنًا متاحًا.

لم أعلّق على كلامه، ولم أفاتحه بما سمعته عن نيّة شهلة البرق تشييد شقق. أتوقّع أنّه يدري بأمرها، مثلما أتوقّع أن يستبدل بي غريمي الدكتور قدور، الذي يداوي مرضاه في عيادةٍ كانت بيتًا، أقام فيه طبيبٌ آخر وهاجر، اسمه بن زمير.

لم يُتَح لي سؤالُ رئيس البلديّة لماذا يريد تغيير تسمية شارع «إميل فراي» باسم شهيدٍ آخرَ من شهداء حرب التحرير. هل احتجاجًا على فرنسا التي عقّدت إجراءاتِ التأشيرة؟ كما لم يتسنّ لي سؤاله متى يَفرغون من تجديد حديقة الأطفال، جنب عيادتي، كي يعود الصغار إلى اللعب فيها. لكنّني غالبتُ شكوكي وخرجتُ بقلبٍ راضٍ ونظراته تخترق ظهري، بعدما التقطتُ الجريدة من طاولته، مقنعةً نفسي بأنّني سوف ألاقي صحافيّ التلفزيون وأتكلّم أمام الكاميرا عن فكرتي. لا يهمّني أن يقبلها المسؤولون في العاصمة أم لا، المهمّ أن أزرع الحكاية في رؤوسهم، ويراني زوجي في الشاشة فيقتنع بأنّني لستُ «خامجة» كما يظنّ.

في الخارج، صادفتُ جلَبة شبّان يرفعون شعاراتٍ تطالب بمقارّ لأحزابهم الجديدة.

كم كانت حياتنا هانئة بحزبٍ واحدٍ... قلتُ في نفسي. قبل أن يُقرّوا دستورًا جديدًا، تَغيّر فيه عدد الأحزاب من واحد إلى ثلاثين، لكنّ حياتنا لم تتغيّر.

عدتُ إلى البيت وقابلتُ ميلود، الذي استفاد من يوم راحةٍ، بحكم انشغالي مع نقابة الأطبّاء. كان يحمل بين ذراعَيْه هرّة التقطها من الشارع، لونها أبيض مع بقعةٍ سوداءَ على ظهرها، فروها مُغبَرّ وتموء في هدوء.

هذه الهرّة تُشبهني، خمّنتُ. لأنّ القطط الضالّة تسير في جماعاتٍ، وهذه الهرّة كانت وحيدة عندما عثر عليها شقيقي.

مددتُ لها يدي فلحسَتْ أصابعي وخرخرتْ. تيقّنتُ أَنّ أُذنَيها نظيفتان، ودلّكتُ عنقها فلم تقاوم. لم تهدّدني بمخالبها. بدت لي مثلي، مطيعةً لمَن يكبرها.

يجب أخذها إلى بيطريّ... قلتُ في نفسي. كي يفحصها ويتأكّد من خلوّها من الأمراض ويحقنها بلَقاحات. لكنّني أعيش في مدينةٍ ليس فيها بياطرة، بل إنّ أناسها لا يقصدون طبيبًا سوى في الحالات القصوى، ويُداوون أنفسهم بالأعشاب والأدعية، لأنّ جيوبهم مثقوبة فلا يجرؤون على دخول صيدليةٍ، «بْلاد تمشي على رأسها»، كما يقول أبي.

عندما رأت ابنتي الهرّة، ودّتْ أن تحملها بين ذراعَيْها وفعلَتْ. مسَّدَتْ فروها وألحّتْ أن تحتفظ بها. وخطر لي أن الهرّة بوسعها أن تلاعبها في غيابي، فهي تحبّ رسم حيواناتٍ وتلوينها. عارض ميلود رغبتها، لكنّها استماتت في بكائها. أرادها كي تؤنس وحدته، لكنّها ستؤنس مينة، التي اتسعت حدقتاها وهي تحضنها إلى صدرها.

– هذي تاعي. علّقت ابنتي ثم ضغطَتْ شفتيها.

رددتُ عليها بالإيجاب.

– وش اسمها؟ سألتْني.

– شيشيرة.

ذلك الاسم الذي طرأ في بالي، وأنا أنظر إلى عينَي الهرّة الخضراوَيْن.

ثمّ مضيتُ إلى غرفتي وقرأتُ في الجريدة خبرًا عن فرار مساجين، في بلدةٍ تقع على الطريق المؤدّية إلى العاصمة، شاعت حكايتهم على الألسن ونقلتها قناة أجنبية: «هربوا من مركبة الشرطة التي نقلتهم من السجن إلى المحكمة قصد إحالتهم على القاضي (...) وقد باشرت مصالح الأمن البحث عن المعنيين».

غاب عنّي أنّ أحد الهاربين كان أقرب الناس إليّ.

* * *

سألها جمال درقين عن أبيها:

– أبي لم يحرّضني على فعل شيءٍ ضِدّ رغبتي.

وكعادتها في مدح الأشخاص الذين تُحبّهم، أطالت الحديث عنه:

– كان أبًا رؤوفًا بي، رغم حياته القاسية.

لم يحظَ جمال درقين بأبٍ رؤوفٍ، ولا تهمّه طفولة والدها ولا سيرته.

واصلَت:

– أبي من النوع الذي لا شيء له يخسره. يعطف على الآخرين ولا ينتظر منهم سوى كلمةٍ طيّبة.

ابتسم هازئًا من غير أن ينطق بكلمةٍ، وعاودها اهتزاز ركبتها:

– قضيتُ ليلة البارحة وأنا أفكّر فيه، رغم صُراخات امرأة في محبسٍ مجاورٍ تصيح باسم أحدهم: «هلالي».

أخبرها أنّ الرجل المقصود هو زوج تلك المرأة.

– هل مات؟

– بل قتلَتْه.

فازداد اهتزاز رُكبتها.

8

تلمّسْتُ سكاكين وسواطير تصلح لتقطيع أمعاء مخلوف، يستعين بها القصّاب في محلّه، الذي يقتسمه مع كتيبة ذُباب، وتفوح منه رائحة شحم. أعرضتُ عنه عقب ارتفاع أثمان اللحوم، لكنّني عدتُ هذه المرّة واشتريتُ ربع كيلو غرام، استجابةً لإلحاح ابنتي التي تودّ أن تدلّل هرّتها شيشيرة. تُربّتُ على أذنيها وتركض خلفها، أو تطلب منّي مساعدتها على صنع بيتٍ لها من كَرتونٍ... تكلّمها بنبرة صوتٍ أكثر حنانًا من نبرة صوتها معي، ولا تسمح لها بتخطّي باب الخروج، خوفَ أن تهرب، مثلما كانت أمّي تنهاني عن الخروج، بعدما بلغتُ سنّ الرشد، سوى للحاجة.

وجدتْ أمّي في انشغال حفيدتها بالهرّة راحة في التفرّغ لأُصُص نباتاتها المصفوفة في الفناء، التي تسقيها وهي تدندن أغانيَ قديمة. وفي الانصراف إلى مِنشفتها في التنظيف، التي لا تفارقها مثل ساحرٍ لا يفارق عصاه، وإلى الثرثرة مع جارتنا نوسة، التي غابت هذا اليوم لحضور جنازة قريبٍ لها.

يعتري أمّي على الدوام صُداع يطرق رأسها المخضّب بالحِنّاء تارة، أو المدهون بالخلّ تارة أخرى. أو آلام معِدةٍ بسبب أكلها المتعجّل أو وجع في الكُليتَيْن، رغم أنّها تتجرّع ثلاثة ليترات ماءٍ كلّ يوم. فأقيس ضغط دمها، وإن لم يكن في معدّله، أجلب لها مهدّئاتٍ أو أكياس أسبيرين. مع ذلك لم أكسب ودّها، لم تحبّني ولم أبغضها. تخاف أن تصاب بأمراضٍ مزمنةٍ مثلما أخاف أن يتجعّد وجهي مثل وجهها. مع ذلك، يمكنها التبرّع بقرنيّتَيْها عند موتها، تكفيرًا عن زلّاتها.

قصدتُ المشرحة، ممتعضةً من أنّني لم أقاوم شراهتي إزاء كأس صودا، أنزلتُ بها غدائي من سلَطة جزرٍ وأرزٍّ، قبل أن أنهمك في عملي على جثّة امرأة.

قال زوجي: «في الخامسة والستين من عمرها».

تتوسّط خدّها شامةٌ، زادت ملامحَها لطفًا. كأنّ الموت أحياها. بحكم أنّ الجثث تُحفظ في ثلّاجاتٍ عالية التبريد فإنّها لا تتحلّل بسهولة.

لقد ماتت ميتة مريحة. أوت إلى فراشها ليلًا واستسلمت لنوبةٍ قلبيّة. لحظ مخلوف آثارًا غريبة على ذراعها، وظنّ أنّها ضحية جرمٍ، لكنّ التشريح كشف أنّها جروح قديمة. ولستُ أدري إن خلّفت أولادًا أم لا، فأنا لا أتطفّل على بطاقات الجثث، وأكتفي بما يزوّدني به بَعلي من معلومات. لم تكن هذه الميّتة محظوظة مثل أبي، الذي نجا قبل عامَيْن، من نوبةٍ قلبيّة. لكنّني أُرجّح أنّها مثل أمّي، لم تعش زهوَ الحياة. لم تفرح أو ترقص، فالأزواج لا يُثبتون شرعيّتهم بعقد الزواج بل بقسوتهم على نسائهم؛ كلّما زادت قسوة رجلٍ على زوجته، علت سُمعته بين أقرانه، هكذا تَرسّخ في الأذهان.

اقتلعتُ قرنيّتَي الميّتة اللتَيْن ستذهبان إلى عجوزٍ أظلم الزمن بصرها، وشابٍّ مسّ قرنيّته تشوّه فصار شكلها مخروطيًا. ثمّ سألتُ زوجي، الذي انشغل بتصليح منشار العظام، إن كان يترقّب جثّة أخرى: «رجل مات بداء الكلَب».

بدلًا من أن يلقّحوا الكلاب الضالة، يقوم عمّال البلديّة بقتلها رميًا بالرصاص، ثم يدفِنونها في حُفرةٍ مثلما يدفِن الآباء قُلفات أبنائهم عقب الختان. مع ذلك لا يزال الناس يموتون بفيروس الكلَب. لكنّ هذه الحالة لا تعنيني، فأنا أتفادى كلّ مَن قضى نحبه بمرضٍ مُعدٍّ، لأنّ العينَيْن ستكونان متضرّرتَيْن. وقد كنتُ أكلّم مخلوف، على

غير العادة بصوتٍ مسموعٍ، بحكم خلو الممرّ من الممرّضين، من صُراخهم وتعاركهم مع المرضى، أو ركضهم خلف الفئران التي تتسلّل إلى الحُجرات.

أولئك الممرّضون الذين يُديرون ظهورهم لزوجي، تملّقًا لمدير المستشفى الذي يناصبه عداوةً، انصرفوا إلى الصلاة، بعدما هيّأوا غرفةً مجاورة لقسم تحليل الدم لتكون مصلّى. لم أر زوجي يصلّي يومًا، لكنّ ذِكر الله يبلّل لسانه، كما أنّه يعلّق آية الكرسيّ في سيّارته. فوالده كان متديّنًا يعمل حجّامًا، يثبّت كؤوسا على ظهور المرضى ويمتصّ دمهم فيُريحهم من آلامهم. لقد كان مُعتدًّا بأنّ ابنه طبيب.

عندما تخرّج مخلوف في الجامعة ذبح والده كَبشًا ودعا مَن يعرفهم ومَن لا يعرفهم إلى عشاءٍ استمر حتّى الفجر، كما حكت لي حماتي قبل زفافي. ولم يحتجّ أنّ ابنه صار طبيب موتى، فالمهمّ أنّه طبيب وكفى.

«الأطبّاء ورثة الأنبيّاء»، كما قال ذلك الحجّام الذي صار الناس يُنادونه أبو الطبيب بدلًا من محجوب الأعور، لأنّه فقد عينه عقب الاستقلال. وقد ظنّ أنّ مَن يصير طبيبًا يضع قدمًا في فِردوس الدنيا، أنّه نجا من الفقر وبات في عِداد السادة. ليت محجوب الأعور، الذي توفّي مُقعَدًا، علم أنّ الأطبّاء لا يتذوّقون من فرحٍ إلّا مثل فقيرٍ يتذوّق اللحم هذه الأيّام.

بعدما فرغتُ من عملي، توقّعتُ أن يعرِض عليّ زوجي مرافقته إلى البيت بسيّارته، لأنّني تحمّلتُ المجيء إليه تاركةً عيادتي.

«ينتظرني موعد في جمعيّة الأيتام».

تعلّل وهو يصبّ قهوته من تُرمسٍ فضّيٍّ اللون، في فنجانٍ أبيضَ عليه زخرفة بالأزرق، فيما فنجان آخر مشابه له متّسخ لم يهتمّ

بتنظيفه. فهو لا ينصبّ على عمل قبل أن يُغرق مخّه في الكافيين، وكلّما شرّح جثة وفرغ من عمله، كافأ نفسه بفنجان قهوةٍ آخر.

كان محاصَرًا بموادّ سامّةٍ يحتاج إليها في المشرحة: ميثانال، فينول، كلوريد الزئبق... وكلّ من هذه الموادّ من شأنها أن تودي به إلى تسمّمٍ أو موت.

موته أهون عليّ من أن يضيق فؤاده منّي؛ فعندما يملّ رجل من امرأةٍ، يعود إلى طباع العزّاب أو يجلب لها ضرّة أو يُطلّقها. أظنّ أنّ أمّي لم تكن تمزح عندما خاطبتْني: «راقبي زوجكِ». هل أطلب نصحها كي لا ترافقني صفة مطلّقة؟ فهو لن يرضى عنّي إن لم أُنجب ذكرًا، وإذا طلّقني فسأعود إلى الشيخ بلخير، أرجو منه تميمةً كي لا أُجنّ. قبل الزواج خفتُ أن تطول عزوبتي، وبعد الزواج أخاف أن أصير مُطلَّقة، فيقصد عيادتي رجال لأغراض أخرى غير التداوي. النساء كحالي حُكم عليهنّ بالعيش في خوف.

وددتُ الرجوع إلى البيت في الحافلة، ثم تراجعتُ بعدما رأيتُ الناس يتدافعون في الصعود إليها كمَن يتدافعون في الدخول إلى الجنّة. فاستقللتُ سيّارة أجرة، متغاضيةً عن تسعيرتها التي ازدادت، بعدما أوقفتُها قُبالة المستشفى، حيث يتجمّع باعة حشيشٍ وخمورٍ منتهية الصلاحيَة، يبيعون سلعهم مثل مَن يبيع أدوية.

ركبتُ التاكسي، التي هاجت فيها روائح عرق وأرجل، فشعرتُ بأنّني دخلتُ فُرنًا. اِشتغل محرّكها بعد ثلاث محاولاتٍ من سائقها، ولأنّ الطريق العامّة تخضع لأشغالٍ، سلكنا شارعًا ملتويًا تساقطت فيه كابلات كهرباء من أعمدة إنارةٍ، تفاداها الناس بالقفز فوقها، مثلما تفاديتُ أن تلامس كتفي كتفَ الراكب جنبي، من جراء تطوّح المركبة، بينما يتعارك السائق مع المارّة، ويشتكي في مونولوغٍ من عجزه عن استخراج أمواله من مركز البريد: «العمّال في إضراب»، قال.

كلّ مَن أعرفهم سحبوا مدّخراتهم من مركز البريد، خشية أن تتحفّظ عليها الحكومة، من جراء نفاد الخزينة العامّة.

ثمّ بصق من النافذة من غير أن يُشغّل العدّاد، فهو يدوس القانون، مثلما دُستُ رغبتي في المشي، خشية أن تترصّدني سيارة الرينو 4، كالمرّات السابقة، فتصير دقّات قلبي أعلى صوتًا من وقع خطواتي.

وصلتُ إلى البيت ورأيتُ أبي يحلق ذقَنه: «أنوي السفر إلى العاصمة».

أبي الذي يحرص على التطيّب وارتداء قمصانٍ مكويّةٍ، لم يسافر سوى أربع مرّاتٍ في حياته على ما أذكر. مرّةً إلى ميناء العاصمة للاسترزاق وهو لا يزال مراهقًا، وأوائل الأربعينيّات إلى الجبهة الإيطالية، وعام 1962 وأنا طفلة، حين انتقلنا إلى قرية جنب بسكرة ولم يطُل مكوثنا فيها، قبل أن نعود إلى بوسعادة. ثمّ ذهب إلى الحدود مع تونس لاقتلاع الألغام. من يومها لم يذهب إلى أيّ مكانٍ آخر.

قضى عمره مرتديًا قناع العبوس، يلاعب وجوهنا بيدَيه اللتَيْن كانتا صُلبتَيْن مثل مِقبض فأس، أو يذيقنا لسعات عصا أو حزام بنطلون أو يقذف أحدنا بمِلعقة. لم أره يُهدي أمّي وردةً، ولعلّه ينتظر موتها كي يزيّن قبرها بباقة أزهار. لكن عليها أن تحمد ربّها أنّه لم يستبدلها بضُرّةٍ كما يفعل آخرون من سنّه، أو لعلّها كانت لئيمة في صِغرها فعاقبها الله بهذا الزواج. في صِغرها رعاها أخوها الأكبر ثمّ ناب عنه أبي، الذي كبر فصار حكّاءً عن دوره في تحرير البلد، بل أراه يكلّم نفسه أحيانًا مثلما يفعل مَن تقدّم بهم العمر: «كنتُ أستيقظ في جوف الليل، بمجرّد سماع وقع أحذية العسكر، وهم يقفزون من سقفٍ إلى آخر، بحثًا عن مطلوبين للعدالة»، قال لي ذات مرّة.

لم يَشُكّوا في أمره عقب انضمامه إلى جمعية «قدامى الحرب العالميّة» الموالية للفرنسيين، وأفلح في خداعهم. مع ذلك فكلّ ليلةٍ

كان يشعر بأنّ ساعته قد أزِفت. لم يقرّ بأنّه كان يبلّل سرواله خوفًا من أن يُعتقل، مثلما أكاد أن أتبوّل خوفًا من نوبات غضب مخلوف، الذي يعاند مهما كان مخطئًا. وتخيّلتُ ما ستكتبه الجرائد في حال كتمتُ أنفاسه: «طبيبة تغدر بزوجها»، ليس عنوانًا مثيرًا. بل سيكتبون: «الغَيرة تدفع بطبيبةٍ إلى قتل زوجها».

سيفترضون أنّ مخلوف عقد قِرانه على أخرى أو أحبَّ غيري. وبدلًا من أن يحاورني بودو في مشروع كليّة طبٍّ، سيسألني: «كيف قتلتِ زوجكِ؟ ماذا شعرتِ عند قتله؟ هل قتلتِ شخصًا آخر من قبل؟». مَن يقتل يصبح شهيرًا. ولن يصدّق أحد أنّ فَعلتي جاءت دفاعًا عن نفسي، بمَن فيهم أبي.

فهل هو ذاهب إلى العاصمة من أجل الظفر ببطاقة مجاهد؟ التي تسهّل افتتاح مقهى أو استيراد سيّارةٍ، ثمّ يكسب مالًا مثل رفاقه القدامى، الذين أورثوا أبناءهم مغارةَ علي بابا. مع أنّني سمعته مرّة يقول: «دافعتُ عن بلدي من أجل وجه ربّي، لا من أجل صدَقةٍ من عبدٍ».

لم يردّ على سؤالي عن سبب سفره، مثلما لم يردّ حين سألتُه إن كان يعرف شهلة البرق. أمّا أمّي، فقالت إنّها سمعت عنها من أفواه الناس.

«ورأس يمّا نخليهالك مفاجأة. سوف أخبركِ عندما أعود»، قال أبي. منذ متى صار يؤمن بالمفاجآت؟ وهو الذي يخطّط للّقمة مثل مَن يعيش في عام المجاعة. يعدّ نقود المصاريف قبل بزوغ كلّ شهر. يفضّل أن تُقطع إصبعه على أن يقتطع دينارًا من جيبه. مع ذلك فقد فرحتُ لأجله إذ بدا سعيدًا بأنّه سيركب الحافلة، سيقضي فيها ما يربو على ستّ ساعاتٍ قبل الوصول إلى مقصده. يقطع تلك الطريق التي

قطعتُها مرّاتٍ ومرّاتٍ، سنوات دراستي في الجامعة. «أذهب وأعود في اليوم نفسه»، أضاف.

سوف يسلك مدنًا وأريافًا، ويرى بيوتًا مسقوفةً بالقصدير أو الآجرّ، قبل أن يبلغ العاصمة، ومن المحتمل أن يزور باب الوادي أو القصبة أو ساحة موريس أودان، ويطلّ على أزقة وشوارع دزاير أو البهجة أو ألجي كما نسمّيها، ببناياتها البيضاء وشبابيكها الزرقاء وجادّاتها الواسعة.

مدينة بقلبٍ رومانسيٍّ، تُزوّدنا بالقوانين والمسؤولين وفواتير الكهرباء والماء. ترسل إلينا بالقمح واللحم وبرامج التلفزيون. مدينة لا يُغمى عليها ساعة الغروب كحال مدينتي. سوف يتذكّر فيها لقاءه شارلي شابلن عندما كان يافعًا بقامةٍ طويلةٍ، قبل أن ينكمش إلى 168 سم. سوف يلوّح للبحر ويصادف رجالًا ببدلاتٍ وربطات عنق، ونساءً في تنانير أنيقةٍ مثل الفرنسيّات، لا أحد يعاكسهنّ أو يقول لهنّ كلامًا خادشًا، مثلما يحدث هنا، حيث باتت النسوة يتجنّبن الخروج بسيقانٍ مكشوفةٍ، كي لا يرشّ أحدهم حمضًا عليهنّ فيُحرق جلودهنّ، ولا يلبسن ثوبًا ضيّقًا فيتعرّضن لمجهولٍ من الخلف بمِشرطٍ، بحجّة دوسهنّ شرائع العفّة. والأمّهات بِتنَ لا يكشفن عن نهودهنّ، لإسكات رُضَّعِهنَّ بحليبهنّ، تحت ظلّ حائطٍ أو نخلةٍ، خشيةً من أن ينهال على رؤوسهنّ أقذع الكلام من ألسنة المارّة.

عليّ أن أنتظر عودته، مع أنّ أعصابي لا تحتمل طول انتظار، فأعرف خبايا هذه المفاجأة، التي لا تعرف عنها أمّي شيئًا. فيما استأذنَني ميلود الغيابَ في اليوم التالي؛ ليس من عادته أن يتغيّب، ولم يبلّغني السبب.

* * *

«لستُ أتذكّر أنّني ارتكبتُ خطأً طبيًا في حقّ مرضاي»، قالت عقيلة وأردفتْ: «أنا أمارس عملي بحبٍّ لا يقلّ عن حبّي تجاه ابنتي». مع إدراكها أنّ الخطأ جزء من سيرة كلّ طبيبة.

التمسَ منها المحقّق أنّ تتذكّر وقائع سالفة، وإن اشتكى منها أحد من مرضاها، فأجابت بحزم:

– لم أسمع شكوى من أحد. ولا أسمح لأحد بالتعدّي على سُمعتي.

– تعيّن عليكِ التفكير في سُمعتكِ قبل أن تصلي إلى المخفر.

ثمّ تداركت:

– اشتكتْ منّي إحدى مريضاتي، الآن تذكّرتُها.

– ما اسمها؟

– فوزيّة.

– لماذا اشتكتْ منكِ؟

9

أحكمت فوزيّة الخيّاطة قبضتها على عنقي وهي تصيح: «ندفنكِ وأنتِ حيّة»!

اتهمتني بأنّني أخضعتُها لعمليّةٍ لم تنجح، وأنّني زرعتُ في عينها قرنيّةً خلّفت لها احمرارًا وألمًا، مع صُداعٍ لا يفارقها:

– سرقتِ دراهمي!

– أعلمتُكِ بتبعات زرع القرنيّة... والألم يستمر بعض الوقت.

ظننتُ أنّ كلماتي، التي نطقتُها بشفةٍ سُفلى مرتجفةٍ، سوف تُرخي قبضةَ يدها، لكنّها عاندت: «حابة تعميني»؟

صاحتْ مثلما يصيح زوجي في وجهي، وهي تكزّ على أسنانها. «وددتُ شفاءَكِ»، رغبتُ في الردّ عليها، لكنّني خفتُ ألّا تصدّق كلامي، فتصفعني مثلما يصفعني مخلوف، بكفّها المخضّبة بالحنّاء، التي رفرفت في الهواء.

وجدتُها في انتظاري، عند عتبة العمارة حيث أستأجر عيادتي. وصلتْ قبل المرضى أجمعين، ولم تُمهلني أن ندخل فتشرح لي علّتها. بل عقدت حاجبيها بمجرّد أن رأتني، وشرعت في العويل والنحيب، مع رذاذ بُصاقٍ يتطاير من شفتيها، مثل مَن ركبها جنّ، أمام مرأى العابرين. سحبتُها من ذراعها إلى الداخل، كي لا يرانا أحد نتعارك. فالطبيبة الناجحة هي مَن تتمتّع بسُمعةٍ جيّدة لا مَن تشفي المرضى، وليس من مصلحتي أن أُخاطر بسُمعتي.

عيادتي عبارة عن شقّةٍ في حيّ 19 جوان، نسبةً إلى التاريخ الذي انقلب فيه هواري بومدين على أحمد بن بلة عام 1965. في عمارة سلالمها مظلمة، وتحتلّ قبوها عائلتان لا مسكن لهما، تصدّران لنا ضوضاءهما وفئرانهما، بينما يتزاحم دجاج وأرانب في بلكونات

الجيران، يعتنون بها طمَعًا في بيضها ولحمها. يتشاركون صحنًا لاقطًا واحدًا، يلتقط لهم القنوات الأجنبيّة، ويسرقون منّي ما يشاؤون لأنّهم بلا عمل. وفي اليوم الذي احتجتُ فيه إلى ميلود، غاب عنّي. فصرتُ مثل إسفنجة غسيل تعصرها يدا فوزيّة الخيّاطة، ذات الفمّ المعوجّ، الذي تلمع في وسطه سنّ ذهبيّة.

سعيتُ إلى تهدئتها وأنا أضع سبّابتي على فمي، كما يفعل أبي حين يودّ إسكاتي. لكنّها ضاعفتْ من غضبها مثل غضب جارتي نوسة من أبنائها الستة عندما يعصون أمرها، فهي التي رعتهم وحدها، في غياب والدهم المسرف في الشرب والسهر.

راودني أن ألوي عنقها مثلما أريد أن ألوي عنق زوجي، فالطبّ مثل عراك الشوارع، يحتّم على صاحبه الدفاع عن نفسه وتحمّل الشتائم. ثم تذكّرتُ تنبّؤاتِ برجي بالأمس: عليكِ التحلّي باللَّباقة والإقناع. ولعنتُ في سرّي الممرّض الذي تركني وحدي في العمل، محدّقةً إلى عين تلك الرعناء المُحمرّة، مستحضرةً يوم جاءت للمرّة الأولى، متذلّلةً بوجهٍ مصفرٍّ مثل بطاطا مقليّةٍ، تحمل بين يديها علبة حَلويات مع سوارٍ من فِضّة. شرحتْ لي حالتَها التي ساءت، وقد نصحها الدكتور قدور جندال بالسفر إلى الخارج، من أجل زرع قرنيّةٍ: «ما نقدرش نسافر»!

أشفقتُ على حالها لأنّ زوجها لم يُجِز لها استخراج جواز سفر. وأردفتْ قائلةً: «نوعدك إذا نجحت العملية نجيبلك سوار آخر تاع ذهب».

دفعتْ ثمن العملية التي أخضعتُها لها وجلبتْ هديّتها، التي باعها مخلوف واستأثر بمالها. ورأيتُها تقفز من الفرح مثل طفلٍ أفلح في امتحان نهاية السنة. لم أتوقّع أن تنقلب عليّ فتهدّدني، شاهرةً سبّابتها، بفضحي والإبلاغ عنّي:

– أنتِ زرعتِ المرض في عيني. نسيبي ضابط شرطةٍ في بلدةٍ قريبةٍ، سأكلّمه وستُكملين عمركِ في ظلمة!

– أنا التي رجوت إنقاذ عينكِ من ظلمتها، تودين مكافأتي بظلمة!

كان مخلوف محقًّا حين أوصاني، في مطلع زواجنا، عندما كان يخاطبني مثل مَن يخاطب طِفلًا، وقبل أن ينقلب عليّ هو أيضًا، بعدم الإسراف في طيبتي. «اللي يدير الخير يعيش ذليل»، وفوزية تودّ إذلالي. وأنا لم أُخفِ خوفي من كلامها، مثلما لم أُخفِ شكّي في أن أكون قد ارتكبتُ خطأً، مع أنني أفحص القرنيّات التي أقتلعها من الموتى، وأتأكّد من سلامتها قبل زرعها في أعين الأحياء. أحرص على اقتلاع القرنيّات في الساعات الثماني عشرة التي تلي الموت، لا بعد تلك المُهلة.

لقد استأصلتُ القرنية التي زرعتُها في عين فوزية من ذلك الشاب الذي هوى من الطابق الخامس وهو يُعلّق قفص حسّون في البلكونة، والذي لم تبدُ عليه أمراض مُعديَة. كما زرعتُ قرنيّته الأخرى في عين شهلة البرق، التي لم تشتكِ من سوء. ولم يعد أمامي من خيارٍ سوى عرض هذه المرأة، التي اشتُهرت بخياطة فساتين الأعراس، على الفحص فأعرف ما حصل لها، قبل أن تنفّذ وعيدها: «نهدم الكلينيك على رأسك».

ليتكِ هدمتِ رأس زوجكِ الذي منع عنكِ جواز سفر... كتمتُ حنَقي في قلبي، لأنّني لم أملك وقاحتها في الكلام، ومَن تُعامل هؤلاء الناس بلطفٍ يظنّوها خوّافة. جيران يسرقون أغراضًا من عيادتي، وهذه المرأة تودّ هدمها على رأسي، إنني فعلًا خوّافة. مكان عملي كذلك لم يعد آمنًا.

سقيتُ عينها بقطرتَيْن موسِّعتَيْن للحدَقة، وعاودني التهاب في إبطيّ إثر نتف شعرهما في اليوم السابق. انتظرتُ خمس دقائق كفّت

فيها يداها عن الحركة، مثلما كفّ التهاب إبطيّ، لكنّ لسانها لم يغفُ عن نفث الشتائم مثلما تفعل حماتي، وهي تتوعّد: «ابني محامي. والله ما يرحمك».

مرّة تهدّدني بضابط شرطة ومرّة بمحامٍ. «اختاري أحدهما»، غمغمت.

– أنا أطلب رحمة ربّي لا العبد.

أجبتُها وأنا أقضم ظُفر خنَصري. وقفْتُ أمامها على بعد ثلاثين سنتمترًا، وساقها ترتعش، فسمعتُ وقع خلخالها، الذي يتدلّى منه رأس أفعى درءًا للحسد. كنتُ متهيّئة للدفاع عن نفسي في حال هجمتْ عليّ، ومتمسّكة بصمتي بدلًا من الردّ على مسبّاتها، مصدّقةً رأي أبي: «الكلب اللي ينبح، لا يعضّ»، وفحصتُها بمنظار القرنيّة، فلم أتبيّن أيّ خللٍ في عينها.

قدّرتُ أنّها أُصيبتْ بارتفاعٍ في ضغط العين، بحكم أنّها تجاوزت الخمسين من عمرها. ووصفتُ لها محاليل تثبّط وجعها ثمّ تُخلّصها منه، على أمل ألّا تعود إليّ مرّةً أخرى، فتلك الأدوية مدّرة للبول ومثيرة للنّعاس. فخرجت تعضّ شفتها، من دون أن تعتذر عن سوء ظنّها بي. ولم أشأ أن أطلب منها دفع تكلفة فحصها، مترقّبةً أن ينتصب قرنا تيسٍ في رأسها فتكتمل صورتها كشيطانٍ في مخيّلتي، وأنا أتساءل في خَلَدي، مخبّئةً يديّ في جيبَي المِريلة:

– ألم يكن من الأجدر ألّا أسمح لشقيقي بالتغيّب؟

امتعاضي من نفسي جعلني أبغض أهلي. لن أتساهل مع ميلود مرّة أخرى. زوجي اعترض على توظيفي له؛ «العائلة والعمل لا يلتقيان» كما قال. سأكون في أفضل حالٍ إذا فككتِ الارتباط بما يسمّى الأهل، هكذا خمّنت. إذا كرّرها فسأستعيض عنه بممرّضةٍ، أقلّ

جمالًا منّي كي لا أصير ظِلًا لها، فلا تلفِت أنظار العجائز اللواتي يبحثن عن عرائسَ لأبنائهنّ.

هذا آخر غيابٍ أتسامح فيه مع ميلود، الذي يتستّر على شؤونه مثل محارةٍ تتستّر على لؤلؤةٍ، وينعزل في غرفته بدلًا من مجالستنا للحديث أو الأكل في البيت. وإن عاد فذلك فِراق بيني وبينه، هكذا عزمتُ ثمّ تراجعتُ، فأنا بحاجةٍ إلى نصحه من أجل مقابلة صحافي التلفزيون وإقناعه بالمشروع، قبل أن يـرِنّ الهاتف ويـعاود ذلك المجهول اتصاله، من غير أن ينطِق بكلمة. هل هو المجهول نفسه الذي يضايقنا باتصالاته على رقْم البيت؟

أنهيتُ فحص مرضاي، بنرفزةٍ في اللسان ورُعونةٍ في التصرف، بسبب المِزاج السيّئ الذي خلّفَته لي الخيّاطة، التي يشبه فمها طيز دجاجةٍ حين تنطِق بالشتائم. وغادرتُ العيادة في السادسة مساءً.

عبرتُ شارع إميل فراي، الذي أُزيلتْ منه لافتةُ تسميتِه من غير أن تنوب عنها أخرى. رحتُ أُزاحم المركباتِ في الطريق، لأنّ الرصيف يحتلّه باعة، يعرضون التوت أو التين الشوكي... والشرطة تطوف من حولهم. اقتنيتُ أوانيَ، بينما نظرات المارّة تلسعني من تحت، وتُشعرني كأنّني أمشي عارية. والشمس تتزحزح إلى مغيبها فوق رأسي، وأنا أمارس هوايتي في السؤال عن أسعار السلع، ناظرةً إلى حجّامٍ يعرِض كرسيًّا من جلدٍ على زبائنه، ثمّ يسحب الدم من أقفيتهم. قبل أن أُجانب المُتحف، الذي لا يزال مُوصَد الباب منذ أن اقتحمه ملثّمون. لقد حطّموا تماثيلَ من رخامٍ وأضرموا نارًا التهمتْ لوحاتٍ تصوّر نساءً عارياتٍ، كما أحرقوا مكتب المدير بأثاثه وورقه، ثم نهبوا مقتنياتٍ... ورحتُ أتمتم: اللي يوجعه رأسه يحرق البلاد.

بلغْتُ مركز الحِرَف التقليدية، حيث عثر الأمن، قبل عامٍ، على رضيعٍ تخلّت عنه أمّه، ولا تزال حكايته تَشغل الألسن. قبل أن أدخل

البيت، صادفتُ طاطا نوسة. عزّيتُها في وفاة قريبٍ لها، وتفهّمتُ صيامها عن الكلام على غير عادتها، وهي التي يستفيق وينام الحيّ على نعيقها. عرضتُ عليها الأوانيَ الجديدة التي اشتريتُها، فأعجبتْها وتلطّفتْ في سؤالي عن حالي وحال ابنتي وزوجي. أخبرتُها أنّنا بخير، لكنّ مخلوف يلازم البيت إثر إصابته برشحٍ، ففي فصل الربيع تكثر الجراثيم والأمراض المُعدية.

«إذا يحتاج دواء تقليدي نقدر نعاونك، قبل ما يفوت الحال»!

إنّها تفهم في شؤون العقاقير وخلطات الأعشاب أفضل منّي. لكنّني احتجت إلى عُشبةٍ تلجم لسانه، فقد أبلغني باستياءٍ نيّته هجر جمعية الأيتام:

– لماذا؟

– أموري لا تخصّكِ. أجابني وهو يرفع حاجبيه.

– لماذا حدّثتَني عن نيّتك هجرَها إن كان أمرك لا يخصّني!

– كي تجيبي ولد كما النسا، نكلّمك في أموري.

عاد إلى معايرتي لأنّني لم أُنجب ذكرًا. لم أُجادله في الأمر، خشيتُ أن أحتجّ على كلامه فيذكّرني كعادته بأنّه يكبرني سنًّا، وأنّه يعرف ما لا أعرف، «اللي فاتك بليلة، فاتك بحيلة» كما يقول. طلبتُ منه أن يُجالس مينة، ويساعدها على رسم هرّتها على الورق، على أن يحذر من العطس أمامها. وانشغلتُ في ترتيب الأواني، فعاب عليّ تأخّري في ترتيب غرفة الجلوس ووصفَني بالخِنزيرة.

«الخنزيرة لا تتزوّج إلا خنزيرًا»!

ما كدتُ أُنهي ردّي حتّى رأيتُ نجومًا تملأ بصري. استفقتُ منها في المستشفى، الذي لم يعيدوا طليَ حيطانه منذ زمن جمال عبد الناصر، مع مشقّةٍ في تحريك ذراعي اليمنى. وصف لي طبيب راحةً لمدّة ثلاثة أيّام، وميلود يقف على رأسي، يحدّق إليّ بنظرةٍ

ودودةٍ، كمَن يودّ مقاسمتي ألمي. نظرة لم يبادرني بمثلها منذ صِغري، ومن غير أن يفاتحني في حجّة غيابه عن العمل، سألني:

– لماذا لا تطلبين الطلاق؟

– تحبني نطلّق!

هاج صوتي بعدما مارس دوره كأخ أكبر. والأخ الأكبر ينوب عن أخته في القرار. من غير أن يعلم أنّ الطلاق يسيرٌ على الرجال، عسيرٌ على النساء. فهو لم ينجب أطفالًا، ولا يدري مأزق أن تكبر ابنتي في غياب أحد والديها. ولأنّني بحاجةٍ إلى نصائحه في إقناع بودو بالمشروع، فقد انتهز ضَعفي وتعهّد تقديم شكوى ضدّ مخلوف، الذي تفصله عن جِنازته ستّة أيّام.

* * *

ملأتْ رائحة السجائر المكان، فطردتْ عقيلة الدخانَ بيدها وأفصحتْ عن شكوكها:

– مخلوف كان له رفاق يلتقيهم. هل حقّقتَ معهم؟

طلب منها جمال درقين أن تعرّفه بهؤلاء الرّفاق:

– رفاق له خارج العمل. يلعب معهم الدومينو أو الورق.

– أسماؤهم؟

– لا أعرف.

المحقّق الذي تحرّى محيط مخلوف، لم يعرف مَن تقصد:

– دائمًا ما كان يتحجّج بأنّه على موعدٍ معهم!

ظنّ أنّها تفتري عليه كي تجنّب نفسها سوء المآل، وأصرّ على أنْ لا رفاق له.

سألته عن مدير المستشفى: «كانت علاقتهما سيّئة»، أردفتْ.

نوى المدير توظيف قريبٍ له مكان مخلوف تومي. وألّب الممرّضين عليه كي يُجبره على الاستقالة. ولم تستطع الإصلاح بينهما، رغم أنّها مندوبة نقابة الأطباء، فالقانون لم يُجِز لها التدخّل في شأنهما: «المدير في إجازةٍ خارج المدينة منذ شهرٍ»، أخبرها.

كما أنّ مخلوف لم يكن يجالس الممرّضين، لم يعثروا على بصمات أيٍّ منهم في المشرحة. ثم باغتها بسؤاله:

– ألم تكن له امرأة أخرى؟

حرّكتْ رأسها يمينًا وشِمالًا بالنّفي.

– أعرف رجالًا متزوّجين، لكنّهم مرتبطون بامرأةٍ أخرى. في زواجٍ عُرفيٍّ، من غير وثائق.

– ألا ترحم ميّتًا من الشائعات! انتفضتْ في كلامها.

سألها عن أصدقاء أو صديقاتٍ لها، ومَن منهم آزرها في التخلّص من زوجها، كما فكّر:

– لا صديقات لي ولا أصدقاء.

لطالما تمنّتْ أن تتحوّل أمّها إلى صديقةٍ لها، تُفضي إليها بهمومها، لكنّها صدّتها:

– أستقبل كلّ يومٍ ما يقارب ثلاثين مريضًا. لا وقت لي للترفيه عن نفسي عدا اللعب مع ابنتي.

جمال درقين أيضًا يقضي وقتَه في تحقيقاتٍ مع مشتبهٍ بهم، أو في دوريات أمن في أحياءٍ شعبيةٍ حيث تسود تجارة الممنوعات والاعتداءات بالسكاكين على القصّر أو الكبار في السنّ، أو في التعارك مع عائلاتٍ فقيرةٍ تسطو على بيوتٍ، مُلّاكُها يعيشون في الخارج ولا يجيئون سوى في العُطَل. يخاطر بحياته من أجل ترقيةٍ في عمله وزيادةٍ في راتبه، ولا وقت له في الترويح عن نفسه. أخرج من بين

الأوراق المصفوفة بين يدَيْه وثيقةً بمثابة إدانةٍ لمحدّثته؛ شكوى ضدّ مخلوف تلقّاها الأمن.

– تتّهمني بسبب إيداع شكوى ضدّه؟

– لا بدّ أنّ هناك علاقة بين الموضوعَيْن. صارحها.

– بل أخي مَن أودع الشكوى لا أنا، ثم تراجع عنها.

أخبرها أنّ القانون لا يُجيز للشرطة التدخّل في شؤون العائلات. وعلى الأزواج أن يحلّوا معضلاتِهم في ما بينهم. فعلّقتْ في سرّها: لأنّكم لا تقبضون بقشيشًا في مثل هذه الحالات.

– لماذا تراجع عنها؟

– لأنّ مخلوف وعد بمراجعة نفسه، في تصرّفاته معي.

– هل وفى بوعده؟

10

دخلتْ ريمة إلى عيادتي، وهي تقدّم رِجلًا وتؤخّر أخرى، بساقَيْن طويلتَيْن ونحيفتَيْن مثل ساقَي لَقلَق، تحت بنطلونها الجينز، فحسدتُها على رشاقتها. أخفيتُ صورتي مع مخلوف في الدُّرج، مثلما أفعل كلّما دخلتْ مريضة، ووددتُ معانقتَها، لكنّ صفتي كطبيبةٍ تُلزمني أن أحذر حدودي. اكتفيتُ بمصافحتها وعرضتُ عليها الجلوس.

بدا لي نهداها أكبر حجمًا ممّا كانا عليه قبل ثلاثة أشهرٍ، حين جاءت أوّل مرّةٍ وطلبتْ منّي: «نحب نبدّل لون عينَي».

مع أنّ عينَيْها بنّيّتان، ممتلئتان بالحياة، لكنّ براءتها أودتْ بها إلى إدمان مجلّات الموضة، فظنّتْ أنّ تغيير لون العينَيْن يشبه تغيير الثياب. ورغم أنّ بشرتها بيضاء تخجل الشمس من التحرّش بها، لم تحظَ بعرسان، وتُصرّ على أنّ الرجال يفضّلون ذات الجاه أو المال. تساءلتُ في سرّي: هل زوجي كذلك يريد امرأةً من ذوات الجاه أو المال؟ أمّا أنا، فأودّ أن أراه بجثّةٍ مُزْرقّةٍ، فأشفى من صراخه في وجهي، مثلما شُفيتُ من الرضوض التي خلّفها لي وعدتُ إلى عملي.

أنا مصرّة على رأيي أنّ الزواج يتمنّع عن ريمة لسكَنها في دار بابا ياقوت، هكذا يُطلقون على تلك المرأة، التي ينطِق الناس اسمَها بصوتٍ خافضٍ كمَن ينطِق بعيبٍ، والتي تأوي إليها نِسوة يتكسّبن مالًا مقابل إشباع نزوات العابرين.

وَصَفْتُ لها، قبل ثلاثة أشهرٍ، عدستَيْن لاصقتَيْن، مع تحفّظي من تكلِفتهما العالية، لكنّها أصرّت: «الجمال يعلو ولا يُعلى عليه»، هكذا تفكّر. إنّها تصرِف بلا هوادةٍ من أجل عطورها وقُمصانها الضيّقة، لكنّها لم تحتمل ضغط العدستَيْن. كانت كلّما وضعَتْهما شعرتْ كأنّ أحدًا يدسّ دبّوسَيْن في عينَيْها. سرعان ما تخلّت عنهما، مثلما تخلّيتُ عن

سؤالها إن كانت تنوي التبرّع بقرنيّتَيْها بعد مماتها. فلا يصحّ اقتلاع قرنيتَيْن من فتاةٍ تضاجع مجهولين، حذر إصابتها ونقلها أمراضًا مُعدية.

هل جاءتْ، هذه المرّة، تطلب منّي كذلك مساعدتَها على زيادة إغرائها، في أعين زبائنها والمتردّدين في طلب يدها أيضًا؟

جلسَتْ إلى كرسيّها، ومالت بأنفها المعقوف الذي يتوسّط وجهَها المخروطي. ومن المحتمل أنّها رأتْني في صورة عجوزٍ قُبالتها. بيني وبينها ثلاث عشرة سنة. أنا فارقتُ سنّ البراءة ولم أبلغ سنّ الحكمة. ولو أنّني تزوّجتُ باكرًا، مثل جاراتي أو زميلاتي اللواتي هجرن المدرسة، أو مثل أمّي، لأنجبتُ فتاةً تُقارب عمرها.

«مش عارفة من وين نبدا الكلام».

ظننتُ أنّ مَن تجرؤ على مثل هندامها تتحلّى بلسانٍ جريءٍ، يجري مثلما يجري وادي بوسعادة، الذي تحفّه شُجيرات الدفلى مثلما تحفّ ضفيرتان وجهها. لكنها خالفت الصورة المرسّخة في بالي، وخجلتْ من مفاتحتي عن سبب مجيئها.

– عندي...

أشارت بإصبعها إلى بطنها، وهي تدسّ ساقيها تحت الكرسيّ، بينما شفتاها ترتجفان كمَن تُتمتم أدعيةً وعيناها تدمعان. رفعتُ حاجبَيّ وقد فهمتُ أنّها وقعت في ورطةٍ تخشاها كلّ امرأة. ارتكبتْ ما لا يغفره الناس لها. لم تحتج إلى كلماتٍ كي تشرح لي حالَها، ولم تحتج إلى خلع قميصها كي أدرك أنّها تلبس حمّالة صدرٍ محشوّة بالإسفنج، كي تبدو أكبر من سنّها. هكذا تفعل المراهقات؛ يُردن أن يكبرن بسرعةٍ، وحين تتقدّم بهنّ السنّ يشتقن إلى عمر المراهقة.

عاملتُها بمودّةٍ، إذ بدت لي وردة تفتّحت في مستنقع جَرَاد. فهي آتية من قريةٍ، ولا تعرف أهل هذه المدينة، التي تشعر فيها بغربة. وثِقتْ فيّ لأنّها لا تعرف طبيبة أخرى تقصدها، لكن لا شأن لي بما علق في

رحمها. الإجهاض يعارض قول الله: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق»، وقد يودي بفاعله إلى السجن. القانون يعاقب الحامل التي تُجهض، والمُجهضة، ومَن توسّط بينهما. يصرن قتلة ولا مناص لهنّ من عقاب السماء في الآخرة. عليها تحمّل وِزرها، فهي تُعرِض عن حبوب منع الحمل حذر زيادة وزنها، كما صارحتْني، وعليّ ألّا أضعُف أمام دموعها.

أَفهمتُها أنّني طبيبة عيونٍ ولا يسعني معاونتها، فسارعتْ إلى إخراج هديةٍ من حقيبة يدها: قارورة عطر. أظنّها كلّفتْها مالًا كثيرًا لماركتها الفرنسية الفخمة.

«لكنّني سأحاول»، قلت.

فكّرتُ في الشيخ بلخير، بتمائمه التي يمكن أن تساعدها على الإجهاض، مثلما تساعد العاقرات على الإنجاب. لكنّني شكّكت في جدوى المحاولة، لأنّه مثل غيره يؤمن أن مَن يُجهض امرأة، يظلّ جنينها يصرخ في رأسه. مثلما شكّت ريمة في جدوى محاولاتها حمل أثقال، أو لكْم بطنها أو الوثب بحبلٍ من أجل إسقاط الجنين. وطرأت في بالي طبيبة النساء سالي.

قبل أن أواصل كلامي، صارحتْني ريمة بخشيتها من أن تطردها بابا ياقوت من دارها، في حال لم تتخلّص من حملها: «ما تحبش الأولاد. نولي نرقد في الشارع».

إذ لا مكان لها تلجأ إليه.

– يا لطيف ألطف! زفرتُ وشعرتُ ببردٍ يجلد ظهري، قبل أن أستعيد صرامتي وأضيف:

– الله يجيب الخير...

رحتُ أخفّف عليها بالكلام، وأنا أعلم أنّ «الكلام لا يبني الخيام»، كما يقول أبي. ثمّ خبأتْ ريمة يدها تحت إبطها وسألتني: «أنتِ متأكدة أن الطبيبة اللي كلمتِني عليها تقدر...؟».

ظلّتْ تكلّمني بصوتٍ هامسٍ، وكتمْتُ عنها أنّ سالي لم تعد تُطيق صداقتي لها.

لكنّها تطيق عضّ شفاهٍ مثل شفتَي ريمة... تمتمْتُ رغم أنّني لستُ متأكّدة من أنّها تمارس الإجهاض في الخفاء. لكنّها تُرقّع غِشاءَ الراغبات في الزواج، «أكسِب منها مصروفًا» كما قالت لي مرّة. مع ذلك وعدتُها بأن نذهب إليها في الأيّام المقبلة، فهي لا تزال في أسابيع حملها الأولى، وقد تفيدها سالي بأدويةٍ تجنّبها ورطتها، أو تُخضعها لعمليةٍ تخلّصها من الجنين والمشيمة في رحمها، ثمّ تكافئني ريمة بهديّةٍ أخرى، كما وعدَتْ.

– صحيح اللي تجهض ما تجيب أولاد مرة أخرى؟

عادت إلى أسئلتها البريئة، فنفيتُ مخاوفها: إذا المرأة أنجبت فلن تسلم، وإن فكّرت في الإجهاض فلن تسلم كذلك. لم أصارحها بما خالج بالي، لكنّني أنبأتُها أنّ الإجهاض يترتّب عليه إسهال وحمّى ونزف ومضاعفات أخرى:

– أشدّ ألمًا من الدورة الشهرية.

– الله يعينني، علّقتْ.

وملأتْ صدرها بالهواء، فثابت سكينة إلى عينَيْها، اللتَيْن كفّتا عن الدمع. توقّفت شفتاها عن الارتجاف، وهي تُجزل لي آياتِ الشكر، بصوتها الناعم الذي يُخيّل لمَن لا يراها أنّها أقلّ من العشرين. أعدتُ التحديق إلى وجهها وقدّرت أنّ بوسعها العمل عارضةَ أزياء أو موديل رسّام، فهي من نوع الفتيات اللواتي لا نلتقيهن مرّتَيْن في الحياة.

«ما نقدرش نرقد في الليل».

قلقها جلب لها الأرق، وأنا مثلها صار النوم يخاصمني، منذ أن زارني ذلك المنام الذي رأيتُ فيه نفسي أحلق رأسي، ففسّر أبي رؤياي

أنّني سأتخلّص من همومي. أبي سافر إلى العاصمة، سيعود هذه الليلة ويخبرني عن مفاجأته، كما وعد.

سألتُ ريمة عن شغلها في دار بابا ياقوت. هل اختلاؤها بالفاشلين مع نسائهم يعدّ شغلًا؟ ندمتُ على سؤالي، الذي فرّ من لساني من دون تفكير. كذلك عادتي، أتكلّم قبل أن أفكّر، فردّت عليّ بزمّ شفتيها وإدخال رأسها بين كتفَيْها، كأنّها تقول: «كلّ شيء بخير، عدا الشؤم الذي نبت في بطني».

لم أشأ إحراجها بالسؤال عن هويّة أبي الجنين، ولا عن شعور والدها إذا علم بأمرها. فأنا أعلم أنّني إن حملتُ من غير زواجٍ فسينتهي أمري شنقًا أو في حفرة. واتّفقتُ معها على أن تزورني مرّة أخرى، بعدما قدمتُ لها وعودًا بمؤازرتها، لستُ أكيدة من مقدرتي على الوفاء بها. حينئذٍ أقبلتْ عليّ معانِقةً ولم أصدّها، فهي أطول قامةً منّي، أظنّها 170 سم أو يزيد. ثمّ خرجَتْ وبلغني صوت ميلود يتمنّى لها: «بالشفاء عليكِ»، على غير عادته مع المرضى. هل استهواه جمالها؟

جرّبتُ عطرها من قارورةٍ مستديرةٍ متعدّدة الألوان، تفوح منه رائحة عنبر مخلوطٍ بياسَمين، تنفُذ إلى القلب وتملأ المِنخرَيْن، أفضل من العطور التي درجتُ على شرائها. رششتُ منه على عنق ابنتي في البيت، التي نوى ميلود أن يستعيد منها الهرّة، لكنّ بكاءها ازداد فتنازل لها عنها. مثلما ازداد فضولها حين أعلمتُها بأنّني سأظهر في التلفزيون، وباغتني سؤالها:

– بابا ثاني يطلع في التلفزيون؟

نسيتْ ما يفعله بي وصارت مهتمّة بحاله! لا ريب أنّ الأمهات يجهلن صلة البنات بالآباء. كان يجب أن أردّ عليها: «أبوكِ ستطلع روحه».

لم يمهل العمر مخلوف للوفاء بوعده، ولأن يراجع تطاوله عليها. سألها جمال درقين كيف تلقّت خبر موته:

– كنتُ في عيادتي.

كلّ مَن يعمل في المستشفى يعلم أنّها زوجته. فقد قضت سنة هناك عقب تخرّجها في الجامعة. فاتّصلوا بها وأنبأوها بالفاجعة.

– ظننتُ أنّني نائمة أغرق في كابوسٍ وسوف أصحو منه.

– الحياة لا تخلو من كوابيس، علّق المحقّق.

– مع ذلك ظللتُ مؤمنة بتدابير الله وأقداره.

قالتها بوجهٍ مُحايدٍ، لا تعابير حزنٍ فيه، فذكّرها بأنّها تؤمن بالأحرى بكلام الأبراج.

– الأبراج لا تخبرنا بمَن سيموت.

استاءتْ من سخريته منها، مثلما استاءتْ من كرسيّها، الذي لم يكفّ عن الترنّح.

– فجعني منظره ميّتًا، أردفتْ.

ظنّ أنّ موت زوجها سيُريحها.

– مَقتّه لأنّني خِفته. لكن في حضرة الموت، كلّ إنسانٍ يضعف.

صفحتْ عقيلة عن مخلوف، نسيتْ كلّ ما فعله بها، وحزنت من أجله. لكنّ شاهدًا رآها تدخل غرفة المستشفى، التي تمدّدت فيها جثّة زوجها. وقد أدلى بشهادةٍ أخرى. سألتْ عقيلة:

– ماذا قال لكَ الطبيب الذي عاين جثّته؟

– لم يرَ علاماتِ حزن على ملامحكِ.

telegram @

حدّقْتُ إلى مخلوف ميّتًا، وأنا أشبك يديّ مثل مَن يتضرّع إلى الله، جالسةً إلى طرف السرير، في غرفة هذا المستشفى الخالية سوى من ميّتٍ وأرملته، التي تُفضي نافذتها إلى حديقةٍ، لم تَسقِ الأمطار شجر تينها منذ أربعة أشهر.

أمسكْتُ معصمه ورمقتُ عينَيْه اللتَيْن تُعاتبانِني، لأنّني نويتُ سحب روحه من بدنه. غيرَ مصدّقةٍ ما أراه: إنّني أهذي، لا يُعقل أنّه مات!

تحوّل حِقدي على زوجي إلى شفقةٍ على حالي. لماذا تركتُه يغادر البيت هذا الصّباح صافعًا الباب؟ من دون أن يتناول قهوته على غير عادته، وهو يرمقني بنظراتٍ مُحمرّةٍ، بعدما قضى ليلته في ورديّةٍ، للمرّة الثانية على التوالي، عاد منها يضمّد يده المجروحة. سألتُه عنها فلم يُجب، وهو يمسح أنفه الذي رعف من شدّة الحرّ، عقب انقطاع الكهرباء وتوقّف المِروحة عن الدوران. حضّرتُ له كوب نعناعٍ بالليمون والقِرفة، فامتنع وهو يرشّ شتائمه على رأسي، ويشتم أهلي لأنّ ابنتي طال بكاؤها ولم ترغب في الذهاب إلى الروضة، مفضّلةً البقاء مع هرّتها. ظنّي أنّ بكاءها ازداد لأنّها أحسّت بمفارقة والدها. لا بدّ أنّ آخر شيءٍ فكّر فيه هو أنني لا أصلح للأمومة.

لم أُرضِ زوجي كما يبتغي ربّي، في هذا الأربِعاء الذي خُلِقَتْ فيه الشرور كلّها؛ خُلق فيه عزرائيل وقَتل فيه قابيل أخاه هابيل. كما أنّ الأرزاق تُقطع كلّ أربعاء، مثلما يقول أبي، وكلّ شجرةٍ تُزرع في هذا اليوم لا تُزهر. هو يوم لا يجدر فيه زواج ولا إنجاب. ورغم أنّ الأربعاء يوم حظّ برج الحمل، مثلما تقول الجريدة، فإن السماء لا تتنازل عن صدّي.

دهمني غثيان فتقيّأتُ، وعمّت المكان رائحة حامضة.

مات مخلوف بعدما انقلبتْ سيّارته. كم دام عذابه قبل أن يقبِض الله روحَه؟ دقيقة أم دقيقتَيْن أم أكثر؟ هل فكّر فيّ قبل أن يفارق دُنياه؟ لا أظنّ ذلك، لكن لماذا كان يقود مسرعًا؟ في مدينةٍ لا يعرف ساكنتها إشاراتِ مرورٍ، ولا يهمّهم ربط أحزمة الأمان، لا تنتصب فيها علامات الحدّ من السرعة ولا ممهّلات في الطرقات. كانت أعصاب مخلوف تنتفض كلّما تجاوزتْه سيّارة أو تعطّل في زحمةٍ، فيزبُد فمه بسبّ البلاد ومَن يدِبّ على أرضها. ولأوّل مرّةٍ وجدتُ نفسي قادرة على أن أكلّمه وهو يسكتْ. لم يُسكته سوى الموت.

تخيّلتُ موته أكثر من مرّةٍ، بضربةٍ على الرأس أو شنقًا بحبل، لكنّني لم أتخيّل أن يَلقى خاتمتَه في حادث سيرٍ، وأن يتّصلوا بي من المستشفى، بعدما فرغْتُ من استئصال ورَمٍ حُبَيبيٍّ من جَفن طفلٍ، وقد جاوز الوقت منتصف النهار.

لم يترحّم المتّصل على الميّت، بل خاطبني:

– أرجو أن تتوجّهي إلى المستشفى لتسلّم الجثمان.

– جثمان مَن؟ سألتُه وقلبي يكاد يقفز من محجره.

– مخلوف تومي، أجابني.

ظننتُ أن المتّصل مخطئ، وأنّ الأمر لا يعدو أكثر من حادثٍ عاديٍّ. لطالما اعتقدتُ أنّ له أرواح القطط، لا يموت بسهولة. لكنّ روحه كانت قد عانقتْ بارئها. ودوّن الطبيب في ملفّه، بعدما رآني أدخل غرفة المستشفى، أسفل تاريخ اليوم: 16 مايو 1990، أنّ زوجي مات محاطًا بعائلته. في نظره أنا كلّ عائلته.

بعدما كنتُ مجرّد امرأةٍ تحمل صفة زوجةٍ، تصطبر على الصفع والركل، بتُّ كلّ عائلته! لكن بعد موته. تسمّرتُ في مكاني، منتظرةً

وصولَ أمّي وحماتي، ومتمنّعةً عن البكاء. أنا لا أبكي أمام غيري، بل حين أختلي بنفسي. تلك الأَنَفَةُ ورثتها عن أبي.

تعلّمتُ الطِبّ وحُسن معاملة المرضى الذين أُداويهم والموتى الذين أنتزع قرنيّاتِهم، لكنّني لم أتعلّم ما يُفترَض بأرملةٍ أن تفعله بجثمان بعلها المُمدّد أمامها. حاولتُ أن أحبّه فأخفقتُ، أمّا هو، فلم يحاول. تزوّج بي مُقتديًا بالأعراف لا مُصغيًا إلى قلبه. لم أره فرِحًا بقربي سوى ليلة الدُّخلة، لعلّه انتحل الفرحَ إكرامًا لأقاربه لا لإسعادي. مسحتُ على وجه فقيدي وخشيتُ أن أُميط المُلاءة فأرى ما لا يسرّ البصر، فقد فاحت منه رائحة عفنة، ودوّن الطبيب أيضًا أنّ الضحية نزفَ أكثر ممّا يطاق، عقب التعرّض لضربةٍ أعلى النخاع الشوكي، ما جعل العنق يكاد ينفصل عن بقية الجسد، وبقر المِقود بطنه.

لا بدّ من دفنه في جبّانة مغراري، في مربّع عشيرته، حسمتُ في سرّي. لكلّ عشيرةٍ من العشائر، التي تقيم في المدينة، أمتارها المربّعة. لا تختلط إحداها بالأخرى تحت التراب. وكلّها تُحيط بمقام وليٍّ صالحٍ آتٍ من بلدة مغرار الصحراوية، كان يُصلح بين المتخاصمين، ويشفي المرضى بلُعابه، كما يُقال. وليّ يحرس الموتى ويُنعش خلوتهم في غياب ذويهم، في جبّانةٍ سمعتُ أنّ دراويش يتجمّعون فيها ويتلون القرآن ويُنشدون في محبّة الله ورسوله لمَن يدفع لهم دنانير. وعلى زاويةٍ منفردةٍ منها، قبور بلا شواهد، لمَن يطلَق عليهم الحركى أو العملاء، الذين فضّلوا الاستعمار على الاستقلال.

كيف أخبر ابنتي أنّها صارت يتيمة؟!

لقد اشتريتُ لها، من يومَيْن، ورقًا وأقلامَ تلوينٍ جديدةً كي تتسلّى، فعادتْ إليّ بهذا الرسم:

– ما هذا؟ سألتُها بعينَيْن جاحظتَيْن.

– أنتِ.

أرفقَتْ جوابها بضحكةٍ، مُنتظرةً أن أُهنّئها على رسمها. فمسحْتُ على شعرها لأنّها لم تخطئ ورسمتْني بوجهٍ بدينٍ، فهي لم تر سوى شحوم أمّها الزائدة. لم أخرج من جلدي، عندما أردفَتْ: «ماما... بقرة»، لأنّها سمعتْها من والدها، فلم أرفع يدي عليها، بل اكتفيتُ بحكّ خدّي. ذكّرتْني بعجزي عن خفض وزني وصدّقتُها. فالأطفال مثل السكارى لا يكذبون. ولم أشأ أن أعاقبها فأنتزع منها صديقتَها شيشيرة، القليلةَ المُواء، التي تُحمّمها وتسابقها في فِناء الدار. ظننتُ أنّ تلك الهرّة لن تستقرّ في البيت. خشيتُ أن تعود إلى تشرّدها وتُبادرنا بخوفٍ أو عداوةٍ، لكنّها كانت أكثر تأدّبًا منّي، كأنّها أحسّت أنّ ابنتي ستفقد أباها فأرادتْ أن تنوب عنه.

كيف أخبر مينة أنّ والدها الذي قضى طفولتَه جائعًا حافي القدمَيْن، قبل أن يصير أوّل طبيبٍ شرعيٍّ في المدينة، قد ارتقتْ

روحه إلى السماء؟ علّمتُها أنّ الله وحده يسكن السماء، فهل تصدّق أنّ مخلوف يُجاور ربّه؟ ظنّي أنّها ستتعلّم العيش من دونه.

لا بدّ أن تساعدني أمّي على إيصال الخبر إليها، مع أنّ الطفل يصدّق حواسّه لا ما يقوله الكبار، ومن حواسّ مينة أنّ والدها يعود إلى البيت كلّ مساء. وكلّ مساء أيضًا يدفّئ الجانب الأيمن من سريري، من دون أن أُفلح في فتح صنبور أسراره.

خرجتُ من جُحر تفكيري حين دخلتْ أمي وشدّتْ على يدي، من غير أن تعاتبني على تقيُّئي في مكاني، غيرَ مباليةٍ بالرائحة الحامضة المختلِطة برائحة الموت، ومن غير أن تؤنّبني بقولها: «نمصلك دمّك»، كلّما فعلتُ شيئًا لا يعجبها، فكانت أوّل مرّةٍ شعرتُ فيها بعطفها عليّ. أظنّها تمنّت موت أبي، الذي حصر عيشها في نزواته، والذي لا يعلم ما حصل، لأنّه لم يكن في البيت عندما اتصلتْ بالهاتف، وأخبرتْني أنها أودعتْ مينة بيت خالتي.

«يلزم نسرع في دفنه، قالت لي. «إكرامًا للميّت»، مثلما سمعتْ في المسجد.

وددتُ أن أخبرها أنّني لن أحتاج إلى ترصّد مخلوف، كما نصحتني. لن أقتدي بوصيّتها: «تحمّلي راجلك»، وقصدتْ أن أتحمّل مِزاجه. لقد صبرتْ هي كذلك في شبابها، وأرادتْ أن أفعل مثلها مع زوجي.

أَردتُ أن أكلّمها عن صدق أبي في تفسير منامي الذي رأيتُ فيه نفسي أحلق رأسي. قال إنّ ذلك يعني أنّني سأتخلّص من همومي، فقد كان زوجي همًّا على قلبي، لكنّه همّ لا مفرّ منه، أهون عليّ من حمل صفة أرملة. أردتُ أن أنطِق بذلك، لكنّني اكتفيتُ بالقول: «ننتظر وصول أمّه».

لا ألتقيها سوى في العيدَيْن، مذ غادرتُ بيتها إلى بيت أهلي برفقة المرحوم، لأنّني لم أُطق مَلاماتِها لي. كانت تفتّش عن كلّ ركنٍ لم أنظّفه كي تطلق لسانها بتلميحاتٍ كالفحيح: «الكنّة تجلب الغمّة». كانت تراني شغّالة لا طبيبة. أرادتْ أن أنجب ذكرًا «يملأ العين» كما قالت، لكنّني أنجبتُ أنثى. وعندما يغيب ابنها في ورديّةٍ ليليّةٍ، كانت تقطع الكهرباء في البيت، بحجّة ارتفاع الفاتورة، فأَبِيتُ على الشمع. وإذا اشتكيتُها إلى مخلوف، استمات في الدفاع عنها.

لكن عليّ أن أحتملها فقد فقدت ابنها الوحيد، مثلما فقدتْ طفلَيْن قبله في المهد، ولا أستبعد أن تجد في الأمر مبرّرًا لتأنيبي عمّا فعلتُ وعمّا لم أفعل، فهي لم ترضَ عنّي تمام الرضا زوجةً لوحيدها. فالأمّهات يعاملن كنّاتهنّ كغنائم حرب، يُردنهنّ خاضعات لا يجادلن. قد تقول لو أنّنا لم نهجر بيتها لَما مات ابنها، لو لم يتزوّج بي لَما مات، لو لم يعرفني لَما مات، لو لم أُخلق لَما مات. ستُحمّلني ما لا طاقة لي به.

رغم بلوغها السبعين من العمر لم يتعدّ لسانها سنّ الشباب. ظهرها لا يزال مستقيمًا ولم تشتكِ خللًا في البصر. ابنها كان يعتني بصحّتها وأكلها، يزورها على الدوام أو يحادثها في التلفون، ولا يفوّت عيد ميلادها، ولا أظنّها ترضى بالتبرّع بقرنيّتَيْه.

لم تفارق يد أمّي كتفي وهي تربّت عليها. كنتُ أصغي من غير انتباهٍ إلى جلَبة ممرّضين خارج الغرفة، كأنّهم في حمّامٍ عامٍّ، كما لو أنّ الموت لا يعني شيئًا لهم. فالمستشفى مأوى الموتى وقد أَلِفوا رؤية أرامل وثكالى، مثلما أَلِفوا رؤية نساءٍ مفجوعاتٍ باختفاء رضّعهنّ حال الولادة، فلم تعد الوجوه الدامعة تثير شيئًا في قلوبهم.

لم يتقدّم أحد من الممرّضين إليّ معزّيًا، وظنّي أنّهم فرحوا بمصيبتي. إلى أن دخل رجل بعينَيْن فاتحتَي اللون، قصير القامة مثل

شارلي شابلن، ترتفع حدَبة تبغ تحت شفته العليا، وعرّفني بنفسه: إدريس بادة، مفتّش الشرطة.

أخبرني أنّ سيّارة زوجي انقلبتْ في مكانٍ ليس من العادة أن تقع فيه حوادث: في منعطفٍ لكنّه ليس خطِرًا، يتّسع لما يكفي من المركبات.

واستسمحني أن يُنزل الجثّة إلى المشرحة، قصد أن يفحصها طبيب، جاء من بلدةٍ مجاورةٍ: ثم نرخّص لكم الدفن.

فهمتُ مقصده؛ يودّ أن يعرف إن ساق مخلوف سيّارته ثملًا أو بعد ابتلاع قرصٍ مُهلوس!

«لن يطول الأمر»، أضاف.

نظرتُ إليه بعينَيْن تُغالبان الدمع، وأنا أضغط عنقي بيدي، متمنّيةً أنّني أعيش في بلاد العجائب وأنّ ما يحصل ليس سوى منامٍ مثلما حصل مع أليس، فأصحو منه وأعود إلى سالف عهدي، أرضى بتقلّبات مخلوف على أن أسمع خبر موته.

قمتُ من مكاني على السرير كي أسمح له بنقل الجثمان إلى التشريح. وليتني لم أفعل، اتقاءً للمصيبة، فلا يكتشف سبب الحادث، ولا أصير محلّ شبهة. لكن فات الأوان، حين دخلتْ حماتي تنوح وتلطم صدرها، وهي تسير نحوي بعينَيْن محمرّتَيْن مثل نار جهنّم، كمَن ينوي معاقبتي.

* * *

موت مخلوف أدخلها في شرود.

– موت المقرّبين يسلبنا قبسًا من نور الحياة، علّقَتْ.

أراد المحقّق أن يسمع منها أمورًا سلبها منها موت زوجها:

– من بينها أنّ ابنتي تيتّمت.

لا بدّ أن تعود إليها كلّ مرّة... تمتم.

– هل تعرف ماذا يعني أن تتيتّم طفلة في الرابعة من عمرها؟

بحكم أنّه لا أولاد له، فقد عجز عن تخمين الإجابة.

– غياب والدها سيُفقدها نِصفَ شغفها بالعيش، أضافت.

فهِمَ أنّها تسعى إلى استغلال ابنتها. تتكلّم عنها من أجل استعطاف قلبه، لكنّه لم يساير شجنَها.

– لماذا على ابنتي أن تكبر في غياب أمّها أيضًا؟ سألتْه فاغرةً فمها.

– أنتِ أدرى منّي بالجواب.

– ماذا فعلتُ كي تفصِلني عنها؟

– في كلّ مرّة أزداد قناعةً بأنكِ تصلُحين ممثّلة.

ظنّتْ أنّه يهزأ بها، واستأنف لطم ساعة يده.

– إن تزوّجتَ وأنجبتَ فستفهم كلامي، ردّتْ عليه.

هو لا يفهم سوى منطق القانون وأنّ أمامه امرأة مشتبهًا بها. ثم عاد إلى مساءلتها عمّا تغيّر في عيادتها:

– لم يتغيّر شيء، ليس في المدينة كفايتها من الأطباء، والمرضى في تزايد.

الكثير من الأطباء انتقلوا إلى مدن الشمال وآخرون إلى فرنسا، طمعًا في رواتب أعلى.

– لكنّ حياتكِ ستتغيّر. ختم قوله.

12

قال أحدهم إنّ مخلوف تهوّر في السياقة. وجزم آخر أنّ الإسعاف تأخّر في الوصول، وثالث ادّعى أنّ سيّارته كان بها عطب. هكذا واساني جيراني. إنّهم لا يفرّقون بين فرحٍ وجِنازةٍ؛ يصافحونني وهم يرتدون ثيابًا بألوانٍ زاهيةٍ وبعضهم يعتمرون قبّعاتٍ، كمَن ينوي الذهاب إلى حفلة، كأنّهم يُهنّئونني بفقدان زوجي أو مسرورون بأنّ الموت أمهلهم وأخذ روحه بدلًا منهم. ينظرون إليّ بوجوهٍ لا يغشاها دمع، ثمّ ينصرفون إلى ثرثرةٍ مع بعضهم البعض وتناول القهوة. يُلقون كلماتِ عزاء في الهواء تخترق طبلتَي أذنيّ، من دون أن تحرّك صخرة قلبي من شدّة شعوري بالنُّعاس، من جراء الأقراص المهدِّئة التي ابتلعتُها.

أشعروني كما لو أنّهم متضامنون معي فحسب، مثلما يتضامنون مع مَن خسر في قمار. أليست الحياة قمارًا؟ إذا كانت كذلك فإنّ مقعدي في دكّة الخسران. لأنّني أنجبتُ بنتًا من غير أن أعلم أيّ مصيرٍ يترقّبها، فكنتُ مُقامِرة. بينما إمام الحيّ، الذي يشتم الحكومة كلّ جمعةٍ، «إلى أن تكرمه بزيادة في الراتب»، كما يظنّ أبي، فقد لاطفني: «زوجكِ لاقى حسن خاتمة».

وددتُ أن أخبر المعزّين أنّني بحاجةٍ إلى حضن، لكنّ لساني أصابه خدر. الحضن أصدق لغات العزاء. يُشعرنا بأنّنا ماضون في زُقاق الحياة وأنّ الغمّ ليس مقيمًا. الحضن يجفّف الحزن ويخفّف من أعطاب القلب. حُرمتُ أحضان الآخرين ونعمتُ بحضن مينة، التي دسّت رأسها في صدري وهي تمدّ ذراعَيْها الصغيرتَيْن معانِقةً إياي، ثمّ سألتني:

– يمّا، واش بيك؟

فتظاهرتُ بألمٍ في رأسي.

– أنا ثاني يوجعني رأسي وما نبكيش.

تردّ عليّ وأُخفي عنها أنّها صارت يتيمة، فتربّت على شعري كأنّني دميتها وهي أمّ لي:

– وين يوجعك رأسك؟

– خلاص. ماراهش يوجع.

كيف أُبلغكِ يا مينة أنّنا حصّالتا خَسارات؟ لم أعثر على إجابةٍ، فأودعَتْها أمّي بيت خالتي إلى أن أتممنا الدفن والعزاء.

ألقيتُ نظرةً أخيرة على الفقيد، بعدما تلا على رأسه شيخان، يعتمران عمامتَيْن صفراوَيْن، آياتٍ من القرآن. ثم جلستُ في غرفةٍ أتوسّط نساءً. تَصلّب وجهي وشعرتُ بعجزٍ عن تحريك أطرافي. ظللتُ أنظر من حولي شاردةً من غير أن أرى شيئًا. شرعتُ أسأل أين أنا وماذا أفعل في هذا المكان، قبل أن تصفعني أمّي ثمّ تلقي عليّ كوبَ ماء فأستعيد رُشدي، من دون أن أعرف هل كنتُ حزينة لأجل زوجي أم بسبب ترمّلي! ثمّ حمل النعشَ أربعةُ رجالٍ إلى جبّانة مغراري وتبِعهم مُشيّعون، فواروا جثمان مخلوف جنب والده. وحالما عادوا من دفنه ألحّ عليّ سؤال: هل أغيّر اسمي؟ أعود كما كنتُ عقيلة خالدي بدلًا مِن عقيلة تومي!

في الليل، دخلتُ غرفتي كمن يدخل حقل أطلال. وقد تسلّلتْ إليها، من النافذة، حشرات طائرة وأخرى زاحفة. لم أعد مرغمةً على إطفاء نورها فلا أحد سيراني عارية، بل عليّ أن أنظّفها وأعيد طليها، مثلما رأيتُ الأرامل يفعلنَ في مسلسلات التلفزيون.

انشطرتْ حياتي نِصفَيْن: ما قبل 16 مايو وما بعده، ما قبل رحيل مخلوف وما بعده. وتطلّعتُ إلى كتبٍ معبّأةٍ في كَرتونةٍ، اشتريتُها بالكيلوغرام لا بحسب أهمية العُنوان، وفكّرتُ في أن أُرتّبها جنب السرير. لن يتأفّف أحد من اهتمامي بالكتب أكثر من اهتمامي

بتقليم أظافري، مثلما كان يفعل المرحوم. ولا سيما حين انهمكتُ في المطالعة في أشهُر حَملي، التي صاحبني فيها غثيان. كنت أتقيّأ وهو يعاتبني: «اللي تقرأ بزّاف، تتوجّع بزّاف»، فلم أجادله. لم تكن سوى كتب طبٍّ وثقافةٍ عامّةٍ وحكايات أطفالٍ، مع رواياتٍ بالعربيّة وأخرى بالفرنسية ودواوين شعرٍ، من زمنٍ كان فيه التلفزيون لا يُظهر أطبّاء إلّا بكتبٍ مَن خلفهم، فساورني شعور بأنّ الطبيبة يتحتّم عليها أن تكون مثل الأوّلين؛ تفقه علوم النجوم والأطيار والبراكين.

ارتاح زوجي في مرقده، وظللتُ أتقلّب في فراشي. عضضتُ شفتي السفلى من دون أن أكفّ عن الدمع، من غير أن أسمع شيئًا عدا أنفاسي. رغبتُ في نتف شعر رأسي مثل مَن تنتف همّها، وحككتُ جبهتي كمَن تودّ محو ذاكرتها. أغمضتُ جَفنيَّ دقيقةً أو دقيقتَيْن، على أمل أن أفتحهما فأراه قد عاد إليّ صارخًا مثل عادته: «وين سروالي؟... اغسلي... أغلقي فمكِ... بنتكِ تبكي... ارفعي... أخرجي...»، لكنّني لم أر سوى طيفه.

لعلّ ربّي يُبدلني زوجًا آخر في الجنّة، دعوتُ.

في الصباح التالي، بلّلتُ وجهي في حوض الغسيل، كي أخفي دموعي. لبستُ الأسود من غير أن أكترث لكلام أمّي: «الأسود لون الشر».

أيّ شرٍّ أكبر من أن تتيتّم مينة؟

جلستُ في استقبال معزّين آخرين، يصافحونني أو يقبّلون وجنتَيّ، ثم ينصرفون إلى أحاديثهم. منهم مَن يذكر الميّت بخيرٍ ومنهم مَن يرأف بحالي، وأنا أردّ على تعازيهم بإيماءاتٍ من رأسي، من غير أن أنطِق بكلمة. مَن مات زوجها فلن يتزوّجها آخر، هكذا اتّفق الناس. ستصير مشؤومة، سيقولون في سرّهم إنّ زوجي ملاك وأنا

شيطان. لا أحد يعلم كم كنتُ مُطيعة له، أنني تردّدتُ في انتقامي منه، عسى أن يغيّر مشاعره نحوي، لكنّه لم يفعل.

خالتي قالت إنّها ستنسج زربيّةً وتُهديها إلى عائلةٍ فقيرةٍ «صدَقةً على روحه». أما أنا، فسأتبرّع بثيّابه. ولا يحقّ لي أن أرث سوى 1/8 من تركته، كما أوصى الإمام. لو متّ أنا لكان سيرث ضِعف ذلك. ميراثه في حوزة حماتي، جعل منها بنكًا له وأنا سلّة مهمَلات، وقد حلّت ببيتنا للعزاء، من غير أن تكلّم النسوة الأخريات، مستسلمةً لحزنها. ونوت أن تُطعم ستين مِسكينًا.

«هكذا ربّي يفتح له باب الجنّة»، قالت.

لا تتذكّرين الفقراء إلّا إذا رغبتِ في منفعةٍ من الله... كتمتُ كلامي.

وشاءت أن تحظى بزيارة حفيدتها مرّة في الأسبوع. فهززتُ رأسي موافقةً، وأنا أسحبُ شفتي السفلى إلى الأمام بإصبعَيّ. أبهجَها أنّني أنصاع لكلامها، وأنّ فقيدها خلّف ابنةً تُقاسِمها الاسمَ وتؤنس وحشتَها. ولعلّها تظنّ، مثل أخرياتٍ، أنّني كنت نذير نحسٍ على مخلوف.

ثمّ حلّ زملائي. سالي صافحتْني مواسيةً، لكنّ قلبي يصرّ على أنّها مسرورة بما جرى؛ صرنا متساويتَيْن، وحيدتَيْن. بل هي أفضل حالًا منّي؛ لا تحمل في صدرها ثِقَل أن تبلّغ طفلة في الرابعة أنّ والدها قد مات. ماذا يعني الموت عند الأطفال؟ من المحتمل ألّا تحزن مينة، فهي أكثر قربًا إلى أمّي، التي لا تزال إلى جوارها. وأجّلتُ مفاتحة سالي بما طلبتْه منّي ريمة.

ثمّ دلف إلى الصالون الدكتور قدور جندال، بوجهه الطويل مثل شارل ديغول. لم أتصوّر أن يأتي، وهو الذي يتفاداني كلّما قابلني في الخارج. يشقّ طريقه في الحياة بزرع نمائمَ بأنّني أمارس شعوذةً

في معالجة مرضاي، وأنّني لم أُنهِ دراستي بل حُزت شهادتي بواسطة. أراد مقابلة بودو والظهور في التلفزيون، لكنّ رئيس البلدية فضّلني عليه لقاء تزكيةٍ من نِقابة الأطباء. لم ينضمّ قدور إلى النقابة، مثلما لم ينضمّ إلى حملة أخيه المكنّى «رأس الضفدع»، الذي ترشّح لانتخابات البلديّة. إذ لا يثق في النقابات ولا الأحـزاب، وهـو مُكتفٍ بعمله في عيادته.

مدّ ساعده المكسوّ بشعرٍ، وصافحني بالضغط على يدي، وهو يخفض بصره كمَن يشعر بـوزر أنّني صرتُ أرملة، فأحسستُ لوهلةٍ بقربٍ نحوه. صفحتُ عن كلّ ما فعله بي وتمنّيتُ لو أنّنا صديقانِ حميمان. لم يـزر الموت بيته، بل يعيش في مسرّةٍ رفقة زوجتَيْه الاثنتَيْن، مع أبنائه منهما.

«إذا احتجتِ إلى أيِّ شيء فأنا في الخدمة».

كم هو مقيت أن يُشعرك الآخرون بأنّه لا حول لك ولا قوة. مع أنّني استلطفتُ رقّته، معدِّلةً صوتي كي لا أظهر مثيرةً للرأفة، إلّا أنّه لا أحد بوسعه تلبية ما أحتاج إليه. إذ سيكتبون في بطاقة ابنتي في الروضة «يتيمة» مكان اسم الأب. صار متاحًا لها أن تـزور جمعية الأيتام، التي ترأسها هذه السيدة، التي تصبغ شعرها بالحِنّاء، وكانت الوحيدة التي عزّتْني في مُصابي بكلماتٍ تغرق في الدموع: «كان سخيًّا في تبرّعاته»، هكذا مدحتْ أرملي.

تـبـرّع لإيـواء أيـتـامٍ إلـى أن يـتـدبّـروا أمـورهـم، وقصـد إقناع الميسورين بتبنّي الرضّع الذين تتخلّى عنهم أمّهاتهم. لم تعلم أنّ سخاءه مردّه القرنيّات التي اقتلعتُها من موتى، كما لم تعلم أنّ مخلوف نوى هجر تلك الجمعية.

«كـان يشتري أدواتٍ مدرسية للأطـفـال... ملابـس العيد... ويتكفّل بحفلات ختان». وبعدما فارق دُنياه، ليس للجمعيّة نصير غيره.

«أنقذ أطفالًا من الشارع»، أردفتْ.

لقد كان يُكرم أطفال الحيّ كذلك، ولا سيّما تلك الفتاة التي تعاني متلازمةَ داون، التي داوم على دسّ قطعٍ نقديةٍ في جيبها، فتشتري بها حلوى أو بالونات.

أصغيْتُ إليها بقلبٍ يتفتّت، وهي تُثني على المرحوم. فالناس يحفظون حسناتِ الموتى لا سيّئاتِهم، ثمّ خرجَتْ بخطى متثاقلةٍ، بعدما اعتذرتْ من إلحاح أبي أن تجلس إلى فنجان قهوةٍ، وقد انشرح وجهه منذ زيارته العاصمة.

ثم دخل رجل فشعرتُ بأنّني دخلتُ قبري. أحسستُ بأنّ الدم زال من شرايين يدي، ودهمتْني صعوبة في التنفس. راودني أنّ فضيحة ستهزّ المكان وسوف تتحوّل الجِنازة إلى جِنازتَيْن.

وقف ثامر أمامي، ممسكًا ذراعه اليسرى بيده اليمنى، وأبي يرشقني بنظراتٍ كأنّه يسألني: مَن يكون؟

* * *

يصرّ جمال درقين على أنّ شخصًا آخر ساعدها على ما خطّطتْ له.

– لماذا تُلحُّ في سؤالك عن ميلود؟

لم يقتنع عندما دافعت عن شقيقها قائلةً: لا يشاركني شيئًا عن حياته.

– ولا يفكّر في شيءٍ يُحزن أخته، أضافت.

محدّثها حقّق في قضايا ورّط فيها أشخاصٌ أخواتهم. فحين يقترف الإنسان جرمًا يمحو من باله رباطَ الدم.

– لستُ أعلم ماذا يفعل خارج العمل، سوى أنّه يتردّد على مقهى، يُكثر من السكّر في القهوة، ويحبّ المشيَ أو التخييمَ في جبل، كلّما أُتيحت له فرصة.

لكن تهمّه علاقة أخيها بمخلوف.

– لقد أودع شكوى ضدّه، قال.

– ثم سحبها، كما أخبرتُكَ.

أعاد لطم الآلة الكاتبة، بلا جدوى. واستطردت عقيلة كمَن تحدّث نفسها:

– لا يجيد الكلام لكنّه يجيد الإنصات.

– ...

– إنّه شقيقي الأكبر. يحقّ له أن يتدخّل في شأني، أمّا أنا، فلا. تلك هي الأعراف. مع أنّه لم يتدخّل في أموري قطّ.

حين بحث في ملفّ عائلتها، وجد أنّ شقيقها قد سبق له أن دخل السجن.

– لكنّه خرج منه ببراءة. لماذا تودّ توريطه؟

– لماذا تظنّين أنّني أنوي توريطه؟

– لأنّه دخل السجن فلا بدّ أن يكون مذنبًا، هكذا تفكّر؟

وسألتْه عن شكواها ضدّ جيرانها في العيادة، من جراء السرقات التي تعرّضت لها.

– طالعتُ شكواكِ!

– حقّقتَ معهم؟

– لا شاهد لديكِ.

– إفادتي ليست كافية؟

لم يردّ على استفسارها، مواصلًا محاصرتها بالأسئلة. مترقّبًا أن ينفَد مخزون أكاذيبها، كما يظنّ، وتُقرّ بالحقيقة. فقد تعلّم أنّ إحداث صدمةٍ في قلب المشتبه به، من شأنها أن تُحيله على اعتراف. فتح دُرج مكتبه ثمّ عرض عليها صورة، فانتفضت نبرة صوتها، وارتجفت شفتها السفلى.

– ما هذه الصورة؟

– ...

– لماذا تُظهرها أمامي؟

– ...

– تودّ إخافتي بإظهار صورة زوجي ميّتًا؟

بقي يحدّق إليها من غير أن ينطق.

– أليس من واجبكَ أن تترحّم عليه وتُخفي هذه الصورة؟

– أليس من واجبكِ إبلاغي الحقيقة؟

خفضتْ رأسها ولحظ اضطراب يديها، قبل أن ترفع بصرها وهي تعضّ شفتها السفلى:

– أمتنع عن مواصلة الكلام، ختمَتْ.

13

لم يرزقني ربّي صديقات أو أصدقاء، أُسرّ لهم بحسناتي ومساوئي. أرجو أن ينوب عنهم شقيقي، الذي دنا منّي، وأنا أجلس في صالون البيت، بخطواتٍ متأنّيةٍ كمَن يسير بقدمَيْن من طين، مرتديًا بنطلونًا وقميصًا لم يغيّرهما منذ زمن، فهو لا يطلّ سوى بملابسَ بسيطةٍ كأنّه بطّال لا ممرّض. حرّك شفتَيْه راغبًا في قول شيءٍ من غير أن ينطِق، وحدّثْني عيناه عن حسرةٍ تملأ قلبَه. جلس جنبي على الأريكة، فلمحتُ عينَيْه اللتَيْن داومتا الأرق، مع هالاتٍ سوداءَ تحتهما. لم أدرِ هل أكتفي بتعازيه الصامتة أم أعزّيه أنا أيضًا في زوجي؟ لا بدّ أنّ شقيقي حزين على فراق شخصٍ عرفه وخالطه.

أرجو أن يصيّرني صديقة له، أُفضي له بما في قلبي، فصداقاتي مع غيري كانت من زجاجٍ؛ نسوة يدخلن في حياتي ثم ينصرفن مثل شُهب. بعضهنّ يُرِدْنَني واسعة القلب، لكنّ قلبي ضيّق ورثته عن أمّي. وأخريات لا يطول بهنّ الحال ليَملللن من فشلي في ستر الأسرار. لساني لم يفتأ يعاقبني بتفريخ العداوات، وقدري أن أعيش وحيدةً متّكلةً على نفسي. قال لي أبي مرّة: «كثرة الأصحاب تخليكِ بلا صاحب»، فتعلّمتُ مصاحبةَ نفسي.

عندما افتتحتُ عيادتي وظّفتُ ممرّضة شابّة، فالممرّضات يعاملن المرضى أفضل من الممرّضين، أو هكذا أقنعتُ نفسي. قبل أن يُزجّ بشقيقي في السجن إثر شكوى تقدّم بها شخص، استأصل كُليَته للتبرّع بها إلى أمّه، فالناس لا يتبرّعون لغير أمّهاتهم، وادّعى أنّ ميلود سرقها. في البدء وجّه ذلك الشخص تهمته إلى الجرّاح. لكنّ الأخير، بحكم قرابته من مدير المستشفى، أفلح في إلصاق الأمر بشقيقي، فقضى ستّة أشهرٍ مع محكومٍ عليهم في قضايا قتلٍ أو اغتصابٍ، أو في

تجارة مخدّراتٍ أو سرقة سيّارات. لم تكن نِقابة الأطباء قد تأسّستْ فتسمع شكواه وتدافع عنه.

وفي اليوم الذي أُنتخب فيه الشاذلي بن جديد رئيسًا للمرّة الثالثة، أُفرج عن ميلود بعدم ثبوت دليلٍ ضدّه. فعاد إلى البيت بوجهٍ وقورٍ، متخلّيًا عن بذاءة نُكته، ومتوقّفًا عن مصّ السجائر، التي أدمنها منذ الثانية عشرة من عمره. كما فُصل من المستشفى الذي يعامل الممرّضين كعمّال السُّخرة. تزوّجتْ تلك الممرّضة، استقالت وانشغلت بإنجاب طِفلَيْن قبل أن تُطلَّق. فوظّفتُ ميلود مكانها وقررتُ أن أتيح له شهرًا لأمتحن شطارتَه وتعفّفَه عن مغازلة المريضات، فجعلني أتخلّى عن فكرة تغييره بأخرى. إنّه يلجم لسانه إلّا إذا سُئل في أمرٍ، وإن أجاب يكتفي بالقليل من الكلمات. لا يتوانى في مساعدة جيران الحيّ، من قياس ضغط دم مريضٍ أو إعطاء حُقنةٍ لآخر. يصاحب رفاقًا يعرفهم منذ الطفولة ولم يغيّرهم.

رغبتُ في سؤاله إن عرف حجّة زيارة أبي للعاصمة، لكنّ الجوّ لم يكن ملائمًا. كما أنّ أبي لم يفِ بوعده فيخبرني عن المفاجأة التي حدّثني عنها، وأنا لم أصرّ. هكذا هو أبي، علّمته حرب التحرير الكتمان. فقد كان على بُعد خُطوةٍ من المِقصلة لو أنّ المُستعمرين اكتشفوا أمره في الخمسينيات، عندما حوّل حوش البيت إلى ورشة سلاحٍ، كما حكى لي ذات مرّة.

عاش أبي حياة في الظلّ ولم يشأ أن يخرج إلى النور في المِهرجانات القوميّة. ومثله شقيقي يبدو صموتًا، يخشى حياة البوح، لكنّني في قربه أشعر بأمانٍ؛ كان يعطف عليّ في صِغري ولا يزال.

«لا تخطئ شقيقتي حين تصفني بالصَموت، ويسرّني أن تقرّ بأنّني عطفت عليها في صِغرها. سألتْني: «هل زرتَ العيادةَ، يا

ميلود؟»، تودّ أن تعرف إن زرتُها في غيابها، كأنّها اشتاقتْ إليها... وحنّتْ إلى مرضاها. فأعلمتُها أنّني علّقت ورقةً على بابها، تفيد بغيابها «إثر وفاة زوجها»، وأشرتُ فيها إلى عنوان بيتنا لمَن يودّ أداء العزاء.

– أرجو أن تقوَي على العودة إلى حياتكِ السالفة.

خاطبتُها فردّتْ عليّ بعينَيْن تائهتَيْن:

– ربّي يفرّج.

ولزمَتْ الصمت حينًا، ثم عرضتْ عليّ فِنجان قهوة، فتغاضيتُ عن الاستجابة. مثلما تتغاضى عندما أغيب في ساعات الدوام، في مشاغل على عجل، ثمّ أعود إلى عملي. أنا وعقيلة نتواطأ على حفظ مَسافةٍ تفصل بيننا، فهي التي تدفع راتبي وأنا موظّف عندها، «والعين ما تعلو على الحاجب». سوف يخفّ كرمها نحوي، إذ لن تزرع قرنيّاتٍ مرّة أخرى، لكن يحصل أن تعرِض عليّ أيّام راحةٍ فأصرّ على العمل. بدوري أصرّ على مواساتها وهي متحصّنة في شرودها، تفكّر في فقيدها».

أريد أن يخبرني ميلود ما دار بينه وبين فقيدي من كلامٍ، في أيّامه الأخيرة. أن يصارحني إن كان للراحل امرأة أخرى تُطمئِنه إلى أنّ عشب رجولته أخضر وليس يابسًا، فالرجال يتقاسمون أسرارهم بلا خجلٍ، عكس النساء اللواتي يلبَسن قناع العفّة. كيف أقنع لسانه بالإفصاح من دون أن يشعر بأنّني أتلصّص على حياة ميّت؟ هو يعلم أنّ مخلوف كان يُفرغ دلو غضبه بإدماء أنفي أو البصق في وجهي. كان يعاملني مثل وباءٍ، وأودّ أن أعرف ما خفيَ عنّي في حياة زوجي.

من المرجّح أن يُضمر ميلود ما يعرفه صونًا لحرمة الراحل. ومثلما دبّرتُ خطّة، أنوي أن أُقنع بها بودو بمشروع كُليّة طبٍّ،

يتحتّم عليّ تدبير خطّةٍ تجعلني أستلّ من لسان شقيقي ما يعرفه، من دون مواربة. قد أعرض عليه راتبًا أكبر أو أعرّفه إلى إحدى اللواتي أفحصهنّ فتملأ عينَيْه وتُخرجه من عزوبته، فيشعر بأنّني أسديتُ خدمةً له ويُفشي ما يُضمره في صدره. هذا ما جال في خاطري وأنا أحكّ قرصة بعُوضةٍ أصابتني في اليوم السابق، حين دلفتْ فتاة تتدثّر بمِلحفة، تُخاط من قِطعة قماشٍ واحدةٍ، تستُر الجسم من الرأس إلى الكاحل، وقد فاح منها عطر ياسَمينٍ، ولم يظهر من بدنها سوى جبهتها البيضاء، مع عينَيْن بنيّتَيْن لامعتَيْن.

ظننتُ أنّها إحدى اللواتي سمعن بما وقع، فجاءتْ تُقدّم العزاء وهي تكرّر: «الله يعينك».

لقد وقعت الفأس على الرأس... أجبتُها في قلبي.

جلستْ بالقرب منّي وهي تردّد أدعيةً، بلكنةٍ قَرويّةٍ، وأنا أكرّر خلفها: «آمين». بدتْ لي أكثر حزنًا منّي. كأنّها فقدتْ أحدًا من أهلها. ظننتُ أنّ ما تفعله ليس سوى تمثيليةٍ قبل أن تطلب منّي مالًا، كما تفعل نِسوة هذه الأيّام، بحجّة تضاعُف الأسعار. أو أنّها تعلم أنّني طبيبة عيون فتطلب منّي فحوصاتِ بالمجّان، أو تعرف أنّني كنت أتدبّر قرنيّاتٍ فتطلب منّي واحدة.

أزحتُ نظري عنها وسألتُ شقيقي إن ذهب إلى العيادة مشيًا أم بسيارة أُجرة. أعلم أنّه سؤال عقيم لن يُفضي إلى حديثٍ آخر، لكنّني لم أعرف كيف أصرف نظري عن تلك المُتلحّفة التي مكثتْ جنبي. أجابني أنّه استقلّ سيارة أُجرةٍ، فسألتْني تلك المعزّية عن حال ابنتي: «بخير».

ماذا بمقدوري أن أقول أكثر من ذلك. إنّها تأكل وتنام في بيت خالتي، وتعلم أنّ شيئًا وقع. قالت لها أمي إنّ مخلوف قد رفرف إلى السماء، فتساءلت مينة إن كانوا يبيعون بوظة حيثما ذهب، وإن كان

هناك محلّ يشتري منه لُعبًا لها، فردّت أمّي بالإيجاب وهي تمشّط شعرها. «أنتِ بنتي أنا» قالتْ لها أمّي، وظنّي أنّها جادّة في كلامها. تودّ تربيتَها كما تشاء لأنّها عجزت عن تربيتي!

براءة ابنتي جعلتْني أخجل من نفسي؛ أنّني لم أفِها حقَّها، وقرّرتُ أن أكرّس وقتًا لها أكثر ممّا سلف. قبل أن تُمسك تلك الفتاة بذراعي؛ لم يكفِها الكلام بل بادرت إلى مدّ يدها: «الله يعوّض عليكِ».

تنهّدَتْ بنبرة صوتٍ ليست غريبة عنّي، فقدّرتُ أنّها من المنخرطات في نِقابة الأطباء، أو أنّني التقيتُها في دورات الوقاية من الأوبئة أو الأمراض المُعدية.

وددتُ تجاهل ثرثرتها، حين باغتتْني، بعدما استأذن ميلود للانصراف، بإماطة المِلحفة عن وجهها. كانت ريمة، التي قصدَتْ عيادتي، كي أرافقها في زيارة سالي، مثلما وعدتُها. وجدتْ بابها موصدًا، وعلمتْ عُنواني من الورقة التي علّقها شقيقي. تمنّيتُ أنّه لم ينصرف فأعرّفه إليها. فقد سرّتني رؤيتها، وهي تتدثّر بمِلحفة تخفي ثوبَها القصير، احترامًا لحرمة الموتى، فابتسمْتُ كاشفةً عن أسناني كبلهاء، متناسيةً أنّني في مأتم.

أخبرتْني، بصوتٍ خافتٍ كمَن يبوح بسرٍّ أنّها نجت من الموت، في اليوم الذي التقيتُها فيه آخر مرّة: «ملثّمون هجموا في الليل على دار بابا ياقوت».

ركضتْ ريمة نصف ساعة مبتعدةً عن المعتدين، محتميةً بحلّاقة نساء. تعاطفتُ معها، وأسرف أبي في التحديق إليها، وهي كذلك بادلتْه نظرةً صامتة. هل يعرف أحدهما الآخر؟

* * *

عاد جمال درقين إلى مقعده، بعدما أتاح لها الاختلاءَ بنفسها. وراح يلطم من جديد الآلةَ الكاتبة التي توقّفتْ عن العمل.

– شعرْتُ بتوتّر، قالت.

صورة مخلوف أعادت إلى بالها أشباحًا أخفقت في التخلّص منها.

– يمكنكَ استئناف الأسئلة إذا أردتَ.

هو أيضًا باغتتْه ردّة فعلها، وقد خالها أقوى من أن تنهار إزاء صورة.

– صرفتُ قوتي في ترويض مشاعر زوجي وانهزمْتُ.

لكنّ لسانكِ لا يودّ أن ينهزم... تمتم.

ثمّ سألها كم طال مكوثها في البيت عقب موت زوجها.

– يدوم حِداد المرأة أربعين يومًا، كما تقتضيه الأعراف، أمّا أنا، فسيطول حِدادي.

ذكرى الميّت لا تزال عالقة في بالها.

– كم بقيتِ في البيت عقب وفاته؟ كرّرَ كلامه.

– أسبوعًا، ثُمّ عدتُ إلى عملي.

ازداد حزنها حين علمتْ أنّ حادث السير، الذي أودى بحياة مخلوف، لم يكن حدثًا عارضًا بل مفتعَلًا، سبّبه أمر آخر. وصارت تسمع صوت فقيدها يتردّد في أُذنيها في كلّ حين. مع ذلك لم تزر قبره، مستسلمةً لتطيّرها من المقابر.

– أعرف أنّ الأرامل يذهبن إلى المقبرة كلّ جمعة.

تذكّرتْ ما حكتْه لها جارتها نوسة، عن أراملَ ينمن جنب قبور بعولهنّ ثلاث ليالٍ، عقب الدفن، قصد مرافقة أرواحهم إلى السماء.

فردّت:

– لكنّني سأزور قبره في المستقبل.

نبّهها أنّ الأمور لن تسير كما تفكّر.

– لن يكون مستقبلي كما أتمنّاه؟!

– ...

– لماذا؟

إذا ثبتت التهمة، فمن المحتمل أن تصل عقوبتها إلى الإعدام:

– رميًا بالرصاص، كما يقول القانون، علّق المحقّق.

– لكن لا دليل لك ضدّي!

بادرها بما جعلها تطلب ماءً مرّة أخرى:

– بل أمتلك شيئًا ضدّكِ.

14

مرّ أسبوع على وفاة زوجي، فعدتُ إلى عيادتي، وتجمّد الدم في ساقيّ.

اختفت صورتي مع مخلوف التي كنتُ أخفيها من وقتٍ لآخَر في الـدُّرج. فيما لم تغادر صورةُ أبي، محتضنًا ابنتي، مكانها على المِنضدة. لا أحد يملك مِفتاحًا ثانيًا عدا ميلود، الذي قطّب جبهته عندما علم بالأمر، حائرًا وهو يشدّ جلدةَ عنقه بين إصبعَيْه. لو نوى شقيقي سرقتي لكان بمقدوره سرقة أشياءَ أثمن من تلك الصورة؛ كأن ينهب العتاد ويبيعه أو الأثاث. فمَن عساه الفاعل؟

تسمّرتُ في مكاني دقيقةً أو دقيقتَيْن، أستغفر وأتعوّذ باللّه، قبل أن يُهرع ميلود إلى التلفون عقب رنّته الأولى. حدّد موعِدًا لمريض بجملةٍ مقتضَبةٍ، وواصل شغله من غير أن يزوّدني بالجريدة: «توقّفت عن الصدور»، قال.

مثلما توقّفت جرائد أخرى ناطقة بالفرنسيّة عن الصدور. وأعلمني أنّه جهّز معلوماتٍ أخرى بوسعها إقناع صحافي التلفزيون بمشروعي، ثمّ راح يطوف بين أرجاء العيادة المكوّنة من رَدهةٍ وثلاث غرفٍ، ومطبخٍ وحمّام.

نصب ميلود مِنضدةً في الرَدهة للاستقبال، فيما ينتظر الرجال أدوارهـم في الغرفة الأولى، في سكون الحيارى، يبرمون شواربهم بأصابعهم وهـم يتثاءبون. في وسطها طاولة خشبية فُرشت عليها مجلّات قصدَ التسلية، وعلى حائطها سهم يشير إلى القِبلة لمَن يريد الصلاة. الغرفة الثانية للنساء، يثرثرن فيها عن مطابخهنّ وأزواجهنّ، عن بناتهنّ وأبنائهنّ، أو يشكون فيها همومهنّ إلى بعضهن البعض وهـنّ ينشُشنَ الـذباب. أما الغرفة الثالثة الملتصقة بها، فهي لي، مجهّزة بعتادي، يعرِض فيها مرضاي آلامهم، وأطلّ من نافذتها على

حديقة الأطفال التي لا تزال مسوّجة ولم تنته الأشغال فيها. إلى جانبها عشّاب، عندما سألتُه إن رأى شخصًا يتسلّل من بلكونة عيادتي ويسرق أغراضي، نفى علمه بالأمر. وعرض عليّ أعشابًا لا تُحصى كالحبق، الحرمل، القرّاص، إكليل الجبل، فامتنعت. «يودّ سحب البِساط من تحت أرجل الصيادلة»، خمّنت. بالقرب منه مسجد شُيّد بأموال متبرّعين، يليه مقهى لا يتغيّر الجالسون إلى كراسيه التي لا مسند لها؛ من مسنّين تساقطت أسنانهم وتقاعدوا من عملهم، يتعقّبون النساء بأعينهم ويتكلّمون في ما بينهم بنبرةٍ خافتةٍ، ويجاورهم شبّان يحلُمون بزواجٍ بمغتربةٍ أو مرفَّهةٍ، بعدما أعيتْهم البِطالة.

كان وقع خُطواتي على بَلاط العيادة، بحذائي الجلدي ذي الكعب المنخفض، خفيفًا لكنّه مسموع، من شدّة صمت المكان؛ فالمرضى لم يصلوا.

عقب اختفاء الصورة، شعرتُ بأنّ جسدي منهَك. ارتخت يداي وخالجني شعور بأنّني استعجلتُ أيّام المأتم، وكان من الأفضل أن أظلّ في البيت أيّاما أُخَر. لكنّ أمّي عاضدتْني على غير عادتها: «عملكِ يُنسيكِ همّكِ». قصدُها أنّها بَرِمَت برؤيتي في البيت. أحدّق إلى الأشياء برأسٍ معصوبٍ من دون أن أراها، فأمّي لا تعرف أنّ النسيان خصم ابنتها. أنا أعرف مرضاي اسمًا اسمًا، لا أنسى وجهًا رأيتُه مرّة، وأحفظ أرقام هواتفَ من دون تدوينها في مفكّرة.

لكنّني سايرتُها في كلامها، وعدتُ إلى عملي محجِمةً عن وضع مكياجٍ أو عِطرٍ، مكتفيةً بكريمٍ أخفيتُ به الهالاتِ التي نجمتْ عن قلّة النوم. «الأرملة لا تتزيّن» كما قالت خالتي، إكرامًا لروح الميّت. أشعر بأنّ عينَيْ مخلوف تراقبانِني كلّما التفتُّ ببصري، وكلّما بادرتُ إلى فعلٍ أحسستُ أنّه ينظر إليّ.

أعدتُ شريط الأحداث في ذهني مذ شاهدتُ، للمرّة الأولى، تلك السيارةَ الصفراءَ التي تلاحق خُطواتي، ووصلتُ إلى تفسيرٍ واحدٍ: أنّ سرقة الصورة يراد منها أنّني ثاني اثنَيْن؛ أنّ الموت سيكون من نصيبي أنا أيضًا!

ظلمتُ جيراني بشكّي في أنّهم سرقوا أغراضًا لي، وأخطأتُ في تقديم شكوى بهم. خذلني حدسي مرّة أخرى حين ظننتُ أنّ الرينو 4، التي يزيّنها من الخلف رسم (خمسةٍ)، سيّارة أمنٍ ترصد تحرّكاتي قبل السماح لي بلقاء بودو من عدمه، لكنّ سائقها مهمّته قبض الأرواح. وقـدّرتُ أنّ السرقات التي تعرّضتْ لها العيادة، كانت إشارات لم أعرِف تأويلها.

كان بوُسع مهدِّدي أن يتريّث، أن يتيح لي تجاوز كَربي ثم يباشر عمله من جديد. أن يُسعف حالي، ومن الممكن أن أتوصّل معه إلى اتفاقٍ يُرضي الطرفَيْن. لا بدّ أن يكون أحد أهالي الموتى الذين اقتلعْتُ قرنيّاتِهم، وقد اكتشف أمري أثناء غسل الجثمان. لكنّني لم أسرق قرنيّة أحد، فالموتى ليسوا بحاجةٍ إليها. إنّهم يسيرون بقلوبهم إلى ربّهم لا بأعينهم، وفعلي يخفّف من محاسبتهم يوم الدين، فقد أسدَوا خدمةً للأحياء في الدنيا. مَن يمعن في عملي يدرك أنّني ملاك خيرٍ لا نذيرُ شؤم. لكن كيف أُقنع الناس بعكس ما جُبلوا عليه؟ حين يركبون رؤوسهم لا يعيدهم إلى صوابهم إبليس ولا جبريل.

كيف أتخلّص من صاحب الرينو 4، الذي يترصّدني مثل سلوقيٍّ يترصّد طريدته؟ لقد غاب عن ناظريّ في الأيّام الأخيرة، لأنّني لم أغادر البيت، لكن لا شيء يمنع عودته.

هل سيحصل لي ما حصل للفتاة التي حكى لي عنها المرحوم، والتي أحرقها كهل رفضت الزواج به؟ هل يحرقني صاحب السيارة الصفراء؟ هل يرضى خصمي بأن أهبه قبّعة شارلي شابلن، بعد أن

أختلسها من أبي، يبيعها فيغيّر سيّارته بأخرى أفضلَ منها، ويختفي من طريقي؟ من المحتمل أنّه عرفني وأنا أدخل أو أخرج من المشرحة المزوّدة بمولّدٍ حذَر انقطاعات الكهرباء، والتي لن أعود إليها. كان مخلوف صِلتي بها، وقد غادر إلى مملكة الغائبين. لم يعد بوُسعي أن أوفّر قرنيّاتٍ لمَن انطفأ بصرهم، فهل عليّ أن أغيّر عُنوان عيادتي؟ إلى أين؟ إن ارتحلتُ إلى مكانٍ آخرَ من هذه المدينة، فلن يتعسّر عليه الوصول إليّ. أمّا أن أنتقل إلى مدينةٍ أخرى، فذلك غير واردٍ، لأنّ ابنتي بحاجةٍ إلى أن تبقى قريبة من جدّتها. ولعلّ الأفضل أن أخرج في إجازةٍ مطوّلةٍ إلى أن تهدأ الأمور، فينساني ثم أعود مرّة ثانية إلى حياتي. ذلك ما رسَخ في بالي حين حلّت المريضة الأولى؛ سيّدة في أواسط الثلاثينيات من عمرها، ترتدي نظّارة طِبيّة ذراعها موصولة إلى إطارها بشريطٍ لاصقٍ، تنتعل بَلْغَة وتجرّ فستانها الفضفاض الذي لم يُخفِ ضخامةَ صدرها، كما لو أنّها أرضعت قبيلة أطفال.

أحمد الله أنّني لم أنجب سوى طفلةٍ واحدةٍ، ولم أُصغِ إلى مقولة الفقيد: «مَن لم تنجب ذكرًا تمُت ميتة كلاب»، فمَن هنّ في سنّي يُنجبن خمسة أو ستّة أطفالٍ، إلى أن تترهّل أجسادهنّ. بل يُردن المزيدَ، فحملات تنظيم النسل التي ترعاها الحكومة لم تقنعهنّ بالإقلاع عن إعمار البلد ببكاء الرضّع. كما أعرَضن عن حملة نِقابة الأطبّاء التي وزّعت حبوب منع الحمل، اعتقادًا منهنّ أنّ تلك الحبوب تريد إنقاصَ المسلمين وإضعافَهم. لو أنّ الحكومة فرضتْ ضريبة على الإنجاب لأفلحتْ في تنظيم النسل، وملأت خزينة البلد الفارغة.

أمّي أيضًا نوتْ أن تُنجب أخواتٍ وإخوةً آخرين لي، لكنّ الأقدار خالفتْها. تُناصبني عداوةً لأنّني «وجه نحس». «نشّفتِ رحمي»، تقول، متحسّرةً أنّها لم تنجب من بعدي.

لم أسأل مريضتي كم طفلًا أنجبت، وأنا أصغي إلى شكواها من احمرارٍ في عينَيْها اللتَيْن تحجبهما براحة يدها إذا خرجتْ، حذرَ ضوء الشمس، مع عدم وضوح الرؤية إلّا بعد تركيز.

كانت تتكلّم بنبرةٍ مُستاءةٍ كمَن تشتكي في بِقالةٍ نُدرةَ حليب أو سكّر. صدرها يرتفع وينزل، وتفوح منها رائحة زيتٍ محترقٍ، وأنا أمامها صامتة أهزّ رأسي، منتظرةً أن تُفرغ ما في جَعبتها من رغبةٍ في سبّ عينَيْها، كأنّهما رجلان خاناها. علّلت حالها بتسرّب غبار طباشيرَ، فهي معلّمة مدرسةٍ، تقيم في حيّ مسقوفة بيوته الضيقة بالقشّ، يتكدّس فيها ساكنوها مثل أغنامٍ في زريبة. ولا تُمنّي نفسها سوى ببلوغ سنّ التقاعد.

– كم تلميذًا في الصف؟ سألتُها.

– ستّة وأربعون.

أتخيّل مشقّة أن تُعلّم هذا العدد الهائل من الصِّبْيَةِ، الذين يفترش بعضهم حصيرةً نظرًا لقلّة المقاعد.

– لا يضايقني عددهم، بوسعي أن أدرّس خمسين آخرين.

أدركتْ أنّني لم أفهم حجّة تأفّفها من مهنتها. أردفَتْ:

– تضايقني الكتب التي يطلبون منّا تعليمَها للأطفال، فمَن صاغ الكتاب المدرسي يعيش في المِرّيخ لا معنا!

لم أردّ على كلامها، فدخلَتْ في مونولوغ من السأم، إلى أن قالتْ بصوتٍ خفيضٍ كأنّها خافتْ أن تسمعها الحيطان:

– تخيّلي أنّهم يريدون أن نكلّم الأطفال عن داروين!

– أين المشكلة؟

– لكنّ الله هو مَن خلق الإنسان ولسنا من سُلالة القِردة. هل توافقين أنّ أصلنا قِرد؟

أوافق على أنّ أصلكِ دجاجة... تمتمْتُ. فهي تثرثر مثل نقنقة الدجاج. لم تفهم كلام داروين، ولم أكن في مِزاجٍ مؤاتٍ لأشرح لها كلامه، فأجبتها:

– لا أدري.

لقدْ تعوّدتُ مثيلاتِها من النساء؛ ينطلقن من البوح بما يؤلمهنّ ثم يتوسّعن في خطبةٍ عن آلامهنّ في الحياة، بسبب مهنهنّ أو رجالهنّ أو أبنائهنّ، أو جيرانهنّ أو بني عمومتهنّ. ولا يعثرن على شخصٍ يُصغي إليهنّ أفضل من الأطبّاء. أجلستُها وشرعتُ في فحصها من دون أن أتلفّظ بحرف. ظلّ ذهني يغلي بمخاوفَ من أن يحصل لي سوء، عقب اختفاء صورتي مع مخلوف. قالت:

– أعاني دموعًا لا إرادية.

وأنا مثلها لا تزال عيناي تدمعان لا إراديًا كلّما سألتني ابنتي: «وقتاش يرجع بابا؟». لم تتقبّل غيابه ولم أتقبّل منظرها وهي تحدّق إليّ بعينَيْن تائهتَيْن. بمقدوري أن أصير أمّا وأبًا لها. سأبذل جهدي فتنساه، مثلما بذلتُ جهدي في فحص هذه المريضة، التي تعاني جفاف العين فوصفتُ لها محاليل، وخرجَتْ منشرحة البال عكس حالها حين دخلتْ إليّ.

– ميرسي مدام!

شكرتْني ودعَتْني إلى حضور وليمة يحضّرها زوجها، في الأيّام المقبلة، عقب ترشّحه للانتخابات البلديّة، قصد استمالة أصوات الناس. وعدتُها بالحضور، مع أنني لم أستخرج بطاقة الانتخاب.

يُقيم ولائـمَ بـدلًا من أن يشتري لها نظّارة لائقة ترتديها... غمغمْتُ.

تركتْني أموج في بحرٍ من القلق، متذكّرةً السيارةَ الصفراء. تصاعدتْ أنفاسي ونويتُ أن أُهاتف الشرطة، لأُبلغ عن مجهولٍ

يطاردني، وآخر يتّصل على رقم البيت والعيادة من غير أن يتكلّم. أزمعتُ على ذلك رغم الخوف الذي ساورني من أن يحقّق الأمن مع صاحب السيارة، فيفضح ما فعلتُه بالموتى. لا بدّ أنّ الله سمع رغبتي في مكالمة الأمن، فلم أكد أمدّ يدي إلى الهاتف وأضغط الرقْم حتّى حوّل لي شقيقي مكالمةً، ووصلني صوت مفتّش الشرطة إدريس بادة، الذي قابلتُه في المستشفى، راغبًا في مقابلتي:

– أنا في طريقي إليكِ.

كان مخلوف دليله في معرفة ظروف موت الضحايا. فهل يودّ مكافأتي على خدمته معهم؟ أم يودّ مشورتي في خليفةٍ له؟

لكنّه جاء في شأنٍ آخر لم يخطر على بالي.

15

– زوجكِ تسمّم... قبل أن تنقلب سيّارته.

هناك لحظات يشعر فيها الإنسان بأنّه قد سَفِل إلى أحطّ درجات البلاهة، يحسّ كمَن عاش بجسدٍ لا بعقل. مهما درس وتعلّم وثابر وتأمّل وفكّر وفحص، فإنّه لا ينظر إلى الأشياء سوى بعينَيْن معصوبتَيْن. ذلك ما شعرْتُ به وأنا أجلس قُبالة مفتّش الشرطة إدريس بادة، مصغيةً إليه وأنا أعضّ شفتي السفلى كي أوقف ارتجافها، ممسكةً بعُنقي وضامّةً ساقيّ كما لقّنتني أمّي في صِغري، كي لا تلتهمني نظرات الرجال.

– أحدهم سمّم أكله أو مشربه، أردف.

هل الموت بجرعة سمٍّ حُسن خاتمة؟ همهمتُ... ووددتُ أن يمتثل إمام الحيّ أمامي كي أدحض قوله. لكنّني غالبتُ غضبي، شاكرةً لهذا المفتّش أن آثر مقابلتي في مكان عملي، في ساعةٍ غاب فيها ميلود، بدلًا من مقابلتي في البيت، كي لا تراني ابنتي وقد ثار صوتي فصرتُ في صورةٍ لا يحتملها قلب طِفلة. كلماته سَرَّعت أنفاسي، فقد قضيتُ أيّامًا ولياليَ أدعو فيها لروح المرحوم، مقتنعةً بأنّه مات في طريقه إلى العمل، لمساعدة غيره بما يرضي الله. لكنّ ما علمتُه أوجب عليّ أن أعيد النظر في وجودي كلّه لا في لحظة موته فحسب، ما سمعتُه جعلني أشعر بأنّ القهوة على منضدتي صارت بطَعم الحَنظل.

«التسمّم سبّب له نزْفًا في المعِدة».

حوّلوا عيّنةً من محلول المعِدة وكذا من الدم والشعر، إلى مِخبر في العاصمة، وعثروا على بقايا ثاليوم، يُستخدم في مبيدات فئران.

«لو نجا من الموت، لكان سيصاب باضطرابٍ عصبيّ»، أضاف.

شاع التسمّم بهذه المادّة، كما أعلمني محدّثي. لقد صدر أمر بمنع بيع مبيداتٍ تحوي هذا السمّ.

«لكن كلّ شيءٍ يباع تحت الطاولات»، علّق.

مَن ودّ التخلّص من مخلوف غيري؟

«أُغمي عليه في أثناء قيادة سيّارته، ما أدّى إلى الحادث، فأصيب بضربةٍ أعلى نُخاعه الشوكي، ثمّ بقر المِقود بطنه».

أنا أيضًا نويتُ محوه بضربةٍ على نُخاعه الشوكي أو بطعنةٍ في بطنه، لكنّني أجبَنُ من قتل عظاءة. ثمّ محوتُ من بالي احتمال أن يكون المرحوم قد جلس خلف مِقوده ثمِلًا، مثلما خمّن كذلك إدريس بادة، الذي تشقّقتْ شفته العليا مثل يابسةٍ لا يهطِل فيها مطر، وأُذناه منتصبَتان مثل صحنَيْن لاقطَيْن. لقد تمهّل أيّامًا قبل أن يُبلغني الحقيقة:

– ظننّا أنّ التحرّيات سوف تُفضي إلى الجاني، ثمّ نُبلغكِ. لكنّ القضية أكثر تعقيدًا ممّا نظنّ.

شرعْتُ بالخروج، شيئًا فشيئًا، من ضِفّة الحِداد إلى ضفّة الأمنيات، فوقعَتْ على رأسي هذه الأقاويل مثل مَن يقع على رأسه انجراف تُربة. حكايتي تصلح أن يكتبها أحدهم، وتكون بدايتها: «اسمي عقيلة. أُداوي الناس من غير أن أُداوي حالي. تزوّجتُ رجلًا وأحببتُه فلم يحبّني. مات عام 1990 من غير أن أعرف مَن سمّمه...». وددتُ أن أصرخ، قبل أن يبادرني محدّثي:

– تفضّلي مِفتاح سيّارته وبوُسعكِ استردادها من المخفر، إن كنتِ تملكين رخصةَ سِياقة، أو ينوب عنكِ أحد الأقارب.

لا أمتلك رخصةَ سِياقة لأنّ النساء يتّكلن على أزواجهنّ، ينقلونهنّ حيثما شئن. لكنّني ارتبطتُ برجلٍ أكثرَ أنانية من أمّي،

وأخبرتُ محدّثي، في لحظة فزعٍ، عن السيارة التي تتعقّبني وعن المجهول الذي يرِنّ في الهاتف ثم يصمتُ، ضيّق عينيْه محتارًا:

– لمَ لم تُخبريني من قبل؟

امتعض، وأشعرتْني كلماته بأنّني اقترفتُ إثمًا. رمقني بنظرةٍ مستاءةٍ كأنّني دُسْتُ الراية الوطنية بقدميّ. أصبحتُ مثل طِفلةٍ تترقّب أن ينتفض في وجهها مَن يكبرها سنًّا، فيوسعها عقابًا كما أفعل بابنتي. رغبتُ في تمزيق الأوراق المنبسطة على مكتبي أو كسر فِنجان القهوة فأخمد غضبي، وأنا أحدّق إلى مخطّط سنيلين، المعلّق على الحائط، أتخيّل أشكاله قد صارت خنافس، تبتغي القفز إلى وجهي وقضم عينَيّ.

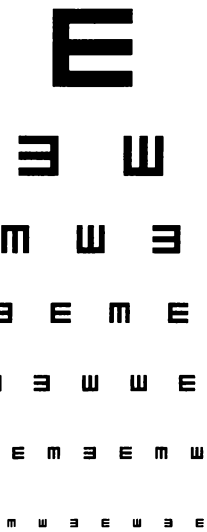

وفائي لسذاجتي جعلني أعتقد أنّ صاحب الرينو 4 يرجو مواعدتي، أو ينوي خطف حقيبة يدي، في مدينةٍ يتجاوز فيها العاطلون عدد المتعبّدين. ولم يخطر في بالي أنّ جرمًا يحوم حول

رأسي. قدّمت إلى مفتّش الشرطة توصيفًا للسيارة، التي كنت كلّما شاهدتُها ارتجفَتْ رُكبتِي، وأنا أتوقّع أن تعود السيارة المقصودة إلى سالف سيرتها.

– البلاد تعجّ بسيارات رينو 4 صفراء اللون، أجابني. هل تتذكّرين رقْمها؟

سألني بعينَيْن شاخصتَيْن كمَن يبحلق في امرأةٍ جميلةٍ، لا أرملةٍ مفجوعة.

– رقْمها التسلسلي 02325 وتسجيلها 171.

– هذا ترقيم سيّارة زوجكِ ومِفتاحها بين يدَيْكِ!

زوجي امتلك سيّارة من نوع هوندا، ينظّف زجاجها بورق جرائدَ تنشر أخبار القتل والجرح والاغتصاب والاختطاف. لم أره يقود سيّارة رينو 4، تتزيّن من الخلف برسم (خمسة).

– زوجكِ كان يتعاون معنا بوصفه طبيبًا شرعيًا، ولا علم لي بما يملك أو لا يملك من سيّارات. عثرنا عليه ميّتًا في سيارةٍ تحمل المواصفاتِ التي ذكرتِها، أردف قائلًا.

أدركتُ أنّني تزوّجتُ وعاشرتُ رجلًا أجهله. عرفني عُصفورة وتركني مكسورة الجَناحَيْن. لم يسبق أن أخبرني بامتلاكه سيّارة رينو 4. لماذا كان يترصّدني؟ رأيتُ تلك السيارة، للمرّة الأولى، عقب اقتلاع قرنيّتَي الشاب الذي هوى من الطابق الخامس. خرجتُ من المستشفى وكانت تتعقّبني. ماذا أراد منّي مخلوف؟ ظنّ أنّني أخونه؟ كان بوسعه أن ينهال عليّ بنظراته العابسة فأقرّ بما يريد. أظنّ أن كلمة مغفّلةٍ لا تَصِفُني، بل كنتُ عمياء.

سألتُ محدّثي عن مصير سيّارة الهوندا، بعدما أفدتُه برقمها ومواصفاتها، فاكتفى بالإجابة:

– سوف نعزّز نقاط التفتيش، بحثًا عنها.

– لكنّ حواجز الأمن في كلّ مكان!

مع دنوّ الانتخابات البلديّة، واقتراب زيارة بودو مع فريق التلفزيون، باتت المدينة مطرّزة بالتعزيزات الأمنيّة.

– سوف أُخطر الأعوان برقم المركبة.

ثمّ نصحني بإيداع شكوى باختفائها.

داومتُ على شفاء المرضى من عمى أبصارهم، من دون علمي أنّ العمى قد ألمّ بي. لكنّني أستبعد أنّ المرحوم مَن كان يتصلّ على رقم البيت، حصل أن وردتْ تلك المكالمات بينما هو جنبي.

– لا نستطيع أن نجزم بهويّة المتّصل المجهول، فكابينات التلفون في كلّ مكانٍ، كما تعلمين.

لكنّ قلبي يحدسني أنّ مخلوف سُمّم عقابًا على اقتلاع قرنيّات الموتى.

لو أنّني غالبتُ طيبتي وغالبتُ مجرى رغباته، ولم أقتلع قرنيّات الموتى، لو لم أدرس الطب وصدّقت كلام أمّي: «اللي تزرع الريح تحصد الغبار»، لو أنّني أخفقتُ في الدراسة لَما وقع كلّ ما وقع. لماذا لم يخلقني ربّي معلّمةً في مدرسةٍ أو موظّفةً في إدارةٍ، أقوم بشغلي وأعود إلى بيتي؟ لقد درستُ وتعلّمتُ، تخرّجتُ في الجامعة وعمِلتُ، اجتهدتُ ونجحتُ، من غير أن أمتلك عينَيْن أنظر بهما إلى ما يجري تحت قدميّ. لقد حلَمتُ، وأحلامي تسمّمتْ مثلما تسمّم زوجي.

كان يجب أن أقصد المشرحة، في اليوم الذي تسمّم فيه، وأقتلع قرنيّة. لكنّني ألغيتُ الموعد، بعدما تحتّم عليّ الإسراع في فحص مرضاي، ثمّ إحضار مينة من الروضة؛ فالمعلّمة أعلمتني بمغادرتها قبل نهاية دوامها، لحضور زفاف قريبةٍ لها.

لم يسبق أن ألغيتُ أمرًا نويتُ عليه، ولم يسبق أن ارتجفتْ ساقي مثلما حصل عقب لقائي إدريس بادة، الذي صارحني: «أنتِ أيضًا مشتبهٌ بها في تسمّم مخلوف تومي».

وأنا أشتبه في أمّي. فقد أَلِفَت السموم خلال حرب التحرير، وتعرف الأصلح منها في نزع أرواح البشر. سبق أن اشتكى زوجي مغصًا من أكلها، وقد حذّرتني: «راقبي زوجكِ». لم يكن يعجبها تأخّره عن البيت في الليل، فهل اكتشفت أمرًا يخصّه وتخلّصت منه؟ هل اقتصّ منه أحد من ذوي الموتى الذين اختلستُ قرنيّاتهم؟ لكنّ زوجي عاش محاطًا بسمومٍ في عمله كذلك. هل سمّم نفسه؟ أم وقع الأمر عن غير قصدٍ منه؟

* * *

قبل وفاة مخلوف، لحظتْ عقيلة بقعة دمٍ على فرشاة أسنانه:

– لقد نزف قبل أن يلاقي ربّه.

وأردفتْ:

– رأيتُه يدخل ويخرج من الحمّام مثل مَن أصيب بإسهال.

ظنّتْ أنّ مرضًا أصابه، فسارعتْ إلى التخفيف عنه:

– حضّرتُ له كوب نَعناع بالليمون والقِرفة فأعرض عنه.

لم يُرد أن يظهر في صورةٍ تعطِف فيها عليه.

عاد جمال درقين إلى تذكيرها بأنّها هي مَن كانت تطهو طعامه، وعادت إلى نفي شكوكه نحوها.

– بمَن تشكّين إذن؟

– لا أدري.

موت زوجها تَرافق مع واقعةٍ شغَلت بالها:

– أين اختفتْ سيّارته من نوع هوندا؟

telegram @
yasmeenbook

– ...

– لقد أبلغتُ عنها الأمن.

– أعرف.

أجابها محدّثها وأضاف:

– لقد عثرتْ الشرطة على سيّارته، من نوع هوندا.

فتحَتْ عينَيْها على اتساعهما:

– هل سُرقَتْ منه؟

– لا!

– ...

– عثرنا عليها في حوزة شخصٍ مقرّبٍ منكِ.

– مَن يكون؟

تهاطلتْ أسئلتها، واشتدّ فضولها لمعرفة الشخص الذي استولى على سيّارة مخلوف. فيما أجّل جمال درقين الردّ عليها. ساوره أنّ ليونته معها لن تُفضي إلى مبتغاه، فقد عاملها بلطفٍ إكرامًا لصنيعها أن عالجتْ أمّه ودفعتْ عنها عمى عينها، وواصل أسئلته.

– لم أشترِ سمًّا، ولا أعرف أين يُباع.

دافعتْ عن نفسها. وأبصر يدها التي عادتْ ترتعش، وهي حائرة: «هل أوافيه بشكوكي تجاه أمّي؟».

قام من مقعده، يدخّن في صمتٍ ويطوف حول نفسه. وخامر بالها: هل يُعقل أنّ مخلوف قد سمّم نفسه؟ وأنّ ما حصل حدث عارض؟ فقد كان محاصَرًا بموادّ سامّة يستعين بها في المشرحة.

لم تُفصح عمّا دار في ذهنها، ولمحتِ المحقّق يعيد لطم ساعة يده. فكّرتْ في أن تشير إليه بالنظر إلى ساعة الحائط، فردّ من تلقاء نفسه كمَن سمعها:

– لا تفيد بالوقت الصحيح.

– انتهت أسئلتكَ؟

– لا يزال هناك أمر آخر.

لقد قضى أيّامًا في التحقيق مع زملاء الفقيد، معتقدًا أنّ القضيّة تتعلّق بتصفية حسابات في المستشفى. لكن تبيّنتْ له براءتهم من استجوابهم، قبل أن تتحوّل الشكوك إلى عقيلة. وقبل أن يصل إليها استدعاء إلى البيت للمثول، أبلغتْ عنها امرأة.

– لقد أخبرتُكِ أنّني أمتلك شيئًا ضدّكِ!

ظلّ محتفظًا به طوال الوقت.

– أنتِ متّهمة بطمس بصر مريضة.

ظنّت أنّها مناورة منه قصد استفزاز لسانها:

– أخبرني باسمها؟ فأنا أعرف مرضاي كلّهم.

أجابها:

– شهلة البرق.

16

فحصتُ مرضاي ببالٍ يغلي، يراودني خوف من أن يدخل إدريس بادة فيعتقلني، بحجّة التحقيق في تسميم زوجي. تصنّتُّ كعادتي إلى أحاديث المريضات، من خلف الحائط، وهنّ يتبادلن كلامًا عمَّن اشترت أواني أو باعت أثاثًا، مَن تبيع كريمات تفتيح البشرة أو مَن تشتري زيوت ترطيب الشعر... مَن ترشَّح زوجها لانتخابات البلدية ومَن انقطع الماء عن بيتها. يساورهنّ قلق من ارتفاع أسعار أغذيةٍ، ومستبشراتٍ بحلول موسم الزِفاف. إحداهنّ مسرورة أنّها ستُزوّج ابنتها لصائغٍ «يكسوها بالذهب» علّقت، وأخرى مستاءة أنّ ابنها سيتزوّج مغتربة «لا تصلّي ولا تعرف ربّي» تأفّفت. «المهمّ يسوّي أوراقه في فرنسا»، طمأنتْها أخرى. لم أخبر أيًا منهنّ أنّني سأقابل بودو، وأترقّب ردّ فعلهنّ عندما يشاهدنَني في الشاشة، مثلما أترقّب ردّ فعل شقيقي. لقد عاونني في مخطّطي، وأنا مدينة له في حال تحقّق المشروع.

خرجت آخر مريضة من عيادتي، بعدما وصفتُ لها نظّارةً وفاحتْ من ثوبها رائحة نفثالين، وهي تسحب ابنتها باكية من يدها، لأنّها رغبتْ في تجريب عتادي وفحص أمّها مكاني. لقد ذكّرتْني بمينة، التي تنسب إلى نفسها كلّ ما يقع بين يديها، فقد ولدت مخاتلة مثل أبيها. استيقظت بالأمس في جوف الليل تسألني عنه:

– وين بابا؟

طمأنتُها الى أنّه حلّق إلى مكانٍ آمن.

– وين؟

لم أعثر على جوابٍ يوقف أسئلتها، فشرعتْ تبكي. دعوتُ في سرّي أن تحظى بأبٍ رؤوفٍ في الجنّة، وحملتُها إلى سريري. شممتُ شعرها وقد فاح برائحة الغسول الذي حمّمتُها به، وقصصتُ عليها

حكاية إلى أن نامتْ. عندما تُغمض عينَيْها تصير مثل ملاك. أصغيتُ إلى أنفاسها وأدركتُ أنّها بحاجةٍ إلى وقتٍ لتنساه. مثلما أحتاج إلى وقتٍ ليكفّ عن زيارتي في أحلامي، فقد رأيتُه في المنام يخضّ ذراعي ويأمرني بالاستيقاظ، فاستفقتُ بعُنقٍ يرشح عرقًا. صرتُ بالكاد أُغمضُ عينَيَّ سُويعاتٍ، فتجتاحني رغبة في زيارة المكان الذي انقلبت فيه سيّارته، لكنّني أقمعها مخافةَ أن يطول حزني ويعاودني أرَقي.

سكبتُ غدائي على حافَة النافذة، تقتاتُ به عصافير الدوريّ. لم تعُد لي شهيّة للأكل، وأنا أعضّ قلمي الجافّ مثل رضيعةٍ تتحسّس أسنانها التي نبتتْ للتوّ. وأكمل ميلود عدّ ما تساقط في صندوق المال، دوّن الرقْم في قُصاصة، وسلّمني إيّاها كعادته، وأنا أستريح في مقعدي.

طلبتُ إليه أن يجلس، فخال أنّني سأسأله عن عدد المرضى الذين حدّدوا مواعيدهم لليوم التالي، لكنّني خاطبتُه:

– نحتاج إلى إجازةٍ أنا وأنت.

طوال عمله معي اكتفى بإجازة الصيف، التي لا تطول أكثر من أسبوعَيْن، بعطلتَي العيدَيْن، الأوّل من مايو، وأيّام الجمعة، أو عندما أنشغل مع نقابة الأطبّاء. فنحن نعمل من ثماني إلى عشر ساعاتٍ كلّ نهار، بحسب عدد المشتكين من أمراض أعيُنهم. ثمّ جاءت واقعة زوجي لتزيد همًّا إلى قلبَيْنا.

أحتاج إلى أن أخلو إلى نفسي، وأُشفى من خوفي كلّما لمحتُ سيّارة شرطة. وهو أيضًا بحاجةٍ لأن يستعيد أنفاسه، لعلّه يعود أحسن حالًا. لقد صار أكثر شُحًّا في الكلام، واحمرّتْ عيناه بسبب قلّة النوم، كأنّ أحدهم حقنهما دمًا.

«أنت تتسلّين بالعمل لتنسي حزنك على المرحوم»، قال مشاطرًا أمّي رأيَها، فشاكستُه باسطةً ذراعيّ على المِنضدة، المصنوعة من خشب الصنوبر:

– سأحسِم من راتبك مقابل غيابك.

قصدتُ يوم هجمتْ عليّ فوزيّة الخيّاطة.

– كانت إجازة عارضة.

كنت قد اتفقتُ معه، في حال المرض أو حدوث طارئٍ، أنّ من حقّه نيل إجازةٍ عارضةٍ ليومٍ واحد. لكنّ علاقتي به أكثر من علاقة طبيبةٍ بممرّض. هل يُخفي شيئًا عنّي؟ أخفيتُ فمي بيدي وأنا أتثاءب، مثلما علّمتْني أمّي كي لا ينفذ الشيطان إلى الداخل، ثمّ سألتُه بنبرةٍ غيرِ مباليةٍ وأنا أنظر إليه نظرة تائهة:

– كنتَ على موعِدٍ مع إحداهنّ؟

– لا أختلي سوى بمَن أحلّ الله لي.

تمنّيتُ أنّني سكبتُ غدائي على رأسه، كي لا يفرّ من أسئلتي، ويجيبني مثلما يجيب جارتنا نوسة. فقد رأيتُه يقف على بابها من يومَيْن، وينبئها بأخبار الطالع والنازل. لم أشأ أن أخوض معه بكلامٍ آخَرَ فيظنّ أنّني أتطفّل عليه، لكنّني لم أقوَ على لجم لساني عن سؤاله إن كان يعرف شيئًا عن علّة سفر أبينا إلى العاصمة:

– من المحتمل أنّه يريد حقوقه نظير عمله سنوات حرب التحرير.

طوال هذا العمر لم يهتمّ بطلب بِطاقة مجاهد. فلماذا يفكّر فيها الآن؟ لقد بلغ من الكِبر ما يؤهّله لأن يفكّر في قماش كفنه. ليس بوسعي معاتبته، فهي حقّ له، لأنّه قاسى وطأة تلك الحرب سبع سنين أو أكثر.

أبي مشغول بحاله، فلا يشعر بما يمور في ذهني. لا يدرك ما أتكبّده في قضية مخلوف، الذي جعلني أعيش مخدوعة؛ كان يترصّدني في البيت وخارجه. لم يحبّني ولم يخفّف فظاظته معي. وددتُ أن أسأل شقيقي عمّا يعرفه عن الفقيد، وعمّا تحدّثا عنه في أيّامه الأخيرة. هل لاحقَتْ سيّارةٌ ميلود أيضًا؟

لم يكن مخلوف بحاجةٍ إلى مالٍ، فلماذا سرق تلك السيارة الرينو 4؟ فالتّحريات أفضت إلى أنّ السيارة الصفراء تحمل ترقيمًا مزيّفًا لا أصليًا، ما جعل الشرطة تحتجزها بحثًا عن صاحبها. لكنّ أسئلتي علِقت في حَنجرتي، واكتفيتُ بالاستفهام من شقيقي:

– هل لديكَ فكرة عن المجهول الذي يرنّ في التلفون كلّ مرّة؟

في كلّ مرّةٍ يرنّ فيها الهاتف يرتعش قلبي، مخافةَ أن يحمل الاتصال نبأً قبيحًا.

– أظنّه مراهقًا يتسلّى بالاتصال من كابينات التلفون، المزروعة في الشوارع.

ذلك ما قاله لي إدريس بادة كذلك.

بدا لي شقيقي مثل صنمٍ لا يتكلّم سوى عندما أسأل. لم يعد يشتري قطع بغرير للأكل كعادته، ولم أخبره أنّ زوجي مات غدرًا، ولا عن شكوكي في أمّي. فإن عرف فسيشتعل رأسه قلقًا، وقد يهجر عمله فأصير وحيدة في عيادتي كما في حياتي. سوف يأتي يوم أخبره فيه الحقيقة، لكن ليس اليوم. سوف أنتظر أن تهدأ الأمور ثُمّ أعيد فتح الدفتر معه، مع أنّني لستُ واثقة بما خطّطتُ له. فقد تطلبه الشرطة للإفادة بشهادته عن الراحل، بحكم القرابة، ويعلم أنّ مخلوف تسمّم قبل وقوع الحادث، ويتعقّد وضعي.

انصرف ميلود، مدّعيًا صُداعًا، بعدما حدّثتْني عيناه عن تضايقه من أسئلتي، ولم يعد ميسّرًا لي الكلام ولا الصمت.

كلّ يوم أدنو من الجنون أكثر... تمتمتُ.

خطر لي أن أعلّق صورة المرحوم، الذي أكاد أنسى ملامحه، في غرفتي. هكذا هم الأزواج، يدخلون إلى حياة النساء وينصرفون، ثم يصيرون ذكرى. صورة له وحده بدوني، توقيرًا لذكرى والد ابنتي. وأن أتّصل بثامر، على الرقم الذي كتبه لي على قُصاصةٍ، كي أعتذر له عن جفائي حين عزّاني، وأطلب منه أن يمحو صورتي من مخيّلته. أعرف أنّ رأسه مفروش بالأسمنت؛ عندما ينوي على أمر فلا يتراجع عنه، كما أعرف أن الحبّ يغلب النسيان، لكن من مصلحته أن ينساني. أخشى أن أراه مرّة أخرى فتستفيق شياطين قلبي. لقد تزوّجتُ مخلوف من غير أن يحبّني، أمّا ثامر، فأحبّني من غير أن أتزوّج به. هل يُعقل أن يكون هو مَن نوى شرًّا بزوجي؟ أظنّني أبالغ في ظنوني. ضغطتُ رقمه الذي حفظته في ذهني: 54 (5)... وينتهي بالرقم 1، بأصابعَ ترتجف وأنفاسٍ تتسارع. كدت أتراجع عن فعلي، لكن خطّه لم يكن يشتغل.

ليتني لم أحفظ رقمه، فأعصمه من أذاي.

* * *

أصرّ جمال درقين على أن يعرف من أين حصلتُ على القرنيّة التي زرعتُها في عين شهلة البرق:

– أمتنع عن الإجابة.

نبّهها أنّ صمتها لا يخدمها. فخفضتْ رأسها، وغطّتْ جبهتها بيدها ثمّ زمّتْ شفتَيْها.

بدر في ذهنه أن يغيّر شكل السؤال، منطلقًا ممّا قالته لأمّه حين زرعتْ قرنيّة في عينها، وكذلك فعلتْ مع شهلة:

– هل تستوردين القرنيّات؟

تعلم أنّ هذه الخدعة لن تنطلي على محدّثها مثلما انطلتْ على مرضاها.

– لا أحد يفكّر في الاستيراد، ردّتْ.

فالخزينة العامّة فارغة والدولة نفسها تعجز عن استيراد الغذاء.

اشتكتْ بها شهلة البرق، عقب مضاعفاتٍ مسّت عينها، وأعلمتْ الأمن بالعملية التي خضعتْ لها. فأدركتْ عقيلة لماذا سارعوا إلى استدعائها ثم إيداعها السجن، في يوم جمعةٍ وإجازة.

القانون فوق الجميع وشهلة فوق القانون... همستْ بينما يلحّ محدّثها في سؤاله.

– استأصلتُها من...

– ممَّن؟ استحثّها للإجابة.

تلك هي الإجابة التي تعني إدانتها، فتفادت – بلا جدوى – الخوض فيها.

– من عين... ميّتٍ...

– انتهاكٌ لحُرمة الميّت، علّق.

أخفى عنها أنّهم عثروا على بصماتٍ لها في المشرحة، متسائلًا في نفسه: زرعتْ قرنيّة ميّتٍ في عين أمّي كذلك؟ لكنّ أمّه شُفيتْ ولم تُصب بمضاعفاتٍ في بصرها.

سألها عن اسم الميّت:

– سمير قليش.

– متى حصل ذلك؟

– 30 أبريل الماضي.

فهي تحفظ التواريخ في ذهنها.

– لكنّ سمير قليش مات يوم 28 أبريل.

فهو يحفظ تواريخ القضايا التي تُسند إليه.

مخلوف أخبرها أنّ الفتى توفّي في اليوم الذي رأت فيه جثمانه في المشرحة:

– خرج إلى البلكونة لتعليق قفص حسّون. تسلّق الحائط كي يرفع القفص إلى مكانٍ أعلى، لكنّ ساقه انزلقتْ، حكتْ للمحقّق.

– أنتِ الحسّون الذي عاش في قفص. وأضاف: أنا الذي حقّقتُ في قضية موته.

لم يصدّق أنّ الضحية مات إثر سقوطه من البلكونة. لحظ بُقعًا على عنقه وساعدَيه، وأفاده الجيران بسماع شجارٍ وقع في البيت. فطلب أن تُحفظ الجثّة إلى أن يُنهيَ التحرّيات.

شعرَتْ بأنّ الدم جفّ من شرايينها، عندما أعلمها أنّ سمير قليش راح ضحية أخته وأمّه، اللتَيْن خنقتاه وهو نائم:

– كان يعتدي عليهما ضربًا، قال.

ثم تخلّصتا من جثّته من الطابق الخامس، ولم يشأ أن يضيف: سوف تستفيدان من حكم مخفّف بحكم أنّهما دافعتا عن نفسَيهما.

– مخلوف تومي هو الذي عاين جثّته، وعرف أنّه لقي حتفه مختنقًا، أردفْ.

لم تلحظ عقيلة شيئًا في جثمان الميّت، الذي حُفظ في درجة برودةٍ عالية.

– لقد صدّقتُ كلامه وقمتُ بعملي.

تعلم عقيلة أنّ اقتلاع قرنيّةٍ يجب أن يجري خلال ثماني عشرة ساعة من وفاة الشخص. وخامر بالَ المحقّق أنّ مخلوف ورّطها بجثّة قليش التي مضى على وفاتها أكثر من تلك المهلة، من أجل طمس بصر شهلة.

– المرحوم يتحمّل الخطأ لا أنا.

– لكنّه مات ولا يمكن مساءلته!

لم يعثر على خيطٍ يربط مخلوف بشهلة البرق، وتحوّلت شكوكه إلى والدها.

– والدي لم يعلم أنّني سأُخضعها للعملية.

أنبأها بأنّ والدها يُضمر ثأرًا تجاه شهلة، ويودّ الانتقام منها من جراء واقعةٍ قديمة.

سحق عقب سيجارته في كوب القهوة الفارغ، ثمّ واجهها:

– كان عميلًا للاستعمار!

كادت عيناها تخرجان من محجريهما، وتسارعت نبضات قلبها. ظنّتْ أنّها كذبة أو أن محدّثها يخلط بين والدها وشخصٍ آخر. قامتْ من كرسيّها تشعر بتصلّبٍ في ساقيها وهي تصرخ به:

– هل جُننتَ!

– اهدئي.

عادتْ إلى الجلوس.

– ما أقوله لكِ ليس كلامي، بل كلام شهلة البرق.

«شهلة الخامجة»، كتمت ردّها في سرّها. أدركتْ أنّ تلك المرأة لم تُخلق كي تتوسّط لها أو تساعدها على شيء، بل كي تُغرقني في سجن، كما قالت في خَلَدها. وتذكّرت كلمات ناس الغيوان «طغاو عليّ الناس بالعجوب... وسمايا عامرة غيوم».

قدّر جمال درقين أنّ المشتبه بها بحاجةٍ لأن تختلي إلى نفسها، بعدما شحب وجهها. ونوى إطالة حبسها عقب إقرارها بانتهاك حرمة ميّت. القانون يبيح له حبسها يومَيْن، في مواصلة الاستماع إليها، قبل إحالتها إلى المحكمة، وكلّما طال حبس المشتبه به ضعُفت مقاومته وإنكاره، هكذا تعلّم. «المعاناة شرط من شروط الإقرار بالوقائع»، كما يعتقد.

– سأقضي ليلة أخرى في المخفر؟

ردّ عليها بإيماءةٍ من رأسه، وشعرتْ بصعوبةٍ في الكلام.

تذكّرتْ ليلتها السابقة التي لم تُغمِض فيها جَفنَيْها، وقدّرتْ أنّها بحاجةٍ إلى وسادةٍ تُريح رأسها عليها، وإلى تغيير ثيابها، إذ لم تحتمل رائحة العرق التي فاحت منها. كما أنّها بحاجةٍ إلى كتابٍ أو اثنَيْن يقلّلان من إحساسها بالوَحدة.

لم تشأ أن تتّصل بأبيها فهو رجل مسنّ، ولا بأمّها التي يتلوّن مِزاجها في كلّ حين. كما لم تودّ إزعاج ميلود، فقلبه ضيّق وسريع القلق، ولا صديقة لها تلتمس منها مساعدة.

أخبرها جمال درقين أنّ المخفر لا يوفّر لها ثيابًا ولا وسادة كما ترجو. لقد أحسّ بذنبٍ تجاه هذه المرأة، التي أنقذت أمّه من العمى. فكّر في أن يتغاضى عنها إكرامًا لأمّه، لكن «مَن يتغاضَ عن جرم يصبح شريكًا فيه».

سألتْه:

– هل يمكن أن أتّصل بالهاتف؟

رفع سمّاعة الهاتف الموضوع على طاولته، مستجيبًا لها:

– على رقم: 54 (5).... 1.

قبل أن يشكّل الرقم، ردّ عليها رافعًا حاجبَيْه:

– هذا رقم بابا ياقوت.

يحفظه على ظهر قلب، من كثرة مكالماته لها في الماضي، في سؤالها عن أشخاصٍ يقصدون دارها، حيث يختلون بنسوة. وقد نصحها بأن تغيّر نشاطها، لكنّها لم تستجب.

ظنّت عقيلة أنّ خطأً قد وقع فأعادت إملاء الرقم عليه. فأعاد كلامه بأنّه رقم بابا ياقوت، التي لم يرها منذ أن أودعت شكوى بملثّمين اعتدوا على بيتها:

– كما أنّ الخطّ مقطوع.

– هذا رقم صديق لي.

– قلتِ لي إنه لا صديقات ولا أصدقاء لكِ؟

– ثامر ليس مجرّد صديق، همست ثمّ واصلت:

– صديق قديم.

– ما اسمه؟

– ثامر غماري.

أدام النظر إليها وسألها زارًّا عينَيْه:

– متى آخر مرّةٍ التقيتِه؟

– في عزاء زوجي.

فشكرها وقد لَطُفَت نبرتُه.

– لمَ تشكرني؟

– لأنّكِ دللتِني إلى مكانه.

ثامر كان مطلوبًا للعدالة وأشقاهم البحث عنه.

تيبّس فكّها السفلي وعاودها اهتزاز ركبتها، إثر ما عرفته عن ثامر وعن أبيها.

الأب

دنـوتُ من الموت ورحـتُ أتصفّح حياتي وما جرى فيها. تذكّرتُ أشخاصًا عرفتهم وآخرين أحببتُهم. رأيتُ نفسي أمسك بيد أمّي، وأسير جنبها على شفير جُرف. أسألُها ماذا يجدر بي أن أفعل، كي لا تزلّ بي قدمي، فلا تجيب. غطّت عينَيّ غِشاوة، ولازمني إحساس بأنّني لم أعش حياتي كما ينبغي أن أعيشها. ثم نجوتُ من قسوة شهلة البرق؛ فقد أسعفني الله بعمرٍ آخر، قبل ما يربو على ثلاثين عامًا.

ظننتُ أنّ تلك الأيّام لن تتكرّر، لكنّني أسير باتجاهها مجدّدًا.

لمَن أشكو حالي يا ربّي العالي! تمتمتُ وأنا أقود سيارة الهوندا. الساعة نحو الحادية عشرة، في هذا الصباح الحارّ من 1990. أنا الذي خضتُ حربَيْن من غير أن تمسَسني طعنة أو رصاصة، ثمّ هزمني مَن وثِقتُ فيهم. كان يجب أن أكون في البيت غير مرتابٍ من خاتمتي، مستلقيًا على الأريكة، أحدّث نفسي كما هي عادتي منذ صغري، التي قضيتُه في بيتنا القديم في القرية.

كان بيتًا حيطانه من طينٍ وسقفه من قشٍّ وسعف نخيل، يحفظ دفئًا في الشتاء ورطوبة في الصيف. يمتد قبالته حقل ينقسم نِصفَيْن متساويَيْن مثل ردفَيْن، تفصل بينهما بئر؛ نصف تسرح فيه

عنزات، وآخر نغرس فيه البطاطا والبصل والطماطم والأشجار المثمرة. ورث أبي الحقل عن جدّي الذي أخلص للفرنسيين. فيه تعلّمت حلب العنزات، بعد أن أعزل عنها صغارها فلا تجفّف ضروعها، التي أعصر حلماتها بلطفٍ مثل من يعصر حبّة ليمون. قبل أن تمخض أمي الحليب في قِربةٍ، وهي تدندن أغانيَ وأنا أردّد كلماتها من خلفها. تُخرج منه الزبدة، فأبيعها في السوق مع أخي الذي يكبرني بثلاثة أعوام. وعندما نعود إلى البيت، يخطف منّي أكلي، فأركض خلفه، نلعب الغميضة وأعجز عن العثور عليه.

ظننتُ أنّني سأقضي عمري في سَقي الأشجار وتلقيح النخيل، في التسابق مع العنزات وتربية القطط والكلاب، والإصغاء إلى أحاديث أبي مع أصحابه المتحلّقين حوله، وهم يدخّنون تحت القمر، بينما أمي نائمة، في قريةٍ لا طبيب فيها ولا كهرباء، كُتّابُها يقصدُه الذكور دون الإناث، ونسوتها يَطهون الخبز في تنانير من طينٍ، ويضعن مواليدهنّ مستعيناتٍ بالجدّات. لكنّ الجفاف باغتَنا؛ أضربتْ السماء عن الإمطار وأقلع الفلّاحون عن حرث الأرض، فسمعتُهم يقولون: «هذا عام الشر».

مرضتْ العنزات وأمرضني حليبها، فاعتنتْ بي أمّي. كنتُ كلّما فتحت عينَيّ رأيتُ دمعًا يسيل على خدّيها وهي تتمتم أدعية:

– علاش تبكي يمّا؟

– دخل غبار في عيني.

أعرف أنّها تكذب، وتعرف أنّني لا أعترض على كلامها. صبرها معي شفاني، ثمّ توالت أيّام تهبّ فيها ريح مثل اللهيب، محمَّلة بقوافل جراد. فخرجت النسوة من بيوتهنّ على ظهور بغالٍ، يحملن دمية عروسٍ مصنوعة من قماشٍ، ويهتفن: «السبولة عطشانة... اسقيها يا مولانا».

ثم ذبحن عنزة، أكل من لحمها الفقراء وعابرو السبيل، لكنّ الغيم لم يزرنا. جفّت البئر وباع أبي نصف الحقل بنصف ثمنه، محتفظًا بعنزاته، وسمعتُه يقول: «إذا المطر يتباع، أشتريه».

طال الحرّ، فباع البيت والنصف الثاني من حقله، بعدما أخلى سبيل العنزات تهيم على وجوهها، بحثًا عن كلأ لها. وقصدنا بوسعادة، فالمدينة مأوى الفارّين من الفقر ومن جفاف السماء.

وصلنا إليها بحثًا عن كلأٍ لنا، وشممتُ فيها أريج أزهارٍ تتدلّى من شُرُفاتٍ، كما رأيتُ فيها نساءً ورجالًا يمشون في الشارع، ممسكين بأيدي بعضهم البعض من غير خجل.

تخلّصتُ من الرَوث وروائحه التي تُزكم الأنوف، مثلما تخلّصتُ من طاقيّتي المصنوعة من سعف النخيل، ولبستُ البنطلون. أمّا أبي، فاستقرّ بستانيًّا في بيت الطبيب إميل فراي، يعتني بأزهاره وشُجيراته، يسقيها ويقلّب تربتها ويسمّدها. يقتاتُ بالتين المجفّف، ولا يتكلّم سوى حنينًا إلى بيتنا القديم، مخاطبًا أمّي: «المهمّ نقبض رزق حلال، يلبّي عولتنا وكسوتنا».

حال دون عملها منظّفةً في بيت عائلةٍ ميسورةٍ، «المرأة ما تخرجش من دارها»، كما قال. ودارنا ليست سوى مرأبٍ رطْبٍ تعشّش فيه حشرات، مجاورٍ لبيت إميل، الذي لم ينعم بأطفال. فنراه يقبّل زوجته الخيّاطة، كلّما عاد من العيادة أو من جامع النصارى، ويحضنها إلى صدره فتحمرّ خدودنا من الخجل، وقد نصح أبي: «دخّل ابنيك في مدرسة شالون». لكنّ أبي اعترض.

ظنّ أنّ المعلّمين سيُخرجوننا من سنّة الله ورسوله، يُنسوننا القرآن الذي حفِظناه في الكُتّاب. ثمّ تراجع مقتنعًا بفرنكات الطبيب وبكلامه الذي يخلط فيه فرنسيّة بعربيّةٍ، بأنّ التعليم سوف يعصمنا من مسح أحذية المارّة.

لم يمضِ الشهر الأوّل في المدرسة حتى طُرد أخي، بعدما وشى به طفل من قريتنا أنّ سنّه تجاوزت سنّ الصفّ الأوّل. فبقيتُ وحدي أجلس جنب تلميذٍ، تفوح منه رائحة بول.

كانت أمّي ترتق حذائي بسلكٍ معدِنيٍّ وترقع ثوبي. في الصيف، كنت أقتنص مِشمِشًا من حدائق بيوتٍ مترفةٍ، وأتعارك مع صِبيةٍ يسخرون من لكنتي القَرويّة، أو يصفونني بـ«بومنخار» بسبب أنفي الكبير.

في العام التالي تحالف أطفال، لم يسمح لهم آباؤهم بالتعلّم، لرشقنا بالحجارة كلّما خرجنا من المدرسة، لكن لم يطل الحال أن انصرفوا. وحلّت في صفّنا معلّمة جديدة اسمها مدام مارغريت، ببشرةٍ صافيةٍ مثل القطن، ووجنتَيْن مُحمرّتَيْن من أثر النعمة عكس وجناتنا، تحمل حقيبتَيْن. أغلقت الباب وألبستنا ثيابًا جديدة، ثمّ قالت لنا: «هذا بيتكم».

صارت تقلّم أظفارنا وتخلّص فروات شعورنا من القمل بمِشطٍ معدِنيّ. حدّثتْنا عن قائدٍ اسمه شارل مارتيل: «هزم خصومه كلّهم»، كما قالتْ. صدّقنا كلامها، فالأطفال يصدّقون مَن يكبرهم سنًّا. وعلّمتْنا أسماء جزرٍ وبلدانٍ بعيدةٍ فحلَمنا بالوصول إليها. مثلما علّمتني كيف أكتب باليد اليمنى بدلًا من اليسرى، «لأنّ اليمنى يد الله» كما نصحتْني.

واصلتُ تعليمي حتى الصفّ الخامس، حين طلبت منّا مدام مارغريت التوجّه إلى المستوصف، قصد تلقّي لَقاحٍ مضادٍّ لأمراضٍ مُعديةٍ، لكنّ الأولياء اعترضوا: «حابين يحقنون الأولاد بالأمراض»، علّق أحدهم.

لم تستمِلهم وعود المعلّمة بمنح كلّ طفلٍ مُلقّحٍ قِطعة صابون. واغتنم والدي توتّر الأجواء مع المدرسة، وقد بلغتُ الحادية عشرة من عمري وخاطبني: «يلزم تلقى خدمة».

أراد أن أبحث عن عملٍ، وأشاركه المصاريف. فجيبه صار مثقوبًا، بعدما سدّد مدّخراته في شراءِ بيتٍ ضيّقٍ مثل ضيق قلبه. فيما بات أخي يعمل نادلًا في مقهى يملكه رجل فرنسي، محتفظًا براتبه لنفسه من غير اقتسامه مع أبي.

اشتغلتُ ماسحًا للأحذية بعدما تركتُ التعليم، خلاف ما تمنّاه لي إميل. فالجوع جعلني أخفض رأسي أمام أقدام ذوي المال وأحسدهم على ما ينتعلون. وأنا أحزم سروالي بخيطٍ بعدما سقط زرّه، وفي الليل كنتُ أتوسّد نعلي على رصيفٍ أو تحت عريش. «وحداني غريب في بلاد الذيب»، هكذا كنتُ أصف حالي.

أشفق عليّ إسحاق بن زمير الذي كان يتكلّم العربية، يدندن بالإسبانية، ويصلّي بالعبرية. يرتدي القندورة المحليّة ويعتمر طاقيّة. ألحقني ببيته، حيث يداوي الناس بأعشابٍ بريّةٍ، أدوّن أسماء المرضى وأنظّمهم في طابورٍ، قبل أن يلجوا حُجرته، واحدًا تلو الآخر. لم يكن عملًا يملأ الجيب، فاشتغلتُ في مدّ سكّة القطار مع عمّالٍ آخرين. بعد إتمام المشروع انقطع رزقي، فاكتفيتُ بتدوير الخردة وإعادة بيعها، أو اختلاس عجلاتٍ، متحمّلًا شتائم أبي الذي كان ينعتني بـ«ابن حرام».

قبل أن ألتقي بودو الذي يصغرني سنًّا. كان حكّاءً بذاكرةٍ أقوى من ذاكرتي، ولم يزدرِ قَرويّتي.

«اللي يسبّ المخلوق، يحاسبه الخالق». قال لي.

لكنّه واصل مناداتي بـ«بومنخار»، مثلما يفعل الآخرون.

كنّا بائسَيْن مثل قطط الشوارع، وهو يؤنسني بقوله: «مَن يعش فقيرًا في الدنيا، فسوف يُجازى بالغنى في الآخرة».

ثمّ رافقني في التلصّص على سيقان النسوة، وهنّ يتنزّهن أو يتسوّقن. نسترق النظر إلى نهودهنّ وهنّ يُرضِعن صغارهنّ على ناصية طريقٍ أو تحت نخلةٍ أو شجرة. وحلَم معي بأن نحضنهنّ، لكن مَن عساها تحضن مراهقًا تفوح منه رائحة عرق!

ثمّ أسمعني بودو، وهو يفرك شحمة أذنه، ما سمعه من قريبٍ له، بأنّ العاصمة تتيح العمل لمَن «يشمّر عن ساعده». تخيّلتُ العاصمة مدينة غنائم. سمعتُ أنّ فيها محالَّ تعرِض فواكه آتية من جزرٍ بعيدةٍ وفيها نساء مثل الحور العين، يلبَسنَ أحلى الثياب ويتعطّرنَ بأعذب الروائح. فركبتُ القطار وصرتُ عتّالًا في مينائها، في شحن البواخر وتفريغها، من الرابعة صباحًا حتّى الثانية ظهرًا. أستر وجهي بوشاحٍ أيّام البرد، وتصفع الشمس ظهري في أيّام الحرّ، وأنام ليلًا في غرفةٍ لا تتعدّى مساحتها أربع خطواتٍ بأربعٍ، مع عتّالين آخرين. وسألوني:

– من أين جئتَ؟

– من بوسعادة.

لكن لم يسمع أحد منهم بهذه المدينة، التي تحاصرها رمال الصحراء.

– التي عاش فيها الرسام إيتيان ديني، أردفتُ.

لكن لا يفقه أحد منهم في شؤون الفنّ.

– التي نأكل فيها طبق الزفيطي!

لحسن حظّي، فإنّ وفاءهم لأمعائهم جعلهم يعرفون من أين جئتُ، لأنّهم يعرفون ذلك الطبق، الذي يُصنع من خبزٍ وتوابلَ وفُلفُلٍ حارّ. كانوا يبتدعون أمراضًا وآلامًا في تبرير غيابهم عن العمل. ورحتُ

أتبارى معهم في قياس طول أعضائنا، ومَن يفوق عضوه طولًا يحظى بالنوم في السرير الوحيد، بينما الآخرون ينامون على أكوام قشّ.

ثمّ جاء شارلي شابلن على متن باخرة. كنتُ في السادسة عشرة وفرحتُ عندما امتطيتُ ظهر شاحنةٍ، مع عتّالين آخرين، ورافقنا مركبته إلى الفندق.

في اليوم التالي، رأيتُ شابلن يحمل كيسًا مُعبَّأ بالبرتقال، ويدخل محلَّ تحفٍ قديمةٍ، فظفرتُ بقبّعته. مع أنّ الحاسدين قالوا إنّني اختلستُها، والله يعلم أنّني التقطتُها من الأرض بعدما وقعت منه، إثر تدافعي مع آخرين لمصافحته.

ثمّ حلّ عام البطون الخاوية فجر الأربعينيّات، فتطوّعتُ في الجيش، بعدما دفنتُ والديّ. لقد أصابهما الطاعون، وقضيا أيّامهما الأخيرة في حمَّى وعرقٍ، معرِضَين عن أكلٍ أو شربٍ، في زمنٍ عزّ فيه الأطبّاء والدواء. بينما أُعفيَ أخي من التجنيد، بسبب تفاوتٍ في طول ساقيه. شاركتُ في الحرب العالميّة على الجبهة الإيطالية، باسم قوّات الحلفاء وتحت هُتافات «تحيا فرنسا». وعضّ البرد نُخاع عظامي واحمرّ أنفي مثل مهرّج، وأنا لا أحلم سوى بكوب قهوةٍ ساخن. فقد مُنع إشعال نارٍ حذَرَ لفت انتباه العدوّ. أُعجب الضابط ببسالتي وحيلتي في زرع القنابل، فنقلني إلى سَريّةٍ أخرى، وصادفتُ بودو في خندق:

– كيف نقاوم الصقيع؟ سألتُهْ.

فأجاب:

– مثلما قاوم الفرنسيّون الحرّ عندما وصلوا إلى بلدنا صيف 1830.

قضينا أيّامًا في الخنادق الموحلة التي تشبه القبور وخلف المتاريس، بين قلقٍ وبكاءٍ مكتومٍ، نتراشق الحديث عن بوسعادة، عن

مقاهيها وأُناسها وحاراتها. أحكي له عن أمّي التي طال حِدادي عليها، وأحسد الذين طالت أعمار أمّهاتهم. وعندما يجفّ الكلام كان يدندن أغانيَ، وأنا أطبّل على صفيح.

– إذا لم نَقتل فلن ننجو، قال لي.

صار القتل هوايتي، فكلّما أسقطتُ أحد جنود العدوّ شعرتُ بأنّ عودتي إلى البلاد قد اقتربتْ. توالتْ علينا أيّام نصل فيها نهارها بليلها في سيرٍ بلا توقّف. ومشَينا مرّةً من طلوع الشمس إلى مغربها، بين ساحتَي معركتَيْن، كأنّنا أمّ أربعةٍ وأربعين لا بشر. فليس الجنديّ الجيّد مَن يقاوم بسلاحٍ فحسب، بل مَن يتحمّل المشيَ كذلك. ثمّ نمنا في العَراء، مستسلمَيْن للقوارض التي تطوف بين أرجلنا ولروائح الروث. ولم يوقظني سوى ضوء النهار، بلحيتي التي طالت وقملٍ يتنزّه فيها.

انتهت الحرب، وعدتُ منها بوسامٍ ومالٍ أقلّ ممّا حصل عليه مجنّدون فرنسيون. وعندما احتججْتُ، أجابوني: «تكاليف العيش في بلدك أقلّ ممّا هي عليه في بلدنا».

عدتُ لأكتشف أنّ الأسعار قد غلتْ، والناس يموتون بالتيفوس. اكتشفتُ أنّ إسحاق بن زمير قد أُسقطت عنه الجنسيّة ثم أُعيدت إليه، وأنّ أخي استولى على بيت والدي، مدّعيًا أنني هلَكتُ في المعارك، منتفعًا من بيعه. فاشتريتُ شاحنة نقل بضائعَ بعدما حُزتُ رخصة قيادة، ثم بيتًا، وشعرتُ بأنّني وُلدتُ من جديد.

وفّرتُ مالًا على نيّة الزواج ورفض أهالي المدينة مصاهرتي، لأنّني آتٍ من قرية. خشُوا أن تصيبهم الألسنة بالهمز والذم. إنّهم يدافعون عن سُمعتهم مثل مَن يدافع عن قوت يومه. فداومتُ على مراودة مبغى أنسى فيه همومي بين أحضان نساءٍ معوزاتٍ، يكذبن عليّ في كلماتهنّ ومداعبتهنّ، والكذب يريح بالي. قبل أن يُدخلني

إمام الحيّ بيته، ويُجلسني قبالة زوجته التي عملت خاطبة، تُزوّج العزّاب أو مَن يريديون زوجة ثانية. قبض زوجها منّي مبلغًا، نيابةً عنها، فحدّثْتني عن قمرة:

– يتيمة وبنت أصول.

– ورأس يمّا لن أقصّر في حقّها، جاوبتُها.

– تعرف شغلات الدار وحاذقة.

أخبرتُها عن أصولي، فهوّنتْ من الأمر:

– كلّنا أبناء تسعة...

تعلّمتْ قمرة إطاعة إخوتها الذكور قبل أن تتعلّم الكلام؛ تطهو وتغسل لهم. دفعتُ لأخيها البكر مهرها بشكل أكياس قمحٍ، لأنّ عمله كعشّابٍ زاده فقرًا، فعجّل به إلى تزويجها وهي في الخامسة عشرة. لم أرها سوى ليلة الدخلة؛ أمطتُ الطرحة عن وجهها وذبحتُ ديكًا أمامها، بعدما دستُ ساقيه وجَناحيه برجليّ. أدرتُ رأسه نحو القِبلة، ثمّ مرّرتُ الخِنجر على عنقه، فانهمر دمه ولعقتُه بإصبعي. كذلك يفعل الرجال في تخويف زوجاتهنّ وفرض طاعتهنّ لهم. لقد خطوتُ إلى الزواج مثلما خطوتُ إلى الحرب، من دون أن أعرف الشخص الذي يقابلني. شُغفتُ بقمرة التي تصغرني بعقدَيْن، وأنجبتُ منها طفلَيْن. كنتُ شرهًا في حبّي لها، ثمّ استحال الحبّ مللًا، وسادت بيننا رتابة مع توالي السنين.

ثمّ زارني بودو في خريف 1954 موفدًا من لجنة الثورة، التي سوف تُسمَّى جبهة التحرير. وكان قد استقرّ في الجزائر العاصمة، عقب عودتنا من إيطاليا، وأتمّ فيها الدراسة.

تذكّرْنا أيّامنا بين الجثث، ونحن نتنازع علب سردينٍ كي لا ينخر الجوع أمعاءنا، ملأ حلقه بسجائر باستوس، ثم ملأ عقلي بكلماته عن أنّنا قادرون على تَكرار ما فعله الفيتناميون، الذين هزموا الفرنسيين

في معركة ديان بيان فو. شحنني حماسةً بعدما صبّ فرنكاتٍ في جيبي، ثم قال:

– انْسَ اسمك عزوز خالدي.

– تودّ مناداتي بومنخار؟

– لا!

– ...

– من اليوم كُنيتك كردادة.

نسبةً إلى الجبل الذي يحرس المدينة. ثمّ كلّفني مدّ العون في تكوين كتيبةٍ وفعلتُ.

خُيّل إليّ أنّ حربنا ضدّ الفرنسيين ستُجهَض قبل أن تولد. ولم يُتَح لي خِيار؛ فالرجل الذي يجبُن في الحرب يهُن قدره أمام الناس.

بودو أوصاني بشيءٍ واحدٍ: «اضرِب وأهرُب». من غير أن يحدّد العمليات التي يجب القيام بها.

في اليوم الأوّل من الحرب، الذي صادف الأول من نوفمبر وكان يوم إجازةٍ، والترمومتر يشير إلى 25 درجة، لأنّ الشتاء يتأخّر في الوصول، قطعنا توصيلاتِ الهاتف، منتهزَيْن خلوّ الشوارع من المارة، فقد احتشد الفرنسيون في جامع النصارى، احتفالًا بعيد جميع القدّيسين، ثمّ أحرقنا حافلة وكتبنا شعاراتٍ على الحيطان تدعو إلى الاستقلال.

في اليوم التالي، حامت مِروحيّة فوق رؤوسنا، ونعتتنا الجرائد بقُطّاع الطرق. ثم سمعتُ نبأً في الراديو، بينما كنتُ أتناول تينًا مجفّفًا، يفيد بأنّ الشرطة قد ألقت القبض على كلّ «المخرّبين»، فضحكتُ.

واصلتُ عملي في العلن، أبيع وأشتري قطع غيار المركبات، وسرًا أصنع متفجّرات. لكنّ الوضع لم يلبث أن انفجر. وبدلًا من أن نتصدّى للفرنسيين، انقسمنا إلى كتيبتَيْن، تقاتل إحداهما الأخرى.

واصلتُ عملي مع جبهة التحرير إلى أن التمس منّي رفاقي متفجّراتٍ، غداة اتفاقيات إيفيان التي أنهت الحرب، قصد تفخيخ مقهى أخي، فاحتججتُ.

دشّن أخي مقهاه بتبرّعات كتيبةٍ انفصلت عنّا، ومالت إلى الفرنسيين. كانوا يدخّنون فيه النارجيلة ويكتبون منشورات تَدين أعمالنا وتصفنا بالخارجين على القانون.

– أخوك عدوّنا، خاطبني أحد الرفاق القدامى.

– إنّ الله لا يحبّ المُعتدين.

ذكّرته بكلام القرآن، وتمنّيتُ أن ينطبق عليه المثل «الكلب اللي ينبح، لا يعضّ»، لكنّه لم يؤمن سوى بالبارود.

اختلفتُ مع أخي وتفرّقنا في كتيبتَيْن متخاصمتَيْن. كان بخيلًا معي وكنتُ كريمًا كما أوصتْني أمّي، ولم أرجُ موته. لم أنس رباط الدم الذي جمعني به. تلاسنتُ مع الرفاق القدامى بسببه، وأنا أعلم أنّ اللسان يجرّ صاحبه إلى ندامةٍ، فحكموا عليّ بالخيانة.

انتهت الحرب وغادر الفرنسيون، فصرتُ في نظر الرفاق القدامى عميلًا للاستعمار، أحد الحركى، كما نقول بالعامية. لأنّني أحجمتُ عن الاقتصاص من عدوّهم؛ أخي. قالوا إنّني كنتُ مندسًّا في الحرب وشطبوا اسمي من قائمة المناضلين، جرّدوني من بطاقة هُويةٍ وحرموني التصويت أو الإدلاء بشهادتي في محكمة. كما لم يسمحوا لي بحضور المِهرجانات القومية. لم يكن ذلك قدَري وحدي، فقد حكموا على آخرين مثلي بالعمالة. سجنوني وعذّبوني وقضيتُ عمرًا من غير أن أستردّ حقّي.

أحسستُ بيدٍ تربّت على كتفي، رغم أنّني وحدي في السيارة. لا بدّ أنّها يد أمّي. يحصل أن أرى شبحها وهي تجلس إلى الأريكة أو على الأرض. تظهر بملامحها كما عرفتُها، نحيفةً بعينَيْن لامعتَيْن.

أكلّمها فتردّ عليّ؛ لو أخبرتُ أحدًا أنني أحدّث ميّتة لظنّ بي سوءًا. ظلّت يدها تربّت على كتفي، وطفت صورة شارلي شابلن في ذهني، حين أشار إليّ شرطي في حاجز أمنٍ، أن أركن إلى اليمين، وطلب منّي: «وثائق السيارة، من فضلك!»

لا أملك وثائقها، لأنّها ليست ملكي، وصاحبها عند ربّي.

صرتُ محلّ شبهةٍ، واقتادوني إلى المخفر.

* * *

كتب إدريس بادة مفتّش الشرطة، معلومات المُشتبه به: «عزوز خالدي، من مواليد 1915 بقرية سيدي لمّو، مقيم في حيّ الهضبة، متقاعد».

تساءل عزوز كم سيطول التحقيق معه. وهو يعلم أنّ المكان الذي يجلس فيه قد يُحيله إلى سجنٍ طويل الأمد.

– هل فتّشتم بيتي فعلًا؟

فقد سمع من شرطي أنّهم ينوون تفتيش بيته، وامتعض من فكرة أن يُفزعوا زوجته.

– ننفّذ القانون، ردّ عليه إدريس بادة.

ضايقه أنّ تفتيش بيته سيثير فضول الجيران.

– لن يناموا قبل أن يخمّنوا سبب توقيفي، سأصير نكتة بين الألسنة.

– ...

– رغم أنّ صحيفة سوابقي العدلية لا شائبة فيها.

ظنّ أنّ تلك الجملة من شأنها أن تجعل مفتّش الشرطة يرأف به، لكنّه تجاهلها وسأله:

– هل سنة ميلادك المدوّنة صحيحة؟

– نعم.

بدا له أقلّ من عمره. يعلم أنّ أهل القرية لا يسجّلون أبناءهم عند الـولادة، بل يتقاعسون لأنّ الإدارات بعيدة عنهم، وغالبًا ما يخطئون في تواريخ ميلادهم.

– هل ملاحظتك مدح أم ذمّ لي؟ سأل عزوز.

أجابه بنصف ابتسامةٍ مفادها الاحتمال الأوّل.

– أنـا حريص على صحّتي، كما أنّ ابنتي طبيبة ولا تبخل عليّ بالنصح.

لم يرها منذ اليوم السابق. قصدت هذا المخفر عقب تسلّمها استدعاءً بالمثول، ولم تعد إلى البيت. يقضي القانون بانتظار يومَيْن، قبل السؤال عن شخصٍ موقوف. مع ذلك، سأل عزوز عنها، وادّعى إدريس بادة عدم علمه بأمرها.

شعر بلا مبالاةٍ في نبرة محدّثه، وأجّل العودة للحديث عنها إلى حين.

– أنا في سنّ والدك. هل يهون عليك أن ترى والدك يُستجوب؟

أعلمه المفتّش أنّ والده يرقد في جبّانة مغراري.

– ارتاح من دار الدنيا، أمّا أنا، فقد خذلتْني.

– لماذا؟

– لأنّني اهتممتُ بصحّتي وأهملتُ سُمعتي... مَن هو والدك؟

– جودي بادة.

عرف عزوز جـودي، وعرف زوجته، أي أمّ إدريس بـادة. سأله متظاهرًا بعدم معرفتها:

– أرجو أنّ أمّك في دار الدنيا؟

– الحاجّة باية، الله يطول في عمرها.

وأبلغه أنّهم لم يعثروا على شيءٍ في بيته.

– ماذا تتخيّل أن يُخفي عجوز كحالي؟

– الحقيقة.

علم عزوز بالحقيقة من لسان ياقوت، حين قابلها في بيتها قبل أربعين يومًا. وتذكّر الوقائع، التي توالت منذ ذلك الحين، وأودت به إلى المخفر.

أ

اعترى ياقوت ضيقٌ تنفّس، وأخذتْ تستنشق بَخّاخها. شمّرتْ كُمّي روبها البنفسجيّ الفضفاض، فظهر ساعداها النحيفان، وطفِقتْ تطوف حول الطاولة، بعدما أطلّتْ خُصلٌ بيضاء من شعر رأسها، المعصوب بخِرقةٍ ملوّنةٍ، واستحال وجهها رماديًا مثل لون شعري. تيبّستْ شفتاها، وأخذتْ تزفر كمَن خرج لتوّه من حفر بئر. طقطقتْ أصابع يديها ورجتْ ربّها أن يخلّصها ممّا حلّ بها: يا سيدي ربّي... استر.

خيّل إليّ أنّها مريضة أو أنّ همًّا أصابها، مع أنّها لم تبدُ عليلة. لم يعكّر علاقتها بعلية القوم أمر؛ تفيد الشرطة بمعلوماتٍ عن زبائنها عندما يهاتفونها، وتحفظ مسافة أمان مع الساسة.

كانت الساعة الرابعة عصرًا. انتظرتُ أن تسند ظهرها إلى الحائط لتشعلَ سيجارة، فخفّ اضطرابها، قبل أن أسألها عن علّة قلقها، بصوتٍ هادئ. تمامًا كما أكلّم حفيدتي مينة، التي لم تعجبها حكايتي عن شارلي شابلن ذلك الصباح، واستغربتْ أنّني تبعته من الميناء إلى الفندق عندما حلّ بالبلاد. أردتُ طمأنة ياقوت إلى أنّه مهما حصل لها فسأكون إلى جانبها.

– إحدى بنات الدار حامل.

قالتها وهي تخفض بصرها.

مع أنّها تفرض عليهنّ صرامة في الوقاية؛ فكلّما حلّتْ وافدة جديدة في الدار، أكرمتْها بالمأكل والملبس، ثمّ فحصتها من الأمام والخلف كمَن تفحص شاة. تزوّدها بسريرٍ ومِنشفة حمّامٍ، تلقّنها كيف تكلّم الرجال، وتشتري لها ما يكفي من الواقيات الذكرية وحبوب منع الحمل، ثم تطلق عليها اسمًا مستعارًا. «مَن يعرف اسمكِ، يعرف سرّكِ» هكذا تظنّ. فهي تُلبس بنات الدار تسميات زهور: نرجس، ليليا،

ياسمين، نسرين، سوسن... يتكلّمن لهجاتٍ مختلفةً، وتوصيهنّ بعدم الثقة في الغرباء، بأن يحتجزن قلوبهنّ في صدورهنّ ولا يُفصحن عن عواطفهنّ. وتُخضعهنّ لفحص طبيب بانتظام، حَذَرَ الأمراض المُعدية. وهي لا تُفشي أسماء زبائن الدار، إلّا إذا سألها الأمن عنهم أو اقتضتْ الحاجة القصوى.

– لا أريد أن أرى طفلًا يقاسي غياب والديه، كما وقع لابني. صارحتْني.

طردتْ امرأتَيْن، سابقًا، بسبب عدم احتياطهما الذي أودى بهما إلى الحمل، فندمتْ. حين تطرد فتاة تقلّ مداخيل هي بحاجةٍ إليها: أنا أرأف بالبنات لكنّهن لا يرأفن بحالي. أردفتْ.

اشتعل قلبي بحبّ ياقوت، عقب اشتعال معركة الجزائر عام 1957. كانت في الحادية والعشرين من عمرها، في «مقهى روز» نسبةً إلى اسم صاحبته، الذي كان يقصده زبائن من الأهالي ومن الفرنسيين. يشربون نهارًا ويرقصون مساءً، مع نسوةٍ يحرّكن أكتافهنّ وخصورهنّ، على إيقاع الغايطة والبندير، طمعًا في مَن يدفع لهنّ مقابل الانفراد بهنّ. كنتُ ألج المقهى متخفّيًا بنظّارةٍ ومعتمرًا قبّعة شابلن، فجبهة التحرير حظرتْ علينا شرب الخمر، «من أجل تكبيد فرنسا خسائر»، كما قالوا. لكنّ القادة ظلّوا يشربون، وانتهى بهم الأمر إلى إلغاء الحظر.

لم أكن مدمنًا الشرب. كنت مكتفيًا بما يغسل خوفي من أن يعتقلني البوليس، فيُحيلني على المِقصلة. أُفرغ كؤوسًا في بطني فأشعر بأمانٍ، تزداد عيناي اتساعًا وأنا أحدّق إلى خاصرة ياقوت، وأنسى رتابة ليلي مع زوجتي، التي كانت حُبلى بابنتنا عقيلة.

شغفتْني ياقوت بحرارة ابتسامتها التي تروّض القلوب، وانحناءات بدنها وهي ترقص مثل مجذوبٍ، تحت إضاءةٍ خافتة.

جسمها الممتلئ كان يحتفي بالحياة وهي تحرّك رجلَيْها في ثقةٍ، مرتديةً فستانًا مطرّزًا بخيوطٍ ذهبيّةٍ، يتوسّطه حزام مرصّع بأحجارٍ لامعة. تلفّ عنُقها بسخّاب عنبرٍ، ويزيّن جبينَها «خيط الروح»، مصنوع من فضّة. تفرض إيقاعها على زميلاتها في تحريك أكتافهنّ وخصورهنّ، أمّا أنا، فكنتُ أعدّل ربطة عنقي كلّما نطقتْ باسمي: «عزوز». صوتها كان أجمل أغنيةٍ ترنّ في أذنيّ.

ظننتُ أنّ شغفي بها يشبه قطعة سكّر، سرعان ما تذوب تحت اللسان. لكنّني أحببتُها والحبّ يعيد الرجل إلى سذاجته، في زمنٍ لم يكن فيه الوفاء للزوجة شائعًا. لكنّ غثيانًا داهمني حين لعقتُ أوّل قبلةٍ من شفتَيْها الرطبتَيْن. كان لُعابها بطعم الوفاء، ونفذت إلى رئتَيّ رائحة عطرها.

خطّ لي الشيخ عكشة حرزًا بدم ابنه بلخير، وطلب منّي أن أدسّه في جيبي كلّما دنوتُ منها، فانفتح باب قلبها. كنتُ أقتاتُ عسلها بلساني، الذي يزحف من شفتَيْها إلى أنفها ذي المِنخرَيْن الواسعَيْن، من غير أن ينجو من زلّاته في خلط اسمها باسم زوجتي. لقد شغل زوجتي اعتنائي بهندامي، في تلك الأيّام، وعندما سألتْني عن السبب، صفعتُ الباب خلفي وخرجتُ.

كنتُ أقتسم مع ياقوت لِفافة حشيشٍ مخلوطٍ بالحِنّاء، فينبُتُ لنا جَناحان ونشعر بأنّنا نطير. أنزل على شفتَيْها، فأنسى خوفي، ثمّ تبرق عيناها وننخرط في ضحكٍ عندما أرتـدي ملابسها، وأُحاكي رقصها. نقتاتُ بحَبّات تينٍ مجفّفٍ، ثمّ نتشابك مثل بطّتَيْن تتعاركان على صفحة الماء، غير مباليَيْن بصرير السرير... في بيتٍ يؤجّر غرفًا للعشّاق، مضاءة بفوانيس ومعطّرة برائحة بَخور. تتسارع أنفاسها كلّما قبّلتُ بطنها المشدود من كثرة الرقص، أو كلّما مسحْتُ عنقها بشفتَيّ، فترتفع تأوّهاتها، وتنزلق أصابعها الناعمة على ذقَني الأزغب

مثلما تنزلق ريشة في الهواء. تقود إيقاعي كما تشتهي وأنا ممتثل لها. ثمّ تشعّ قطرات عرقٍ من بدنها تشبه حبّاتِ ياقوت، فتُطابق صفاتُها اسمَها الذي أطلقتْه عليها أمّها، بحكم أنّها لم تعرف والدها.

تلك هي السعادة التي عرفتُها إلى جانبها؛ لحظات لا تدوم لكنّها ترسَخ في البال. كنت مستعدًّا أن أتنازل لها عن عينَيّ، مقابل أن يطول الزمن وهي تحضنني وأنا أهمس في أذنها: «ياقوتتي».

لكن لم يطل الزمن أن باحت لي: أنا حامل.

ظنّت أنّ الخبر سوف يُفرحني، لكنّني شعرتُ بضيق تنفّسٍ، وبأنّ سقف المقهى سيسقط على رأسي. كانت مثل أخريات، حتّم عليهن الفقر مقايضة المتعة بالمال. وكنتُ مثل آخرين، خوفي من الاعتقال دفعني للهرب إلى تحقيق نزواتي. ذكّرتُها أنّني متزوّج، ولم أشأ أن تسوء علاقتي مع الإمام الذي توسّط لي في الزواج، وقصدتُ الطبيب إميل فراي أرجوه مساعدة، فصدّني: «لا تقتل طفلًا»، قالها وهو يرسم إشارة الصليب.

لم تُفدها الأعشاب في التخلّص من الجنين، ولم تحتمل روز غيابها عن مقهاها، فاستبدلتْ أخرى بها.

أقامت في بيت باية، التي لها عينا جنّ مثل لون السماء، مخفيةً حملها عن أمّها. جاورت صديقتها، التي علّمتها الرقص في المقهى، والتي اعتادت التنازل عن مالها لزوجها جودي، خشيةَ أن تنام في الشارع. حين حبلتْ باية وتوقّفتْ عن العمل، لم يجد زوجها مالًا يشتري به شرابًا، فتخلّى عنها. صرفتُ على المرأتَيْن، من مال تبرّع به محسنون في دعم حرب التحرير، إلى أن أنجبتا. سمّتْ باية طفلها إدريس، وتنازلتْ ياقوت عن ابني منها، بوجهٍ مضرّجٍ بالعار، لعائلةٍ مسّها عُقر. أوصتْ الأب بالتبنّي، الذي كان زَبونًا في المقهى، ويعمل مترجمًا في ثكنة الفرنسيين: «أَحِبّ الطفل واعتنِ به».

لم يُتِح لها شظف العيش الاحتفاظ بالطفل، لكنّها حفظتْ ودّها نحوي، رغم زواجها عقب الاستقلال برجلٍ يكبرها بربع قرن. كان يمنعها من الخروج من البيت إلّا في صحبته. «زين المرأة في حشمتها»: كما قال لها. ثمّ دفنتْه من غير أن تنجب منه، بعدما أصابه تليّف كبد، وفقد نصف وزنه في الفراش، فأورثها قسوة في قلبها وحذرًا من الرجال، وبيتًا باعتْه واشترتْ آخر على المخرج الشَمالي للمدينة، أصل إليه عبر مسلكٍ محفوفٍ بالحُفر، وتصل إليه المركبات وهي تتأرجح في سيرها. أقصده مثل مَن يقصد خيمة آمنة، فلا مكان لي آخر أجلس إليه. أنا لا أجرؤ على ارتياد المقاهي، حذر مصادفة أحد معارفي القدامى فينعتني بالحركي أو العميل، تلك التهمة التي أُلصقت بي ولم أتخلّص منها.

آوت إلى بيتها كذلك نسوة وفتيات آتيات من بقاع نائية، اتخذنها أبًا لهنّ. ينادينها بابا ياقوت، يدفعن لها إتاوةً كلّ شهر ويرسلن الباقي إلى ذويهنّ، لقاء تكسُّبهنّ من إمتاع العابرين، من سائقي شاحناتٍ على مَسافاتٍ بعيدةٍ أو رجالٍ فشلوا في إرضاء زوجاتهنّ، أو مراهقين يختبرون فحولتَهم.

وفي حُجرةٍ جانبيّةٍ، في حوش هذا البيت، أصل إليها من باب المرأب الخلفيِّ، كي لا تراني العاملات ولا زبائنهنّ، أجتمع بزملائي؛ أولئك الذين غدرتْ بهم الحياة، بعدما كانوا مناضلين، أُلصقتْ بهم كذلك تهمة الحركى. بعضهم لأنّهم كانوا على صلةٍ مع حزبٍ يُعادي جبهة التحرير، وآخرون لأنّهم اختلفوا مع رفاقٍ لهم في الرأي، كما حصل معي، وغيرهم ممَّن شُكَّ في خيانتهم من غير قرينة.

نلتقي في هذه الحجرة المفروشة بزربيّةٍ مزركشةٍ، ابتعتُها من نسيبتي. تتوسّطها طاولة واثنا عشر مقعدًا، طُليت جدرانها بالجبس، ويتدلّى مصباح من سقفها، ولا تهوّيها إلّا نافذتان صغيرتان؛ واحدة

تطلّ على الشارع المُقفر والثانية على الحوش. فنلجأ إلى مراوحَ يدويةٍ مصنوعةٍ من الحَلْفاء، لتلطيف الجوّ. نتدارس وضعنا في هذا المكان الذي لا يثير رِيبة مُخبرٍ أو فُضوليّ. فياقوت تُبلغ الأمن عن زبائنها لا عنّا. مَن يدخل دارها، لا يُظنّ به سوى أنّه جاء لإفراغ كبته أو خيباته. لن يفكّر أحد في أنّنا نجتمع فيها بحثًا عن مخرجٍ من التهمة، التي لُفّقت لنا قبل ما يربو على ثلاثين سنة.

يا لها من دنيا عجيبة! نحن عالقون في ماضينا في هذه الحجرة، يجاورنا أشخاص يتلذّذون بحاضرهم، بالقُبل والعناق...

– مَن تكون هذه الحامل؟

سألتُها وأنا أدعَكُ ساعدي، مع أنّني لا أعرف بنات الدار. يحصل أن ألمح بعضهنّ في الحوش، يدخلن بيت الخلاء أو يخرجن منه، مستعرضاتٍ ملابسهنّ الداخلية وكعوبهنّ العالية، وشفاههنّ المطليّة بالأحمر. أتلصّص عليهنّ وهنّ يضحكن أو يتوشوشن، لكن لم يسبق أن دنوت منهنّ، فعلاقتي بهذا المكان تنحصر في الحُجرة.

– ريمة، أجابتني.

لم أعلم أنّ ريمة سوف تقسم حياتي نِصفَيْن.

* * *

واصل إدريس بادة طرح أسئلته، ونبّهه عزوز إلى ضَعف سمْعه. فساور مفتّشَ الشرطة شكّ في أنّها حيلة، يبتغي منها نيل قسطٍ أوفر من الوقت، قبل الإجابة عن كلّ سؤال.

– ليس صحيحًا.

حكّ خدّه الأيمن وأردف:

– لستُ شابًّا مثلك، فقد قضيتُ شبابي في النضال، ولم أجلس إلى كرسيّ من جلدٍ مثلما تفعل.

ألقى إليه إدريس بادة نظرة وهو يزمّ شفتيه. لم يَرِد في ملفّ المشتبه به انضمامه إلى حرب التحرير. وصارحه بما جال في خاطره:

– ليس خطأك أنّك لا تعلم، بل خطئي أنا.

وودّ أن يضيف: ليس خطأك أنّك لا تعلم أنّني اعتنيتُ بأمّك كي تخرج إلى الدنيا. لكنّه تدارك:

– تعلّمتُ أنّ الذي يعيش عزيزًا يَفنى ذليلًا.

أخبره المفتّش بصوتٍ مسموعٍ أنّ الوقت ليس ملائمًا للعودة إلى الماضي، لكنّ عزوز أصرّ على شرح وضعه:

– لا أمتلك بطاقة مجاهدٍ، لقد أدّيتُ واجبي وطويتُ الصفحة.

سايره إدريس بادة في كلامه:

– هل تودّ معاملة خاصّة بحكم أنّك مناضل سابق؟

قصد منها تأجيل مساءلته.

– لقد فات الأوان!

لا يزال مصرًّا على أنّهم أفزعوا زوجته حين فتّشوا بيته، وجعلوا حكايته على ألسن الجيران.

– لا أظنّ أنّ جيرانك يهمّهم أمرك.

– إنّهم جيراني وأعرفهم أفضل منك.

– لن تراهم مرّة أخرى، ختم مفتّش الشرطة.

ولن أرى ياقوت كذلك؟ علق السؤال في حنجرة عزوز.

ب

غرقت ياقوت في صمتها، بعدما داست عقب سيجارتها. وسألتُها:

– ما الذي تنوين فعله؟

لم تُجبني، في الحين، وهي تحدّق إلى زاويةٍ من سقف الحُجرة غزتْها الرطوبة، فاستحال لونها قاتمًا. لطالما اقترحتُ عليها أن أشترك مع زملائي في توفير مالٍ لنرمّم البيت، لكنّها تمنّعتْ.

«لا أودّ لفت أنظار الناس»، جاوبتْني.

فهي تحرص على الظهور في أثوابٍ متواضعةٍ، مستغلّةً مالها في شراء عَقارات. ولستُ أعلم لمَن تنوي توريث خيراتها.

وددتُ أن أُفاتحها بأنّه لا عيب في أن يولد طفل مجهول الأب. فابننا وُلد في لحظة طيشٍ، وياقوت لم تخذلني ولم تخبر العائلة التي تبنّته عن نسبه إليّ. ويخيّل إليّ أنّه عاش كغيره من معروفي النسب، مع أنّه لا أخبار لي عنه. لكنّني حفِظتُ لساني في فمي، بدلًا من أن تردّ عليّ، بأنّ فَعلتها معي كانت في سنوات شبابها ولم تكن واعية بمآلها، أمّا الآن، فقد بلغتْ الرابعة والخمسين. لقد احتفلتْ بعيد ميلادها، أوّل من أمس، في الـ29 من أبريل. ولا ترجو أن تسلك فتاة أخرى طريقها، فتقضي عمرها متحسّرةً، مثلما تحسّرتْ على مفارقتها ابننا.

– ما الذي أنوي فعله بريمة أو بمَن أوجد الجنين في بطنها؟

– من الصعب أن نعرف ممَّن حبلتْ، قلت.

زبائن الدار كثر، ومن المحتمل أنّ تلك الفتاة جامعتْ أكثر من رجل، من مراهقين إلى كهولٍ، وما حصل معها من شأنه أن يحصل مع أخرى.

– أم إنكِ تتلصّصين عليها من ثَقب الباب!

لفظتُ تلك الجملة قصد تليين مِزاجها، فراحتْ تُعدّد خصال ريمة؛ بأنّها خدوم، وعديمة التطفّل والفضول، وأنّها وجه سعدٍ على الدار. تَصادفَ مجيئها مع توافد زبائنَ جددٍ، من أصحاب الجيوب المنتفخة، لا أولئك الذين يرجون دفعًا مؤجَّلًا، وأفصحتْ أنّها لا تودّ خُسرانها، قلتُ:

– لا بدّ أنّ لها عشّاقًا!

– لا.

استغربْتُ جوابها، قبل أن تشرح لي أنّ ريمة لم تختلِ برجلٍ في الدار:

– إنّها تستأجر سريرًا لا أكثر.

متى صارتْ ياقوت مثل الأمّ تريزا، بهذا الكرم؟ وهي التي تؤثِر رائحة الدينار على الروائح الأخرى! عرفتُها تؤوي بناتًا كي يشتغلن ويدفعن لها، لا أن يستقرِرن في بيتها للإيجار... لكنّني أُقرّ بأنّ ريمة لا تشبه الأخريات.

ريمة لها وجه أنقى من هواء الصبح، وعيناها صافيتان تعكِسان صفاء روحها. ترشّ بلاط الحجرة، التي أجتمع فيها بزملائي، من حين لآخر، تلطيفًا للحرّ، وتحضّر لنا قهوة.

أُناديها «بْنَيتي» وتناديني «الحاج»، بثغرها الدائري مثل لؤلؤةٍ وصوتها الأقرب إلى دندنة. كذلك دأب الشبان، ينادون كلَّ مَنْ هرِم حاجًّا. مع أنّني لم أزر بيت الله، بعكس باية التي أوفدها ابنها إدريس إلى مكّة. ريمة لا تعرف اسمي ولا أسماء زملائي. «لكنّها تُنسي الرجل في زوجته»، تقول ياقوت.

لقد قرّبتْها منها فشعرتْ بأنّ الله عوّضها عن ابننا الذي ضاع منّا. «بوسعها أن تشلّ الرجال بنظرةٍ من عينَيْها»، أجزم في قولي، وخاصةً حين تبتسم، فتنحفر غمّازتان في خدَّيها.

ويحصل أن أتخيّل تلك الفتاة عارية، عندما ألوذ إلى فراشي ليلًا. أحلُم بها في أحضاني، لكن من غير واقٍ ذكريّ، فلا خوف من مرض عندما نتلاحم في الأحلام.

تخيّلتُ ريمة وقد انتفخ بطنها وهي التي ظلّتْ شحيحة في الكلام، لكن لا يمكن ألّا نتكلّم عنها. تسألني مرّاتٍ إن أعجبتني القهوة التي تصنعها بيديها، فأجيبها بهزّ رأسي وألحظ رضا في ملمحها. داعبتُها مرّة بقولي إنّ عشرات الرجال يتمنّون زوجة مثلها، فأجابتْني ضاحكة: «إن شاء الله يطول عمرك وتحضر عرسي».

– تتكفّل ريمة بتنظيف الغرف، واصلتْ ياقوت.

بما أنّها لم تقترب من رجلٍ في الدار، فلا بدّ أنّها حبلتْ من أحدهم خارجها، ذلك ما جال في خاطري. لن أصدّق إن ادّعتْ أنّها حبلتْ من جنّي، مثلما تدّعي أخريات كلّما انتفختْ بطونهنّ وهجرهنّ عشّاقهنّ. أضافت:

– لم تكن تختلي برجال.

استغربتُ كلامها وشرعتُ أنا كذلك في طقطقة أصابع يدي.

– لكنّ شخصًا كان يتعقّبها ويبدو حريصًا على الاهتمام بها.

– حبيبها؟

أو قريبها، مع أنّني أستبعد الاثنيْن. فما من رجلٍ يرضى أن تنزل حبيبته أو قريبته في هذا المكان، رغم أنّه مقصد الرجال. فبمجرّد أن يقضوا فيه وطرهم يلعنون البنات، وبعضهم ينصحونهنّ بالتوبة إلى الله.

– بل والدها.

رفعتُ حاجبَيَّ الرماديَّيْن، وشعرتُ بأنّني أسمع كلامًا لا يحتمله عاقل. أبٌ يسمح لابنته بأن تستأجر سريرًا في دار بابا ياقوت!

– هل والدها من كوكبٍ آخر؟ أم صار الناس متفتّحين وأنا لا أعلم!

لم تردّ على سؤالي، بل عادتْ إلى الطواف حول الطاولة. مِشيتها في تؤدَة ذكّرتْني بجارتي نوسة، التي تشبهها في استقامة الظهر رغم ثِقل السنين. فتحتْ النافذة الصغيرة التي تسلّل منها تغريد عصافير الدوريّ وذرّات غبار، وانتظرتْني أن أجلس إلى كرسيِّي لتخاطبني:

– أسكنها والدها هنا على أمل أن يجد لها مكانا آخر، لكنّ مكوثها طال وأنا لم أمانع.

لمّحتْ إلى أن يكون والدها قد غدر بها. لأنّه بلا شريكةٍ، وقد مازح ياقوت قائلًا: «بنتي كبرت طيزها». قدّرتْ أنّ ممازحته تُضمر رغبةً في ريمة التي «لها قلب طفلٍ» كما وصفتْها، وتؤمن بحكايات العفاريت. تصرّفاتها لم تبلغ سنّ الرشد، على الرغم من أعوامها العشرين.

– أتوقّع كلّ شيء، أجبتُها.

– لستُ أدري ماذا بوسعي فعله.

لو أنّني مكانها لأعلمتُ ذلك الوالد بتبعات فَعلته بابنته، فأقيم القيامة على رأسه ثمّ أُبلغ عنه. ليست المرّة الأولى التي أسمع فيها عن اغتصاب فتياتٍ بين أهاليهنّ، فقد بلغني ما فعله أحد جيراني الذي لم تسلم منه ابنة أخيه التي تعاني متلازمة داون، فتبرّأ منه أهله. لا يُعقل أن يوصل أحدهم فتاة إلى الحَمل، ثمّ ينعم بسلامٍ كمَن ضاجع يده أو اختلى بعنزةٍ، كما فعلتُ في صِغري.

– لماذا لا تتحدّث أنتَ معه؟

هذه المرّة الأولى التي تطلب مني التدخّل في شؤون دارها، التي أتردّد عليها منذ عشر سنين:

– لكن من شأن ذلك الأب أن يلجُم لساني، فلا علاقة لي بريمة على الورق.

– بل لَك علاقة.

كوني محاربًا سابقًا فأنا أفهم أنصاف الكلام، وقد التقطتُ ما قصدتْه. هل والد ريمة أحد زملائي؟ لقد عهدتُ إليهم الصراحة في علاقتنا، ويُحزنني أن يكون أحدهم قد استغل غفلتي وأقنع ياقوت بإسكان ابنته هذه الدار، ثمّ أحبلها. شعرتُ أنّ ثقتي فيهم قد اهتزت، فهوايتي خسران الصداقات، متذكّرًا كلام ابنتي عقيلة: «مَن لا يحبّ نفسه، لا يحبّه غيره». أنا لم أحبّ نفسي، عشتُ حياة جعلتْني ناقمًا على حالي، فكيف أرجو أن يبادرني غيري بمحبّة؟

فجاهرتُها بما طرأ في بالي.

– ليس من زملائك، أجابتْ.

هل تقصد شخصًا من الذين دفنتُ علاقاتي بهم؟

– ريمة غرقتْ في حزنٍ وكآبةٍ، ولا تريد إنبائي بوالد الجنين.

أبلغتْني أنّ ذلك هو اسمها الحقيقي، وليس اسمًا مستعارًا كحال بنات الدار الأخريات، وأردفت:

– لكنّني أعرف الإجابة من نظري في عينيْها.

الحياة الشاقة علّمتْ ياقوت كيف تسبِر قلوب الناس قبل أن ينطِقوا بكلمة. وأنا أتخيّل صدمة تلك الفتاة، وشعورها بالحرج ممّا حلّ بها. أتفهّم رغبتها في الصمت إلى أن تنحلّ عُقدة لسانها:

– مَن يكون إذن؟

أعادتْ استنشاق بخّاخها، وقالتْ:

– ميلود.

ظننتُ أنّني سمعتُ اسمًا آخر، مثل حيمود أو مزيود، فطلبتُ منها أن تعيد كلامها وأنا أدعَك صَدْغي.

– ميلود ابنك.

بدا لي صوت ياقوت يأتي من مكانٍ سحيقٍ، ثمّ شعرتُ بأنّ الحيطان تدور من حولي، وأنا أفرك شحمة أذني اليسرى.

– يا للعار!

كنتُ جَدًّا لطفلةٍ واحدةٍ، في الرابعة من عمرها، فصِرتُ جَدَّ طِفلتَيْن. ريمة خرجت من صُلب ابني! ورأس يمّا، لقد وددتُ أن أحفِر قبري، لأنّني حلَمتُ بها عارية. لا! ياقوت تكذب عليّ.

لم أعرف إن كنتُ أستمع إليها أم إلى ضجيج درّاجةٍ ناريةٍ تدنو من الدار. قال لي ميلود ذات مرّةٍ: «الأب يدفِنه ابنه»، ولم أدرِ هل هو مدح أم ذمّ. لكنّني شعرتُ أنّني أنزلق برجلَيَّ الاثنتَيْن إلى قبري. كلّ هذه السّنين وهو يقاسمني الملح والخبز والسقف، مُخفيًا سرّه في قلبه. كم كنتُ مغفّلًا! لم يضحك عليّ الرفاق السابقون وحدهم، بل ابني أيضًا. هذا مصير مَن يغامر باليقين ولا يشكّ في أحدٍ حوله.

– لماذا لم تخبريني من قبل؟

انتفضتُ في وجهها، متمنّيًا قِنينة نبيذٍ أملأ بها عقلي، فأهضِم كلامها، لكنّ الله هداني إلى طريقه وأقلعتُ عن الشرب.

– كي تتبرّأ منه مثلما تبرّأْتَ من ابنك منّي؟

لم تخطئ في قولها إنّني لم أتعلّم أن أصير أبًا. لقد عشتُ حياة مزيّفة، وكذلك عاشتْ ريمة التي أخفتْ أمرًا آخر لم نتخيّله أنا وياقوت.

* * *

تعجَّب إدريس بادة أن يكون عزوز على علاقةٍ بالصحافي بودو.

– عرفتُه في الماضي، ولا علاقة لي به الآن.

ودّ أن يسمع المزيد عن علاقته به.

– كانت صلتي به طيّبة. لم تَشُبها عداوة.

– بما أنّه لا علاقة لك به في الوقت الحاضر، فلماذا كاتبتَه؟

– كاتبتُهُ من أجل قضيةٍ تخصّني.

استغرب أنّ مواطنًا من هذه المدينة، التي يجاور عدد أهلها الستين ألفًا، يكلّف نفسه إيصال رسالةٍ إلى التلفزيون الوحيد في البلد، موجّهةً إلى صحافيٍّ معروفٍ، وكان بمقدوره مكاتبة مسؤولين محليّين.

– لأنّ قضيّتي تتجاوزهم.

هذه الإجابة زادتْ من فضول مفتّش الشرطة.

– ألم تطّلع على الرسالة؟ سأل عزوز.

نفى إدريس بادة علمه بفحواها. لكنّ برقيّة وصلته من أمن العاصمة، تفيد بتاريخ وساعة تسلّم الرسالة في مبنى التلفزيون، وتلتمس التحقيق مع عزوز.

– أتحفّظ على الإجابة عمّا ورد في رسالتي إلى بودو.

فحواها يذكّره بلعنةٍ عجز عن التخلّص منها.

ج

بلغ زملائي من العمر ما يؤهّلهم لوضع قدمٍ في الآخرة، وهم لا يبتغون إلّا خلاصًا من الفضيحة. يقضون أيّامهم في طرد الذباب وفي رثاء حالهم. يتمنّون ألّا يكتشف ذووهم ما لُفّق لهم من تهمة الحركى، فيلعنونهم في الحياة والممات. مع ذلك، لا يفوّتون أسمج نكتةٍ عن أنفسهم فيضحكون. سُعداء بشقاوتهم، ومؤمنون أنْ لا شفاء من فظاظة العيش إلّا بالضحك. جلستُ في مقعدي، وحلّوا تباعًا. لقد ربطتْ بيننا هذه الجمعية التي نراها مثل سفينة نوح، والتي نرجو منها إنقاذنا من النكران، الذي واجهَنا به رفاق الأمس.

أخبرَنا عين الطير، هكذا نسمّيه بعدما اشتغل قنّاصًا في سنيّ الحرب العالميّة، الذي لا يخطئ هدفًا لحدّة بصره، أنّه كتب رسالة تشرح وضعنا، وشرع في تلاوة ما جاء في ديباجتها:

«الأخ بودو،

نتوجّه إليكم بهذه الرسالة، أصالةً عن جمعية (قدامى المناضلين المستبعَدين)، غير المعتمَدة، وباسم أولئك الذين ضحّوا بأرواحهم من أجل أن يتحرّر البلد، باسم المجاهدين والفدائيين، باسم الذين خاضوا معركتهم بشجاعةٍ وشرفٍ، وباسم الذين قضوا أشهرًا وسنينَ في ظلمات سجونٍ، من أجل أن ترفرف رايتنا...».

– يجب أن نوصل إليه الرسالة قبل أن يحلّ ببوسعادة، قلتُ.

يطّلع عليها ويستغلّ زيارته في تصوير لقاء معنا، فينتبه إلى أمرنا المسؤولون في العاصمة، ويردّون لنا الاعتبار.

– إذا انتظرنا وصوله ثم سلّمناه إيّاها، فمن المحتمل أنّ الوقت لن يُسعفه في تصوير مقابلة معنا.

هكذا تحدّث عين الطير، من خلف سحابةٍ أحدثتْها سجائره التي يلتهمها مثل شَرِهٍ يلتهم سكّرًا، فأخفتْ تجاعيد وجهه التي تخيف الأطفال. لقد نعتوه بالعميل إثر تنازعه مع أحد المناضلين قِطعةَ أرض.

واصل تلاوة ما جاء في الرسالة، التي نوّهت باسم كلٍّ منّا وبدوره في حرب التحرير، مُسهبةً في تفصيل الخلافات التي حصلت مع الآخرين، وكيف أنّ التهمة التي تُنسب إلينا باطلة. وبعد تشاورٍ دام نصف ساعةٍ، وافقنا على ما ورد فيها، قبل أن يكلّفوني السفر إلى العاصمة، وإيصالها إلى مكتب بودو في التلفزيون، إذ لا نملك عنوان بيته. أنا لا أحبّ الأسفار، وساءني أن كلّفوني تلك المهمّة.

– كنتَ صديقًا له، قال أحدهم.

– والبريد لا يؤتمَن، أضاف زميلي موحو.

وافقتُ على طلبهم وقررتُ أن أسافر إلى مقصدي في الأيّام المقبلة. ثُمّ شاركتُهم في تناول طبق حلَزونٍ بالثوم والزبدة، أعدّته وافدة جديدة إلى دار ياقوت، جمعت الحلازين من الوادي. مع أنّني أتلافى الأكل خارج البيت، حذَرَ الإمساك وآلام البطن.

وبعدما رفعتُ اللقمة الأخيرة، مسح عين الطير فمه بظاهر يده، وأبلغني أنّ زميلنا عكوري يعدّ أيّامه الأخيرة.

«سحبوا منه جهاز التنفس»، قال.

فلفظتُ اللقمة من فمي.

عمل عكوري حلّاقًا، سنوات الخمسينيّات، وفي ختان الأطفال في أوقات الفراغ. يسترزق من حلق الرؤوس في ثُكنة الفرنسيين، من غير أن يكفّ عن تسديد اشتراكاتٍ إلى جبهة التحرير. ثمّ اتُّهم بالعمالة عقب الاستقلال، بحجّة ثرثرته مع فرنسيين، عن أشخاصٍ التحقوا بالحرب.

عكوري من نوع الرجال الذين أسمّيهم متاعيس، بائس الحظّ، ودّ أن يُرضي الجميع فانقلب الحال عليه. سوف أسأل عنه جارتي نوسة؛ ابنة أخته. فعقب وفاة والدها رعاها هي وأمّها، وصيّرها مثل ابنةٍ له. كان يكسوها ويُطعمها، وإذا مرضتْ يدفع من جيبه لمداواتها. بل لم يتخلّ عنها بعدما تجبّر عليها زوجها، وطوّعه إلى أن صار خاتَمًا في إصبعها.

أخشى أن يلفِظ أنفاسه فيُدفن مثل غيره في زاوية الحركى، على طرف الجبّانة. تلك الزاوية التي لا يمرّ جنبها أحد من دون أن يبصق على قبورها، ويدعو على موتاها بأن يضاعف الله من عذابهم ويقذف الفزع في قلوب أبنائهم. تلك الزاوية التي نرجو الفرار منها جميعًا. وأخشى أن نفشل في ذلك، مثلما فشلتُ في الفرار عام 1962، بعد اتهامي بالخيانة أنا كذلك.

هربتُ مع أهلي إلى قرية جنب بسكرة، سقوف بيوتها من قشٍّ وأُناسها يأكلون من خراج الأرض. لكنّ واشيًا سمح لهم باعتقالي، في صباحٍ حارٍّ نعى فيه الراديو ممثّلة اسمها مارلين مونرو. أعادوني إلى بوسعادة، بعدما غادرها الأوروبيّون، من دون أن تعرف زوجتي شيئًا ممّا حصل لي، وقد عادتْ بدورها إلى هذه المدينة مع ابنيّ.

«ورأس يمّا اعتقلوني بسبب خلط بين اسميْن»، هكذا كذبتُ عليها. فما أكتمه على عدوّي، أكتمه على أقرب الناس إليّ. تعلّمتُ أن أكذب دفاعًا عن نفسي لا إضرارًا بغيري، كما أنّ النساء لا دخل لهنّ في خصامٍ بين رجالٍ، كما تعلّمتُ مِن أبي.

حكموا عليّ بنزع الألغام من الحدود مع تونس، وعدتُ منها بعدما تأكّدوا أنّني لم أعذِّب ولم أقتل أحدًا من المجاهدين. أطلقوا سراحي بعدما كوَوا ظهري بصفيحة حديدٍ مشتعلةٍ، وكذلك فعلوا مع زملائي. وقد أفلحتُ في إخفاء الكَيَّة عن الأعين؛ فأنا لا أتعرّى أمام

زوجتي، وأحرص على إعتام الغرفة كلّما نويتُ تغيير ثيابي، مثل العتَمة التي تسكن قلبي.

لم أُطق آنذاك شماتة الرفاق القدامى ونظراتهم المحتقِرةَ لي. فكّرتُ في الانتحار بقطع شرايين معصمي، لكنّ شجاعتي لم تُسعفني، وخلّفت جرحًا ظاهرًا للعين. عندما سألتْني عنه ابنتي، ادّعيتُ قائلًا: «من مخلّفات الحرب العالميّة».

شرعتْ تُعدّد كريماتٍ تمحو آثار الجراح، مُخفيةً عنّي أنّها تستخدمها في محو لكمات زوجها وقذائفه بأغراض المطبخ التي تنهال على رأسها؛ فهو لم يغفر لها تأخّرها في الحمل، ثم إنجابها أنثى بدلًا من ذَكَر. مثلما لم يغفر لي رفاقي القدامى عصياني أمرهم، في تفجير مقهى أخي. لكنّ موقفهم رقّ لحالي بعدما أصابني فقر، وطفتُ بين مكاتبهم، فسمحوا لي بالعمل سائقًا لشاحنة النُّفايات، التي تملكها دار البلدية، إلى أن تقاعدتُ. «لأنّك الوحيد الذي يحوز رخصة قيادة شاحنة»، كما قال أحدهم.

كانت الشاحنة الأولى التي تدخل الخدمة، فقد اكتفى الناس قبلها ببغالٍ في التخلّص من نُفاياتهم. شفعوا عملي ذاك مثلما شفعوا لعكوري عمله بوّابًا في مدرسة شالون. وصار ابنه، الذي يشغل مديرًا لدار الثقافة، هو الذي يحرس أنفاسه الأخيرة في المستشفى.

أحمد الله أنّني نجوتُ من الموت على يد المنتقمين منّي، كما نجوتُ من رغبتي في الانتحار. كذلك نجا زملائي، الذين يشاركونني هذه الحجرة. كلّ منهم أنقذ نفسه بدفع رشوةٍ أو التماس شفاعةٍ، فيما هاجر آخرون إلى فرنسا، بعدما لُفّقت لهم تهمة العمالة، ولم يعودوا منها. وكلّما دنا أحدنا من الموت، خاف أن ينفضح أمر الكيّة على ظهره، فيُدفن في زاوية العار في المقبرة.

هل سيكتشفون أمري كذلك، فأصير خزيًا بعد موتي؟ أعلم أنّ حكاية الكيّة لا يعرفها إلّا مَن عذّبوني، وبعضهم قد مات، كما لا توجد قوائم بأسماء الحركى. لكنّني لا آمَن الأقدار، والألسنة لا تهدأ قبل أن تُفشي الأسرار. ورأيي أن أبذل جهدي مع زملائي، فنستعيد سُمعتنا قبل أن يقبِض الله أرواحنا.

أملي الأخير في بودو، كي لا أُدفن في مذلّة. أن يرشدني إلى خلاصٍ من معضلتي، مثلما أرشدني إلى العمل في الميناء، في صِغري. أن يتيح لنا الظهور أمام الكاميرا، فيسارع المسؤولون في العاصمة إلى تسوية وضعنا.

مصيري ومصير زملائي صار معلّقًا على رجُلٍ واحد. وحسمتُ أن أُرفق مع رسالتنا إليه قبّعة شارلي شابلن كهديةٍ، لعلّ قلب بودو يلين. فقد عرض عليّ مالًا لشرائها حين رآها للمرّة الأولى، لكنّي امتنعتُ.

خمّنتُ أنّ الهديّة ستُفرحه، لكنّني أخطأتُ الظنّ، فقد فتحتْ باب شؤم عليّ. مثلما فتحتْ ريمة باب تعاسةٍ على أهلي.

* * *

سأله إدريس بادة عن قبّعة شارلي شابلن، التي أرفقها مع الرسالة إلى بودو. فسمع منه القصّة كاملةً كما رواها لأهله، وكيف التقطها من الأرض بعدما سقطتْ من رأس صاحبها.

– لقد جاء إلى الجزائر قبل أن يولد والدك.

التمستْ البرقيّة التي تسلّمها إدريس بادة، من أمن العاصمة، التحقيق بشأن القبّعة، بعدما تعرّض متحف المدينة للحرق ونُهبتْ مقتنياته.

– القبّعة لم تكن من مقتنيات المتحف، دافع عزوز عن نفسه.

لم يسعَ إدريس بادة إلى أن يؤكّد كلام المُشتبه به أو ينفيه، فقد تلف سجلّ المقتنيات، بعدما أضرم ملثّمون نارًا، أكلت لوحات كذلك.

– هل سبق لك أن رأيتَها معروضةً في المتحف؟ سأله عزوز.

إدريس لم تطأ قدماه ذلك المكان. يقضي يومه بين المخفر ودوريات الأمن، فيما يُغلق المتحف أبوابه في عطلة نهاية الأسبوع. ونبّهه إلى قانونٍ يفرض على كلّ شخصٍ يمتلك غرضًا ثقافيًا ذا قيمةٍ أن يسلّمه إلى الجهات المعنيّة.

– حُزتُها قبل الاستقلال وقبل إقرار هذا القانون.

تلك القبّعة التي أرسلها عزوز إلى بودو كهديةٍ، باتت حجّةً ضدّه في اتّهامه بمخالفة القانون.

– لقد صارت في حوزة الأمن. هل انتهت حجّة وجودي هنا؟

أعلمه محدّثه بأنّ برقيّة التحقّق من القبّعة وصلتْ قبل أسبوعيْن. ولم يتسنّ له الوقت لاستدعائه وسؤاله بشأنها، لانشغاله في مرافقة سيّاح، بعدما شاعتْ اعتداءات على أجانب. إلى أن أوقفوه وهو يقود سيّارة بلا وثائق. وهناك موضوع آخر أشدّ حرجًا، يودّ سماع أقواله فيه.

د

لم أنسَ ذلك الأربعاء، عندما سقطَتْ التّهمة على رأسي، كمَن أصابه حجر من علوّ خمسة طوابق. حضّرتْ زوجتي يومذاك حلوى المقروط، التي تُصنع من سميدٍ وزُبدةٍ وتمرٍ محشوٍّ، لمناسبة عيد ميلاد ابنتي الخامس، حين تقدّم إلى بيتي جنديّ ينتعل صندلًا مصنوعًا من مطّاط العجلات، تعوّد نقل متفجّراتٍ وأسلحةٍ إلى المجاهدين المتحصّنين في الجبل؛ فقد تفادى القادة مجابهتي وأرسلوه نيابةً عنهم. ومن غير أن يؤدّي التحية، كما جرت العادة، بأن يستقيم ويرفع يده إلى صدْغه، تقيّأ كلماته محبِطًا فرحتي بعقيلة:

– تفاهمت الجماعة أنّك حركيّ.

صرتُ خصمًا لهم، لأنّني أعرضتُ عن تفجير مقهى أخي. شعرتُ برجفةٍ في أطرافي وتخيّلتُ المساوئ التي سوف تحلّ بي.

– وزوجتي؟ هي ثاني شاركتْ في الحرب!

تكفّلتْ بتزويد فدائيّاتٍ بأقراص سِيانيد السامة، يَدْسُسْنها تحت ياقاتهنّ، ويلجأن إليها في حال أخفقن في كتم أسرارهنّ إثر تعذيب البوليس لهنّ.

– قبضتْ دراهم على خدمتها، أجابني مردّدًا كلام الجماعة.

جازفتْ قمرة بحياتها، وكان يمكن أن تذوق عذابًا لو اكتشفوا أمرها، فقد تمنّعتْ نساء أخريات عن القيام بمهمّتها. ثمّ باتوا يقولون إنّها قامت بعملٍ بسيطٍ، تقاضتْ مقابلًا عنه!

سرّ زوجتي أنّني توقفتُ عن صنع قنابل تقليديّةٍ وأنّني لن أعتقل. بدوري، أخفيتُ عنها التهمة التي لُفّقت لي. أخبرتُها أنّني انسحبتُ من مجالسة الرفاق القدامى، ولم تُسرف في أسئلتها لي. هي مطيعة كما عهِدتُها.

حين لاح الاستقلال عقب اتفاقيات إيفيان، التي أنهت الحرب، قضَوا أنّني من حلف الأعداء. حكموا عليّ من دون فرصةٍ للدفاع عن نفسي. لقد ظنّوا أنفسهم بلا خطيئةٍ وأنّني المذنب وحدي. ذكَّرتُ الجنديّ الذي تقدّم إلى بيتي: وإذا حكمتُم بين الناس أن تحكموا بالعدل...

كرّر الأُسطوانة التي كلّفوه نقلها إليّ، بأنّني حركيّ وكفى.

أطلقتُ على رأسه كلامًا لا يسرّ السامعين، شتمتُهُ وشتمتُ مَنْ أرسلوه. تحوّل لساني إلى مِنشار، وهو ينظر إليّ بعينَيْن حائرتَيْن:

– أنا غير رسول، قال لي.

– وأنا لم أفعل شيئًا يستحقّ اتّهامي بالعمالة.

صارتْ بِطاقة عضويّتي في الحرب مجرّد ورقة.

telegram @ yasmeenbook

بطاقة رقم 129

الكنية: كردادة

تاريخ الميلاد: 1915

تاريخ الانضمام إلى جبهة التحرير : 1/11/1954

مكان الإقامة: بوسعادة

سارعتُ إلى مكالمة بودو، فجاء للوَساطة، لكن لم يستمع إليه أحد. عاد إلى العاصمة خائبًا، ثمّ حرّر شهادة نضالية:

شهادة نضالية

أنا الموقّع أدناه، مناضل في جبهة التحرير الوطني.

أشهد أنّ السيد عزوز خالدي، قد خدم بصدقٍ وشجاعةٍ حرب التحرير.

انضمّ إلينا، منذ 1954 إلى اليوم، والتزم بالقيام بمهمّاته، وقد عرّض نفسه للخطر وكان دوره فاعلًا في خدمة قضية شعبنا.
حُرّرت هذه الشهادة إلى مَن يهمّه الأمر.
4 أبريل 1962

لكنّ شهادته كانت مثل هرٍّ يتبوّل في الرمل، لا منفعة منها. وبتُّ «وَحداني غريب في بلاد الذيب». سُجنتُ، عُذِّبتُ، نزعتُ ألغامًا، كوَوا ظهري ونجوتْ. وعاد بودو إلى زيارتي مطلع 1963، بشاربٍ لم يشذَّب ووجهٍ مصفرٍّ، متأسّفًا لحالي، وقال لي: لقد أسّستُ حزبًا سياسيًّا.

أعرضَ عن الالتحاق برفاقه في الحكم، بعدما عرضوا عليه مناصب، وعاونتُه سرًّا على حشد متعاطفين مع حزبه، ممَّن أُلصقت بهم تهمة العمالة كحالي. لكن لم يلبث أن أُلقي القبض عليه، حين خرج من بيته يبتاع خُضرًا، وصار حزبه حجّة في إدانته بالتآمر. كان حالمًا ولم يعلم أنّ الحالمين هم الخاسرون.

لم يكن أفضل حالًا منّي. فقد اتّهموه كذلك بالعمالة. ألحقوا اسمه بزُمرة مَن نُعتوا بالحركى. ولستُ أدري إن كوَوا ظهره مثلي، لكنّني أعرف أنّهم سجنوه في وسط الصحراء. في بقعةٍ لا تقلّ فيها الحرارة عن خمسين درجةً، تستجمّ فيها عقارب وأفاعٍ سامّة. ظنّ أنّه هالك، فخاض إضرابًا عن الطعام إلى أن دخل الإنعاش، وبعدما استعاد عافيته كتب لي رسالة، ما زلتُ أحفظ فحواها.

«صديقي عزوز،
أرجو أن تصل إليك رسالتي وأنتَ في صحّةٍ وعافيةٍ، مع أنّني لستُ متأكّدًا من وصول رسائلي. منذ إلقاء القبض عليّ، وأنا أكاتبُ مَن أعرِفهم، أشكو إليهم همّي والظلم الذي مسّني، وكذلك

كاتبتُ أهلي، ولا ردّ وصلني. فأدركتُ أنّ رسائلي تنتهي في سلّة المُهملات. وها أنا أكتب لكَ، لعلّ هذا الساعي الطيب، الذي يوصل إليّ الجرائد متأخّرةً بيومَيْن، يسرّب رسالتي إليك.

لا بدّ أنّك سمعتَ ما يقولون عنّي! لا تصدّق كلامهم. وأُشهد الله أنّ ما ينسِبونه إليّ من أقوالٍ ليس صحيحًا. لم أتآمر على أحدٍ، ومَن يملك دليلًا ضدّي فليتقدّم به إلى العدالة. هل تصدّق أنّ مناضلًا مثلي يفكّر في خراب البلد الذي رجا استقلاله؟ ثقتي في ربّي أنّه سيُنجيني. أُصلّي وأدعو في سرّي، وقناعتي بأنّ باب السماء لن يُقفَل في وجه مظلوم. أقبع في مكانٍ لستُ أعرف اسمه، لكنّه في جوف الرمال. ضوء الشمس يُعمي الأبصار والظلّ نادر. محاط ببحرٍ من الكثبان يتغيّر شكلها كلّما هبّت ريح، في مكانٍ لا بشر فيه ولا حيوان. الخبز يتيبّس في الطريق قبل أن يصل، أمّا الماء، فيكفي للشّرب لا للاغتسال. لقد أوقفتُ إضرابي عن الطعام، الذي حوّلني إلى شبح. بعدما كنتُ أزن سبعين كيلوغرامًا، صرتُ لُقمة لحمٍ لا تتجاوز الخمسين كيلوغرامًا. هذا، عدا ما أُقاسيه من أمراضٍ بسبب عدم تأقلمي مع هذا الوضع.

لو رأيتَني لَما عرَفتَني. الجنود الذين يحرُسونني من شباب الخدمة الإلزامية، مكرَهون على تنفيذ الأوامر التي تصل إليهم، ولا ألومهم.

لم يفارق بالي ما حصل لك. أنتَ الذي ساعدتَنا على تكوين كتيبة مقاومةٍ في بوسعادة. ثمّ صرتَ منبوذًا! لا تفقِد صبرك ولا تنجرَّ إلى غيظك منهم، فالأمور بوسعها أن تنقلب إلى الأفضل، وتستعيد سُمعتك أنتَ وزملاؤك الآخرون الذين جار عليهم الرفاق.

إنّني أتابع ما يجري من أحداثٍ في الجرائد، ويُحزنني أنّه لا أحد من رفاق السلاح يدافع عن حالي. صرتُ نَسيًا وظلّ رجل. أصبحتُ

خارج هموم الناس، مسجونًا، ملعونًا. صرنا أنت وأنا مثل حصاة تدوسها الأقدام. لكنّ رجاءنا في ربّ العالمين كبير.
أَبلِغ سلامي إلى معارفنا. واعلم أنّك في بالي؛ محنتك تؤرّق نومي، ولا بدّ أن يأتي يوم تشملنا فيه رعاية أرحم الراحمين».

بعد الإفـراج عنه هاجر إلى فرنسا، عمل في إذاعـةٍ ثـمّ في تلفزيون. بـرّأوه من صفة حركيٍّ وصار أشهر صحافيّي البلاد خلف البحر. وعندما أُحيل على التقاعد، عاد منتفعًا من أجواء الانفتاح ورجوع المنشقّين، وانضمّ إلى التلفزيون في الجزائر العاصمة. لكنّه لم يعاود زيارتي. انقلبتْ أموره إلى الأحسن، أمّا أنا، فلا. شملته رعاية أرحم الراحمين، أمّا أنا، فلا أزال في انتظارها.

لا أظنّه نسِيَ صداقتنا، مع أنّ حظّي العاثر في الصداقات، أورثْتُه إلى ابنتي، التي أخفقتْ في كسب صداقة زوجها، فيصل إليّ أنينها وأنا أتوضّأ إلى الصلاة، لكنّني لا أعتقد أنّ بودو سيتنكّر لي كما فعل صحافيّون آخرون، كاتبتُهم من غير أن يردّوا عليّ. رجائي أن يُعينني، مثلما أعنتُه بعلبة سردينٍ حين مسّه جوع في الجبهة الإيطالية، زمن الحرب العالمية الثانية، فيسمح لي بالظهور أمام الكاميرا، ويصل كلامي إلى المسؤولين ثمّ أستعيد صفتي: مجاهدًا لا عميلًا. يُبرّئونني مثلما برّأُوه. يعطِفون عليّ مثلما أعطف على الكلاب الضالّة في الحيّ، التي أتناوبُ مع مخلوف على إطعامها من بقايا الأكل، وعلى حمايتها من الأطفال الذين يقطعون ذيولها.

ظلّت الأفكار تتزاحم في رأسي، وأنا أُحـدّث نفسي كعادتي. سمعتُ الأذان وقمتُ إلى الصلاة، أخاطبُ ربّي بما في قلبي... أبالغ في رجائي، من غير أن أتهيّأ للخيبة.

* * *

دارت أسئلة إدريس بادة عن تفاصيل من حياة عزوز؛ عن تأخّره في الزواج وتمنّع العائلات عن مصاهرته بسبب أصوله القَروية، عن ابنيه وزواج ابنته، عن صلته بمخلوف تومي وماذا يعرف عنه:

– أنا الذي حقّقتُ مع ابنك ميلود، عندما اتُّهم بسرقة كُليةٍ من المستشفى.

– لكنّه خرج ببراءة.

ردّ عزوز، وقدّر أنّ محدّثه من نوع الرجال الذين يسمّيهم لسان الحرباء؛ يهذّبون ألسنتهم لتحقيق مصالحهم. ثم انعطف الحديث عن عقيلة وعمّا تفعله في البيت. فانتهز عزوز الفرصة لسؤاله، مرّة أخرى، عمّا حلّ بها، من غير أن يحصل على إجابةٍ. فاستطرد:

– لقد أرسلتم شرطيًّا، سلّمها استدعاءً بالمثول، ومنذ اليوم السابق لم تعد إلى البيت.

طمأنه مفتّش الشرطة إلى أنّها ستكون بخير.

– كيف ترجو أن تكون بخير وهي غائبة عن البيت وعن ابنتها!

فاضطرّ إلى أن يوقف إلحاحه بمصارحته أنّها محلّ شبهة.

– ورأس يمّا إنّها بريئة من كلّ تُهمة.

– هل تعرف ماذا تُخفي؟

– لا أحد يعرف أبناءه حقّ المعرفة، لكنّني على يقينٍ من براءتها.

لم يفاجأ إدريس بادة بدفاع أبيها عنها، لكنّه باغته بجملةٍ جعلته يكفّ عن الكلام:

– أظنّ أنّك لن تراها من جديد.

ھ

لمحْتُ رأس الضفدع في صورةٍ معلَّقةٍ على حائطٍ، فهو كذلك ترشّح للانتخابات. اسمه النوري جندال، وتعوّدنا نعته بذلك اللقب بسبب عيْنَيْه الجاحظتَيْن. عاودتْني شكوكي في أنّه حثّ الجماعة على اتّهامي بالعمالة، عام 1962. كان يقول لي: «كي يخرجو الفرنسيس من بلادنا، نعيشو كي الاخوة».

ثمّ اختلق قصصًا ضدّ أخي، حرّض عليه ثم استولى على مقهاه وباعه، فتدلّت كرشه المحشوّة بالمكر. حاول التقرّب منّي لأعفو عنه، فتجاهلتُه. لقد حصل ما حصل، وليس بوسعه محو العار الذي أُلقي على ظهري. يدّعي بطولات في حرب التحرير ولم يطلق رصاصة واحدة. ورأس يمّا لو كنتُ مكانه، لما استطعتُ إغماض جَفنيّ في الليل، من غير أن يَخِزَني ضميري، قلتُ في نفسي.

إنّه من نوع الرجال الذين أسمّيهم كسّارة الحجر؛ يطمعون في كلّ ما يصادف طريقهم. يعِد الناس بالماء والكهرباء من دون انقطاعٍ، في حال صوّتوا عليه. ولن يتوانى عن لحس مال البلدية كذلك، ذلك ما خامر بالي. أخوه الأصغر يُدعى قدور، يعمل طبيب عيون. لسانُه لم يرحم ابنتي، ومن شدّة لا مبالاتها، بات يتودّد إليها.

جررتُ خُطاي في وسط المدينة، عقب لقاءٍ آخر بزملائي. صادفتُ فتيات يتسكّعن بمكياج يلفت الأنظار، ويتفاوضن مع باعة على حفنة بَخورٍ أو قطعة صابون. قبل أن أتفادى شابًّا يترنّح في مِشيته، تفوح من قميصه رائحة بيرة. لم يفتأ أن سمعته يئنّ، ثمّ يتمدّد تحت نخلةٍ معمّرةٍ، شهدت وصول الفرنسيين إلى المدينة عام 1849، ولم يغادروها حتّى الاستقلال. حلّ بدلًا من أريج الأزهار دُخان مركباتٍ، وضاقت شوارعها إثر تفشّي محالَّ عشوائيةٍ، لا تكتفي بعرض

سلعها على واجهاتها، بل تحتلّ الأرصفة أيضًا. وفي كلّ مرّةٍ تصل إليها أوامر بتغيير لافتاتها إلى العربية، تصرّ على تعليق أخرى بالفرنسيّة، فأصحابها يريدون استدراج الأغنياء الذين يتكلّمون تلك اللغة، بدلًا من المواطنين البسطاء.

كان مطرها منتظِمًا ثمّ صار شحيحًا. وصلتُ إليها طفلًا وحلَمتُ فيها بكسب مالٍ وشراء حدائقَ، لكنّني صرتُ جامع قُمامةٍ، بشاحنةٍ يُسمع ضجيجُها على بُعد عشرات الأمتار، وكاشفاها لا يشتغلان. وبمجرّد أن أُوصل القُمامة إلى مَدفِنها ينقضّ عليها أطفال، يرجون أغراضًا يصلح ترميمها وبيعها. تعطّلت الشاحنة أكثر من مرّةٍ، فظلّت في المرأب أسبوعًا أو اثنَيْن بانتظار تصليحها، وعمّت الشوارعَ روائحُ تُزكم الأنوف. نعتني الناس بكلمة كنّاس، فلم أردّ عليهم، مصدّقًا كلام ابنتي: «إنّهم إذا أرادوا احترام شخص سخروا منه».

شهدتُ فيها أيّامًا كان المرء يخجل أن يسير في أزقّتها، وكنتُ أقول في نفسي: مَن يودّ أن يعيش سعيدًا في بوسعادة، فمن مصلحته ألّا يغادر بطن أمّه. لكنّها صارت هذه الأيّام، لمناسبة دنوّ الانتخابات البلديّة، واستعدادًا لاستقبال بودو وكاميرا التلفزيون لأوّل مرّةٍ، مثل رجل يرتدي بِذلة ويتهيّأ لسهرةٍ راقصة. وتضاعفتْ تكاليف العيش فيها، فصِرنا نحسبها في مصافّ العاصمة أو وهران.

يقضي فيها مراهقون يومهم في بيع سجائرَ بالتجزئة أو في نقل سلعٍ على أظهر البغال. حفاة، ويرتدون بنطلونات مهترئة عند مؤخّراتهم. غُرستْ شُجيرات جديدة هنا وهناك، إلى جانب أشجار الخرّوب التي يسقيها المارّة ببولهم، والتي لطالما أسكتت فاكهتها الداكنة جوعي في صغري.

اختفتْ طوابير قوارير الغاز من أمام محطّة الوقود. وتوقّفتْ الشرطة عن تعقّب العشّاق غير المتزوّجين، الذين يختلسون قُبلات

وملامسات، خلف مقرّ الحزب، في زُقاق خالٍ مِن المارّة. كما عفتْ عن باعة المجلّات الإباحية التي يقتنيها عاجزون عن الانتصاب، لأنّهم لا يعكّرون سير المركبات. وانشغلت بتفريق باعة الملابس والأحذية المسروقة، الذين يفرُشون سلعهم قُبالة البنك ذي السور العالي، الذي شُيّد على أنقاض مقهى روز. كذلك حظرت تجارة المعوزين، الذين يحوزون قوارير زيتٍ وأكياس سميدٍ كمعونةٍ من البلدية، ويبيعونها لمعوزين آخرين.

جدرانها الخارجية التي تشرف على وسط المدينة، لوّنتْها صور مرشّحين آخرين في الانتخابات. بما فيها حائط جامع النصارى، الذي تحوّل إلى مسجد. انفجرت فيه إحدى القنابل التي صنعتها، سنون حرب التحرير، من غير علمٍ منّي. أودَتْ إلى تهاوي حائطه، بعدما طلبها الرفاق القدامى منّي: «نضربو بها الثكنة»، قالوا.

وعندما عجزوا عن الوصول إلى مقصدهم، زرعوها في جامع النصارى، من غير أن يحسبوا حسابًا ومن دون إخباري، ما أودى بحياة شابٍّ وجرح أحد عشر آخرين، جاؤوا للتعبّد والدعاء، في ذلك المبنى القديم الذي شُيّد قبل وصول الفرنسيين. هكذا كانت الحرب؛ وحشًا أعمى طحن فقراء أمثالنا. كذلك علّقت صور على حائط جامع اليهود، المشيّد من طوبٍ، الذي تحوّل إلى جمعية الصمّ والبكم. وقد كان يختبئ فيه مجاهدون تطاردهم الشرطة، ودارَ جنْبَه اشتباكٌ استُشهد فيه ثمانية من رجالنا. لكنّ الحرب انتهت، ولا أحد علّق لافتة للتذكير بما وقع.

حائط جبّانة مغراري كذلك لم يسلم من صور الطامعِين إلى البلدية. أتلو فيها، كلّ جمعة، الفاتحة على روحَي والـديَّ، وأقابل حارسها الكفيف الـذي يؤمن بـأنّ بصره سوف يعود يـوم القيامة: «وسوف أرى وجه الله».

مثلما أرى فيها نسوة يتدثّرن بملاحف بيضاء، يتلون أدعية ويغرِسن تمائم تحت التراب. تلك الجبّانة التي كنتُ أتفادى دخولها، تشاؤمًا من الموت، لم أعد أتطيّر منها الآن وقد دنوتُ من سنّ الختام. أرى قبورها مثل أسِرّةٍ، وأنتظر أن أكتسي بكفنٍ وأتمدّد فيها.

أحسّ أنّه لا مكان لي في بوسعادة، التي تسري في بدنها أدعية المتعبّدين غير المستجابة، بينما يكتظّ رأسها بحشيش القانطين. قضيتُ فيها عمرًا حافلًا بالنكران، وأترقّب أن يتيح لي بودو فرصة الكلام في برنامجه، فأستعيد حقّي أنا وزملائي. أرجو أن يخبر مشاهديه أنّنا تحمّلنا تصفية خصوماتٍ وأنّ من حقّنا نيل بطاقة مجاهد، فأسعد في أواخر حياتي بعدما شقيتُ في سنواتي السابقة.

لا يهمّني أن أنتقم ممَّن ألصقوا بجلدي تلك التهمة، فبعضهم قضى تحت شاهدةٍ، ومَن بقي منهم يتبوّأ منصِبًا يتعسّر اقتلاعه منه. لكن يعنيني أن أستعيد حقّي في التصويت، وأنْ يتاحَ لي حضور اجتماعاتٍ في دار البلديّة، التي عُذّب في قبوها إسحاق بن زمير عام 1942، بعدما أُسقطت عنه الجنسية الفرنسية. والتي يرتفع على مدخلها شعار «من الشعب إلى الشعب»، بينما الناس يتعمّدون تحريفه «من النهب إلى النهب». لأنّ المواطن يدفع أوراقًا نقديّة مقابل الظفر بأوراقٍ شخصيّة.

سوف يسرّني إبداء رأيي في حال المدينة، التي تحمل شوارعها كلّها أسماء رجال، وأن أطالب بإعادة فتح قاعة السينما، التي أُغلقت بذريعة أنّ مراهقين يختلون فيها بحبيباتهم في ظُلمة المكان، متحجِّجين بمشاهدة أفلام. وأطالب أيضًا بردم الوادي الذي اختلط ماؤه بقنوات الصرف، بعدما كان صافيًا تغتسل فيه المرأة عقب حيضتها الأولى كي يبارك الله في رحمها... أن يتاح لي طلب قرضٍ،

فأشتري حقلًا أرعى فيه عنزاتٍ وأمخض حليبًا، مثلما كنتُ أفعل في صِغري. كم كانت حياتي هانئة في صغري!

بودو لن يخيّب أملي؛ فقد عاش مناضلًا زمن الحرب وبعدها، مخلِصًا لهذه البلاد مثل آخرين. سأُذكّره بأنّني أُقاسي ما قاساه عندما خذله رفاقه عقب الاستقلال.

لكن قبل ذلك عليّ أن أعرف قصّة ميلود مع ابنته. فقد أخبرتْني ياقوت أنّ أمّ الفتاة من قريتي سيدي لمّو، التي شيّدوا فيها سدًّا، لكنّ الفقر لم يفارقها. وصلتْ إليها الكهرباء، لكنّ خطّ الهاتف لم يصل.

«أنا ميلود، وقصّتي مع ابنتي، بدأتْ مع تلك المرأة الآتية من سيدي لمّو، التي تعرّفتُ إليها في دار بابا ياقوت. حدّثتْني عن قريتها... التي يحرُث أهلها حقولها ويسقونها، لكنّ محاصيلها غير مُجزية، فحرثتُ وردتها وسقَيتُ شفتَيْها قبلات. أراحت رأسها على صدري وسألتْني عن اسمي: «ميلود»، أجبتُها.

كنتُ سخيًا معها في مالي ووفائي لها، بعدما ظننتُ أنّ بوصلة قلبي لن تشير إلى الحبّ. من غير أن أعلم أنّها على ذمة رجلٍ آخر، مسّه عقم، وأنّها تتنازل له عن المال الذي أملأ به جيبها، كي يدفع ما تراكم على كاهله من ديونٍ، من فرط إسرافه في المقامرات.

صارحتْني بأمرها بعدما أثمر بطنها حملًا فامتقع وجهي، لكنّني دسستُ في يدها حُزمة أوراقٍ تُعينها على وضع مولودتها، التي سمّتْها ريمة. غضبتْ منها ياقوت ومنعتْها من العودة إلى بيتها. رجوتُها أن تسمح لها باستئناف عملها، لكنّها أعرضتْ. «والعين ما تعلو على الحاجب»، فهي صاحبة الدار وأنا مجرّد زائر لها.

لكنّني لم أقطع علاقتي بأمّ ريمة إلى غاية وفاتها، وكبِرتْ ابنتي منها فصارتْ تقيم في دار ياقوت. هي لا تعلم أنّني والدها، أجّلتُ

مصارحتها لأنّها غير ناضجة، ولأنّني مشغول بعملي وبمساعدة أختي، لكنّني لم أستطع أن أزيح عينَيّ عن التحديق إليها ومدح مفاتنها. قلتُ لياقوت: «بنتي كبرت طيزها»، فقد كانت نسخة من أمّها في طراوة بشرتها وغُنجها».

ربّيتُ ابنًا لا أعرفه، صَموتًا معي ثرثارًا مع الآخرين، بخيلًا في البيت وكريمًا خارجه. ماتتْ أمّ ريمة، إثر مضاعفاتٍ سبّبتها زراعة كُليَةٍ لم تكلَّل بالنجاح. هل سرق الكُليَة ابني من المستشفى؟ هو أنكر وأنا صرتُ لا أصدّق كلامه. خدع الشرطة مثلما خدعني. أمّا ابنته، فساءت علاقتها بزوج أمّها، ففرّتْ من قريتها، مثلما فرّ منها أبي عقب الجفاف.

لا يصحّ أن أخاطب ميلود بما أعرف، لأنّه يُلقي كلّ مسؤوليّةٍ على عاتق غيره. قد يشعر بالعار ويصدّني. مثلما شعرتُ بالعار عندما كلّمني عنه ثامر.

* * *

سأله مفتّش الشرطة عن مخلوف تومي «الذي كان متفانيًا في عمله معنا»، كما علّق، راجيًا أن يكون مثل صهره. وودّ أن يسمع المزيد عن علاقته به:

– عطفتُ عليه مثلما أعطف على ابنيّ.

وضع مفتّش الشرطة مرفقه على سطح المكتب، وأسند جبهته على كفّ يده، وهو يحدّق إليه بابتسامةٍ تشي بعدم تصديق كلامه، مذكّرًا إيّاه بالشكوى التي أودعها ميلود ضدّ مخلوف.

– لأنّه أساء معاملة أخته.

– ولم تتدخّل في الإصلاح بينهما؟

– ليس من حقّي التدخّل بين ابنتي وزوجها.

اتّفق الناس على ألّا يحشر أبٌ نفسه في العلاقة بين زوجَيْن. وتذكّر عزوز حين زُفّتْ عقيلة، فكفّ عن مناداتها «ابنتي» في حضرة زوجها، بل باسمها لأنّها صارتْ على ذمّة رجل آخر.

– كان يجدر أن تحقّق مع مخلوف في شأن اعتدائه على زوجته.

دسّ إدريس بادة حدَبة تبغٍ تحت شاربه، وأعلمه بأنّ الشرطة لا تتدخّل في الخلافات العائليّة.

– وجب حلّها في البيت.

معلّلًا ذلك بنقصٍ في عدد أفراد الأمن.

استحضر عزوز ما حكتْه له ياقوت، حين طعنها زوجها بسكّينٍ، بعدما شكّ في وفائها له. كاد أن يقتلها، ولم يحكم عليه القاضي سوى بثلاثة أشهرٍ سَجنًا غير نافذة.

– لكنّ ابني سحب شكواه ضدّ صهري!

– أنتَ حرّضتَ ابنك عليه؟

– لا!

– ...

– عادت علاقتهما إلى طبيعتها.

– ما هو دليلك؟

– رأيتُهما يتبادلان حديثًا.

إدريس بادة من النوع الذي لا يصدّق شهادة من جانبٍ واحدٍ، بل يسمع الجانبَيْن المتخاصمَيْن. ولأنّ مخلوف لا يمكنه الإفادة بشهادته، لم يصدّق كلام المُشتبه به.

– اسأل زوجتي أو ابنتي أو ابني، سيؤكّدون كلامي.

– ليسوا شهودًا مُقنِعين.

– لماذا؟

– لأنّهُم من أهلك.

– كيف تريد أن أقنعك؟

– بأن تخبرني بما جرى لصهرك!

9

أخذ ثامر يُزبد وينفُثُ السُباب، متوعدًا بقطع خِصيتَي ميلود:

– يحسبني بغلًا!

حاولتُ تهدئة فورة غضبه بكلماتٍ مضبوطةٍ، مثلما أُهدّئ مينة حين تعاقبها أمّها. أدعوه إلى أن يُعمِل عقله، لأنّ له جسمَ بعيرٍ وعقل جرادةٍ، وأن يكفّ عن بصق كلماته المستوحاة من قاموس المراهقين، مثل مَن أصابه خبَل:

– ما تخليش الشيطان يلعب برأسك.

– تُدافع عنه خاطر ابنك!

بل إنّني من أشدّ الناقمين عليه لأنّه أخفى عنّي وجود طفلته. لو أنّ ياقوت أخبرتْني من قبلُ عن علاقته بريمة، لتصرّفتُ قبل أن يغمر عقلَه الحمق ويضاجع فتاة خرجتْ من صُلبه. طلبتُ منها إخفاء حمل ريمة عن ميلود حتى نتبيّن أمر الجنين، وتراودني خشية ممّا سيحلّ بقمرة عندما تعلم بالذنب الذي اقترفه. ستصاب بجلطة دماغية لا محالة. زملائي سيسخرون منّي؛ أنا الذي أسقطتُ عسكريين فأسقطَني ابني. ما فائدة الماضي الذي عشته ما دمتُ قد فشلتُ في كسب ثقة ميلود، الذي يتستّر على حياته ولا يفاتحني بشأنٍ من شؤونه. عاشر امرأة فقيرة من قريتي، من غير أن يعلم أنّها على ذمّه رجل آخر، ثمّ استولت على عقله شهوة دقائق فقذف ماءه في رحِم ابنته. ليته لم يخرج من السجن الذي دخله إثر سرقة كُليَةٍ، ولم يوصلني إلى هذا الذل.

لكنّني لا أثق في ريمة كذلك. صحيح أنّها لا تعلم أنّه والدها، ومن المرجّح أنّها ابتزّتْ ماله مقابل أن تكشف له عن مفاتنها. فهي تُنفق على ثيابها وزينتها مثل بنات حيّ الغاردن، اللواتي يفعلنَ

كلّ شيءٍ كي يلتفت الناس إليهنّ، ولا يشتركن مع الفقراء سوى في المقبرة. تتشبّه ريمة بالنساء اللواتي تظهر صورهنّ في مجلّاتٍ ملوّنةٍ ذات أوراقٍ لامعةٍ، بمكياجها وملابسها التي لا تغفل عنها أعين الرجال. تحلُم بعيشةٍ يملأها الرخاء وراحة البال. وأنا لا أثق بها، مثلما لا أئتمن مكر ثامر، الذي يظنّ أنّ ابني قد خانه هو أيضًا.

– كنت نعسّ فيها كي تخرج للشارع. نتبعها بسيارتي، قال لي ثامر.

وعندما أعلمتْه ياقوت أنّ ميلود والدها، تغافل عنها مثلما تغافل عن سحّاب بنطلونه الذي نسيه مفتوحًا.

دأب ابني على تعقّب ريمة حين تخرج، وكان يقتسم أخبارها مع ياقوت في الهاتف. طلب مرةً إجازة من شقيقته، يومًا كاملًا، كي لا تفوته مشاويرها.

يعمل ثامر قوّادًا، لكنّه يحنق على مَن يصفه بتلك الكلمة، فلا أحد يسرّه أن يُنعب بشتيمة. يحرص على تبديل قبّعاتٍ رياضيةٍ تُغطّي أعلى جبهته وتظلّل عينَيْه، وعلى حماية بنات الدار ممَّن لا يدفع لهنّ مقابلًا. يرافقهنّ مرّتَيْن في الأسبوع إلى مركز التكوين، حيث يتعلّمن مِهنتَي الحِلاقة والفندقة، بعد أن يتخفّيْن في ملاحف. يهتمّ كذلك بسقي النباتات والأزهار وشجرة التين الوحيدة في حوش الدار، التي تُعلّق عليها البنات غسيلهنّ. كما يطرد الفئران التي تندسّ في جُحرٍ أو تحت سرير. أظافره يعلوها سواد، من كَثرة انهماكه في تصليح مركبته، ولا يعرف فرشاة ولا معجون أسنان، لكنّه يغيّر نظّارات (راي بان) مثل مَن يغيّر جواربه، كي لا يتعرّف عليه الناس في الشارع، مع خِرقةٍ لا تفارق جيبه يلمّع بها حذاءه الجلديّ كلّ حين.

قضى بضع سنينَ في بلدة كلالة، الواقعة على الطريق المؤدّية إلى العاصمة. كان يعمل في مصنع الحليب، يعتاش من راتبٍ هزيلٍ،

ويقيم في مرأبٍ مع ثلّة من العمّال الآخرين، يتنازعون بطّانية في الليل، ويتناوبون في نومهم على تخوت يرتفع بعضها فوق بعض، بينما تتسابق صراصير تحت أرجلهم، كما حكى لي. حلَم بأن يجمع مالًا، أو يصاحب مغتربًا إلى أوروبا ويكسِب رزقًا من العمل في حقولٍ أو شركات تصنيع، لكنّه لم يظفر بمطلبه. وظلّ يزور أخاه مليك في العيدَيْن أو يتّصل به للاطمئنان إليه، إلى أن أفلس مصنع الحليب مثلما أفلست مصانع الدولة الأخرى، فانخرط في جماعة أشرارٍ، تخصّصتْ في السطو على المحالّ.

لكنّ سرقاتِها لم تكفِه لينعم بحياةٍ وافرةٍ، فدبّر مع أصحابه سرقة مسدّس شرطيٍّ، يحرس مصنع الحليب. رغم توقّف المصنع عن العمل، ساد خوف من أن تحتلّه عائلات لا مسكن لها، وظلّ شرطي ينتصب على مدخله. «سومة المسدّس تقريبًا راتب عامَيْن كامِلَيْن»، قال لي ذات مرّة.

إنّه لا يعرفني حقّ المعرفة، وأنا الذي خبِرتُ الأسلحة في شبابي وأعرف أثمانها. وددتُ أن أتفاخر بماضيَّ، لكنّه لن يصدّقني. فقد قضيتُ حياة في الحرب طمسها الآخرون.

لم يُكتب لعمليته سوى نصف نجاح، فألقي القبض عليه متلبّسًا ببيع المسدّس. وشى بأصحابه، وتوقّع أن يُحكم عليه بعشر سنين. لكنّه فرّ معهم من مركبة الأمن التي نقلتهم من السجن إلى المحكمة للمثول أمام القاضي، وشكّي أنّه دفع بقشيشًا للشرطي الذي سهّل مهمّته. ثمّ عاد إلى بوسعادة على متن سيارةٍ مسروقةٍ، من نوع رينو 4 صفراء اللون، زوّر ترقيمها وزيّنها من الخلف برسمة (خمسةٍ)، درءًا للعين.

التجأ إلى دار بابا ياقوت منتحلًا بِطاقة أخيه مليك، بعدما غيّر صورتها. وسرت بين الألسن قصّة هربه من السجن مع أصحابه. لكنّه

أخفى خوفه كما لو أنّ شيئًا لم يحصل، فقد جعلت منه ياقوت قوّادًا فطنًا ومطيعًا يُعينها في الطواف على البنات، ومرافقتهنّ إلى زبائن في حيّ الغاردن، يطلبونهنّ إلى بيوتهم التي تعلوها أسلاك شائكة حذر اللصوص؛ يقبض النقود نيابة عنهنّ، بعد أن يسلك طرقات جانبيّة تفاديًا لحواجز الأمن، فتدفع له ياقوت ما يُعينه على شراء حاجاته وهدايا إلى مليك، وتصليح سيارته المسروقة، رغم ندرة قطع الغيار. أكبرتُ فيه فتوّته أن غامر بسرقة سلاحٍ، فقد أسرّ لي: «لو نجحت العملية كنت ناوي نتخصص في الأسلحة»، التي صارت سلعة مطلوبة، كأنّنا عدنا إلى عام 1954، ونتهيّأ لإيقاد حربٍ جديدة.

جعلتُ من ثامر صديقًا، كسْبًا لودّه. ففي النهاية، قضيته مع الأمن لا معي، وإنْ حصل وأُلقي القبض عليه فلن يحصل لي مكروه. لستُ أنا مَن يؤويه أو مَن زوّر بطاقة هويّته، لكنّه شقّ بالون الصداقة بيننا وخاطبني:

– نسامح ابنك في حالةٍ واحدة.

ظننتُ أنّه يفكّر في مسامحة ميلود إن ساعد ريمة على الإجهاض أو إن ابتزّ مالًا منه، فهو مثل ياقوت، بوسعه أن يقفز من أعلى عمارةٍ من أجل حفنة دنانير.

– إذا زوّجتَني بابنتك.

خمّنتُ أنّه يسخر منّي. كيف يجرؤ أن يوجّه إليّ هذا الكلام؟ بملمحه الذي يشبه ملامح المخبرين، الذين يعرفون كلّ شيء؛ مَن يسرق سيجارة أو خزينة عامّة.

– راهي على ذمّة رجل.

– هو خير منّي؟

– هو طبيب.

– طبيب ويعتدي على الأولاد في جمعية الأيتام!

– أنتَ هبلت؟

– عندك الحقّ.

وسعيد بهبلك؟... عضضتُ لساني كي لا أُفرج عن كلماتي، ممتثلًا لصوت أمّي الذي همس في أذني: «لا تجادله». فأنا لستُ أرى وجه تقاربٍ بينه وبين عقيلة، وإن كانت عازبة فلن أرضى بزواجها بقوّادٍ مطلوبٍ للعدالة، قد يقع في يد الأمن، فيوصلون مِلقطَيْن بشحمتَي أذنَيْه أو خِصيتَيْه ويسلّطون عليه صعقات كهرباء، ثم يصبّون عليه سطل ماءٍ يزيده ألمًا، قبل أن يُلقوا به في زنزانةٍ تحت الأرض. كم كانت ابنتي محقّة حين خاطبَتْني، ذات مرّة، في تبرير ندرة أصدقائها: «يجب أن أترفّع عن غيري، كي أضمن احترامهم لي»، ولا يحقّ لها سوى الترفع عن أمثال ثامر الذي جاهرني بمقته لمخلوف، وكلّمني عن ابنتي مثل مَن يتكلّم عن صديقٍ قريبٍ، فسألتُه:

– هل تعرفها؟

– داوتْ عيني مرّة.

لستُ أدري متى داوت عينه، لكن لا يصحّ أن يُغرم بامرأةٍ من مجرّد لقاءٍ أوّل، مع أنّني أُغرمتُ بياقوت من أوّل لقاء. إنّه دميم الوجه، كلّما اقترب من امرأةٍ صرفته من طريقها. لن تهيم به سوى مكفوفة البصر أو سيّئة الحظّ. عليه أن يكبح أوهامه، فهي طبيبة بينما هو لا يفرّق يمناه من يسراه، ثمّ إنّه ككلّ القوّادين يكذب أكثر من الإعلانات في التلفزيون. لكنّ ما أخشاه أن يكون صادقًا في حقده على صهري.

«عمري ما نسامح مخلوف»، قال لي.

مثلما لم يسامح والديه أن تخلّيا عنه وعن أخيه مليك.

بما أنّ ثامر قد فرّ من سجن، فلن يُخيفه قطع أنفاس صهري، كي تخلو له ابنتي. ذلك ما طفا في بالي وأنا أنظر إليه ينشّ ذبابة

حطّت على جبهته، من غير أن يقفل سحّاب بنطلونه، ومن دون أن يكفّ عن وعيده بشأن ميلود.

– كنت كي حالك، قلتُ له.

– كنتَ تخدم عند بابا ياقوت؟ علّق ساخرًا.

– كنتُ شابًا في مثل سنّك.

– كلّنا نكبر.

رغم أنّني لم أحتمل وقاحته، فقد ساءني أن يفكّر في فعلٍ يندم عليه عندما يكبر، مثلما ندمتُ على أفعالي في شبابي.

– اسمع نصيحتي خاطر أنا أكبر منك. عمرك ما تغامر في فعلةٍ من دون ما تحسب لها حساب.

قابل نصيحتي بضحكةٍ ظهرت منها أنيابه الصفراء، فغادرتُه عائدًا إلى البيت.

لمحتُ جارتي نوسة تجرّ زوجها من ياقة قميصه إلى الخارج، بعدما عاد إليها ثملًا ككلّ مرّة. يصرف ماله المكتسب من ورشات البناء في الشرب واستدراج القُصَّر، فلا تكفّ عن تأنيبه. رأيتُهُ يضمّ أصابع يده الملوّثة بطلاء، ويشير بها إلى فمه، كمَن يريد أكلًا، وهي تحمل دلو ماء الغسيل، مهدِّدة إيّاه:

– امشِ قبل ما يفوت الحال ونصبّه على رأسك!

مغبونة... غمغمتُ. لم تحظَ بأبٍ ولا زوج. كما لم يُتح لي سؤالها عن حال عكوري. وعندما لمحني بعلها، أفلتَ منها وطلب منّي سيجارة.

لم أعلم أنّ قـدَري سيجرّني إلى مهانةٍ، مثلما جرّتْه زوجتُه من ياقته.

* * *

اصفرّ وجه عزوز ورشح عرقًا من صَدغيه. شعر بأنّه غير قادرٍ على تحريك رجليه، مثل مَن يوشك أن يُغمى عليهِ، عندما كرّر مفتّش الشرطة كلامه:

– لن ترى ابنتك مرّة أخرى.

ظنّ إدريس بادة أنّه بحاجةٍ إلى طبيب.

– لقد كبرتُ في السنّ لكنّني لستُ عليلًا.

– هل بمقدورك الإجابةُ عن الأسئلة؟

صمتَ لحظة ثمّ أجاب:

– ليس لي ما أُخفيه.

تمتم مفتّش الشرطة من غير أن يبيّن كلامه وعلّق عزوز:

– لقد قضيتُ عمري في تربية ابنيّ كما يجدر بأبٍ أن يفعل، وأظنّ أنّ كلامك عن ابنتي غير صائب.

– الصواب والخطأ لا يعلمهما إلّا الله.

– لقد قلتَ إنّه لا علم لك بأمرها، فكيف تجزُم أنني لن أراها من جديد؟

– مهمّتي طرح الأسئلة لا الردّ.

– لكن من حقّي أن أسأل عن ابنتي. أليس كذلك؟

فهمَ عزوز أنْ لا منفعة من مجادلة شخصٍ مصرّ على رأيه، لكنّه عاند:

– ابنتها صغيرة، وتحتاج إلى وجود أمّها بجانبها.

– ...

– يُحزنني أن تتّهموا امرأة بأمرٍ هي بريئة منه.

تغيّرت نبرة إدريس بادة:

– لستَ أنتَ مَن يعلّمني مهنتي، تنتظرني قضايا أخرى.

يقصد المرأة التي عثروا على جثّتها، عقب تبليغها منذ أسبوع، عن تعرّضها لاغتصاب.

– حدّثْني عن ابنك ميلود.

لطالما تغلّبَ عليّ غضبي. كنتُ أصرخ في وجه زوجتي، كلّما حلّت عادتها الشهرية، أو أكسر صحنًا من فخّار على رأسها، معتقدًا أنّها لن تلبّي رغبتي في ابن بكر وأنّني سأحيا مثل «شجرةٍ لا أغصان لها»، كما تهكّم الناس على أخي، لأنّه لم ينجب سوى بنات، والذي تعرفه قمرة بالاسم لا الوجه. أعرض عن حضور زفافي، لكنّني لم أُعرض عنه عندما كان يستنجد بي.

كنتُ أراها في المنام حاملًا، ثمّ أستفيق على بطنها المسطّح، إلى أن أخبرتني بالنبأ العظيم، بعدما وصلتُ إلى البيت بشاحنتي «بيرليه»، التي لم يطل الحال حتى بعتُها في بلدةٍ مجاورةٍ، وتخلّصتُ من عطبها المتكرّر في الفرامل والمحرّك، مكتفيًا بالاسترزاق من شراء قطع غيار المركبات وبيعها. اِغتسلتُ في الحوش، فاقتربت منّي في حشمةٍ:

– راني بالحمل.

قالتها همسا كأنّها من راهبات جامع النصارى، اللواتي عرفتُ فيهنّ الزهد في الكلام وخفض نبرة أصواتهنّ. ولم أعرف هل أُصدّقها أم إنّها تودّ كسب وقتٍ، بعدما هدّدتها بالطلاق.

– اسأل عرجونة.

وهي مسلمة عملت قابلة في مستشفى بناه فرنسيون. فحصَتْ زوجتي وتحقّقت ممّا في بطنها.

من غير أن أتضرّع إلى ربي، حسمتُ أنّ المولود سيكون ذكَرًا. دائمًا ما راهنتُ على حدسي ألّا يخذلني. وطيلة الأشهر التالية لم أُفاتح زوجتي في جنس الجنين. لم أكتم خوفي أن يَفنى رضيعًا، فالأمراض كانت قد كثُرت، وقمرة كانت تَعدّ الأيام والأشهر على أصابعها، مثلما

تعدّ النقود التي تكسِبها من بيع أعشابٍ وعقاقيرَ إلى الجيران، وتدعو في صلاتها أن يكون ذكَرًا كذلك. قررتُ تسميته باسم أبي، ففي عُرفنا يحمل الطفل الأوّل اسم جدّه. وجدُّ ابني حَظيَ بمرتبةٍ بين الناس، رغم قسوته معي في صِغري. لم تعترض زوجتي على رأيي. فرحَتْ بما نبت في بطنها، مثل فرحتي عندما رأيتُ شارلي شابلن. والحقّ لم يسبِق لها أن اعترضت على شيءٍ من كلامي أو حماقاتي. إنّها من نوع النساء اللواتي أسميهنّ قلوب العافية؛ صبرهنّ في التحمّل يُطيل مكوث الرجال معهنّ.

عندما أنجبَتْ ميلود، برَقتْ عينا عرجونة وقالتْ لها: «الذكَر عماد الدار».

ظننتُ أنّني تفوّقتُ على أخي الذي تزوّج امرأة من القرية، ولم ينجب غير البنات، فكان يتحرّج من رفاقه الذين أنجبوا ذكورًا. استنجد بأحراز الشيخ عكشة، من دون أن تُجدي نفعًا.

علّقتْ قمرة قطعة من الحبل السري على عنق الرضيع، وقاية من المرض، وقدّمتْ المشيمة وليمة للقطط. عدّتْ أصابعه وتأكّدتْ منها، لفّته في قماط من قماش، ثمّ وشمتْ ورقة خرّوب على ظاهر يدها، وقالتْ: «باش يبارك ربي في حليبي».

هكذا خمّنتْ، اقتداءً بالأعراف. لكنّ صُداعًا ألمّ بها بضعة أيام، فأقامتْ إلى جنبها جارتنا نوسة، التي تناهزها في السنّ، والتي سبقتْها إلى الإنجاب بخمسة أشهر. نوسة أقرب النساء إليها، وقد زادها الوشم على ذقنها زينة. كانت تدخل بيتنا وتخرج كأنّها من أفراد العائلة.

عمّتْ الفرحة قلبي، وخاطبني عين الطير الذي أحبل زوجته أربع عشرة مرّة، ولا يزال ينعتني ببومنخار: «مَن لا ولد له يشبه عجوزًا بلا عكّاز».

جاء ابني إلى الوجود في وقتٍ لم أتوقّع فيه وصوله، بعد عامٍ ونصف عامٍ من الزواج، لم تظهر فيها علامات حملٍ، وخُيّل إليّ أنّ زوجتي عاقر. أذّنتُ في أُذنيه، ثمّ نثرتُ بَخورًا على رأسه. أحطتُ مهده بدائرةٍ رسمتُها بالملح درءًا للحسد، وجرحْتُ إصبعه فبكى. «يسيل الدم، يسيل الهمّ»، كما يقول الأجداد.

أوجبتُ على نفسي أن أُتيح لابني ما حرمني إيّاه أبي. ذبحتُ شاة، ودعوتُ مَن أعرفهم ولا أعرفهم إلى أكل الكسكسي: «ادعوا لوليدي بالصلاح والنجاح»، هكذا ناشدتُهم.

لكنّ الله لم يستجب لأدعية المؤمنين ولا أدعيتي، لأنّ مال الشاة كان حرامًا. فقد كنتُ أنقل بشاحنتي الرمل إلى مدن الشمال وأجلبُ منها صناديق خمر، في زمن أكلتُ فيه لحم الخِنزير، قبل أن أُقلع عنه عام 1954، امتثالًا لتعاليم جبهة التحرير.

رجوتُ لميلود حياة أفضل من حياتي؛ أن يدرس ويمتهن حِرفة تتيح له عيشًا كريما. أمسكتُ بيدَيْه وساقَيْه كي لا يتحرّك، وهو في الخامسة من عمره، فأشار إليه الختّان أن يرفع رأسه إلى السقف. وما كاد يفعل حتى مرّر الشفرة وأزال قلفته. صرخ صرخة اقشعرّ لها بدني، ثمّ نزف مثل مَن أصيب برصاصة. ضمّدتُ جرحه وهو يستغيث بأمّه، التي زغردتْ: «يا فرحتي، ابني ولّى رجل». وهي تدمع إشفاقًا على ألمه.

أهديتُه ثوبًا جديدًا، وسقيتُهُ من حليب الناقة الذي يسهّل التئام الجروح.

أسرفتُ في تدليله، مقتديًا بالمثل «دلّل ابنك، يُغنيك». وبالفعل، عندما بلغ المراهقة، أغناني بالهموم. أمّه كذلك بالغتْ في تدليعه، فشبّ عنيدًا. يثقب عجلات درّاجات، مثيرًا بلبلة بين الجيران، وإذا تشاجر مع أحدٍ فلا ينام قبل أن يثأر من خصمه. عاقبتُه

مرّة بأن حلقتُ شعره بالزيرو ومنعتُهُ من مغادرة البيت أسبوعًا. ثمّ شممتُ رائحة سجائر في ثيابه، استلّها من جيب سترتي. يكذب فأتغاضى عنه؛ ظنّ أنّني أصدّق كلامه فأَفرط في ثقته بنفسه. بلغ ميلود سنّ الرشد عندما تعلّم الكذب، لا عندما خُتنَ كما ظنّتْ قمرة.

تمنّتْ أمّه أن يصير طبيبًا، لكنّه أخفق في امتحان الثانوية العامّة. كان يدّعي أنّني مقعَد وأنّه يعيل البيت وحده، لتبرير غيابه عن المدرسة. ثمّ أدّى الخدمة العسكرية طوال عامَيْن «من أجل الوطن» كما يقول التلفزيون، عاد منها بذيء التنكيت، ورافق أصحابًا أُسمّيهم حيطيست؛ عاطلين من العمل، يقضون يومهم جلوسًا تحت الحيطان. وإن مرّت جنبهم امرأة فلا تسلم من تصفيرهم لها. ثمّ حثّته قمرة على الالتحاق بمدرسةٍ شبه الطبي، فصار ممرّضًا، في العام الذي جعلت فيه الحكومة عطلة الأسبوع الجمعة بدلًا من الأحد. من غير أن يتنازل عن محبّته تجاه جارتنا نوسة، التي أرضعَتْه والتي كان يلتجئ إليها كلّما اشتدّ غيظي منه.

كنتُ فظًّا في صراخي عليه، لكنّه لم يشتكِ. نوى خطبة ممرّضةٍ، لكنّني اعترضتُ، وتعلّلتُ بأنّها أكبر سنًّا منه. أمّها عملتْ في مقهى روز، وتعلم بحكايتي مع ياقوت. لم أُرد أن يدخل بيتي شخص يحرّك تربة الماضي، فخاصمني شهرًا من غير كلام.

التحق بالمستشفى، ولأنّه لا واسطة له ولا معارف، تقبّل شتائم المدير الذي يعامل الممرّضين مثل مساجين. كان يصل الليل بالنهار، وفي أحيانٍ ينام جنب المرضى؛ فالعمل أثمن شيءٍ في حياته. إلى أن اتّهمه شخص بسرقة كُليَته. وصلتْ الحكاية إلى المحكمة ونجوتُ من نوبةٍ قلبيةٍ، من جراء خوفي عليه. تمنّع مخلوف عن التوسّط له كي لا يُغضب ربّ عمله. فقضى ميلود ستة أشهرٍ خلف القضبان، مع لصوصٍ وقتلةٍ وتجّارِ ممنوعات. «آكُلُ حَساء العدس البائت»، حكى لي.

جرتْ تبرئة ابني، نظير خلوّ ملفّه من دليل إدانة. أمسك بيده إذنًا بالخروج، كُتب عليه اسمه وعنوان البيت، وعاد بعدما سُحبتْ منه بِطاقة الهوية. نفى سرقة كُليةٍ، مدّعيًا أنّ قضيّته كانت ستُحلّ في المستشفى، لكنّ أحدهم أوصل الأمر إلى الأمن، كما يعتقد: «سوف يأتي يوم وأعرف مَن يكون».

عطفتْ عليه شقيقته فوظّفتْهُ في عيادتها.

ابنتي عقيلة كانت أكثر حظًّا من شقيقها. نالت البكالوريا ووصلتْ إلى كُليّة الطبّ في العاصمة، على الرغم من اعتراض أمّها على خيارها. علاقتها بقمرة أسوأ من علاقتي برفاقي القدامى الذين انقلبوا عليّ. تشوبها خلافات ظاهرة وأخرى صامتة، وأنا بينهما في مقعد المُشاهد، من غير أن أميل إلى إحداهما. مع أنّ ابنتي كانت تميل إليّ أكثر من ميلها إلى أمّها في صغرها.

«المرأة ابنة أبيها»، قالت لي ذات مرّة، فأثارت غَيرة زوجتي، التي أصرّت على تزويجها، وحين تزوّجت باتت تخاف أن يطلّقها زوجها. لطالما هـدّدتْ قمرة بالطلاق، فصارت تخاف أن تسمع أنّ ابنتها مطلّقة. قالت لها: «راقبي زوجكِ». فتأخُّرُ مخلوف عن العودة إلى البيت، عندما لا يرتبط بورديّةٍ ليليةٍ، وانشغالُه بقضاء وقته مع أصدقائه كما يقول، جعلاها تخمّن أنّ له امرأةً ثانية. زوجتي حريصة على مستقبل ابنتها في البيت، لا في العمل. لا يهمّها ماذا تفعل في عيادتها، بل يهمّها ألّا يفارقها مخلوف.

لم أشعر بشيءٍ في قلبي حين وُلـدتْ عقيلة. كان يعنيني أن يكون البكر ذكَرًا، وكتب لي ربي ما أردتُ. فحين جاءتْ إلى الوجود، كنتُ غائبًا عن البيت أسبوعًا كاملًا، قضيتُهُ مع ياقوت. رأيتُ ابنتي، للمرّة الأولى، ترضع من نهد أمّها، ولم أعترض على الاسم الذي اختارته لها. فثقبتُ شحمتَي أُذُنيها وعلّقتُ عليهما خيطَيْن، لتفريقها عن

الذكَر، ثمّ قرأتُ على رأسها الفاتحة، من غير أن أحفل بها، «لأن البنت تجيب الصبار، والابن يجيب النوار»، مثلما سمعتُ أبي يقول. لكنّ صوت أمي همس في أذني: «البنت تجيب الرزق». ثمّ تيسّر حالي وندمتُ على تخاذلي.

قمرة كانت قد كسَبتْ خبرة، فلم تحتج إلى مساعدةٍ من نوسة في العناية بابنتي، التي لم تخن ثقتي بها. عكس ابني، الذي ربّيتُهُ مثل شبل وحين استأسد كشّر عن أنيابه.

ابنتي حفِظتْ محبّتها نحوي وميلود تنكّر لي. فقدتُ أعصابي، ذات مرّة، وانهلْتُ عليها في صغرها بعصا انكسرتْ على ذراعها، عندما علمتُ بتغيّبها عن المدرسة. لم أشأ أن تخِيب في تعليمها مثلي، ولم أشأ أن يسخر منها الأطفال نظير لثغة في لسانها، ونطقها الخطأ للحروف، لكنّها درّبتْ نفسها وشُفيتْ من لثغتها، قبل أن تُتمّ سنّ الرشد. ورأس يمّا تستحقّ أن أورثها القليل الذي أملك، أمّا شقيقها، فيليق به حمل خطاياي. ينوي مساعدتها على إقناع بودو بمشروع كلية طبٍ، وأهمل مساعدة نفسه، على التخلّص من الأكاذيب التي يحيا فيها.

جلب إلى البيت هـرّة جائعة وعطشى فأكبرْتُ فيه عطفه عليها، أمّا عقيلة، فأكبرتُ فيها صبرها ومثابرتها في عملها. تصارحني بالأحلام التي تزور نومها وأرتجل تفسيرات تريح بالها، فيما أنا عاجز عن تفسير الحلم الذي تكرّر منذ أيام. أرى فيه نفسي وقد عدتُ طِفلًا في مدرسة شالون، لاجتياز امتحانٍ فأملأ ورقة الأجوبة، ثمّ أقوم من مقعدي كي أسلّمها إلى مدام مارغريت، التي تتجاهلني وتغادر القاعة، فأركض خلفها مناديًا إيّاها، وحين تلتفتُ إليّ أستفيق من النوم. ضايقني هذا الحلم، وضايقني شكّي في أنّ عقيلة تعلم بأمر ابنة ميلود، وأخفت عنّي حكايتها.

ذلك ما دار في بالي، وأنا أغادر بيت ياقوت، بعدما اجتمعتُ مع زملائي كالعادة. تُلحّ عليّ رغبة في فَهم ما جرى خلف ظهري، ولن أكون أوّل أب يتبرّأ من بِكره ولا الأخير.

* * *

خمّن مفتّش الشرطة أن تكون عقيلة قد آزرت والدها على التخلّص من مخلوف تومي.

– لم يسبق لابنتي أن فكّرت في إيذاء زوجها.

ذكّره إدريس بادة بقوله: «لا أحد يعرف أبناءه حقّ المعرفة»، مُخفيًا عنه أنّها تواجه شكوى من إحدى مريضاتها.

– ما زلتُ على يقيني أنّها بريئة.

– أنتَ تتهرّب من سؤالي.

– لم أتهرّب من سؤالك ولم أرتكب جرمًا ليشاركني فيه شخص آخر!

– هل تتستّر على ابنتك؟

– أنا لا أتستّر على أحد.

– ...

– لقد استدعيتموها للمثول. بوسعكم استجوابها.

امتنع إدريس بادة عن التعليق، ثم بادره:

– أنتَ تتكلّم من غير أن تجيب عن الأسئلة.

واتّهمه بإضمار رغبةٍ في الانتقام من شهلة البرق قائلًا:

– هي رغبة لم تتنازل عنها منذ ما يربو على ثلاثين عامًا.

– هل تظنّ أنّ ذاكرتي تُسعفني على تذكّر ما حصل قبل ثلاثين عامًا؟

– قد ننسى أمورًا كثيرة، لكن لا ننسى الثأر والانتقام.

ح

استهوتْني مشاهدة الدلافين في قناةٍ أجنبيةٍ، فغيّرتُها حين دخل مخلوف، إلى القناة الوطنية التي لا يشاهد غيرها، والتي كانت تعرِض شريطًا عن حيواناتٍ مهدَّدةٍ بالانقراض. فسحتُ له مكانًا في الأريكة، فجلس بالقرب منّي.

مخلوف يلتفتُ على الدوام كمَن يترقّب أن يهجم عليه أحد. أعرف هذا النوع من الرجال الذين أُسمّيهم يرابيع. يحدسون عواقب كلّ كلمةٍ ينطِقون بها أو فَعلةٍ يُقدِمون عليها. فقد اعتاد هذا السلوك من مخالطته الشرطة، التي تلجأ إليه كلّ مرّةٍ قَصْدَ تبيّن ظروف موت أحدهم. لصهري عينان حادّتان مع حاجبَيْن كثيفَيْن، وفمه عريض مثل فم الأسماك التي كنتُ أصطادها سنوات الحرب العالمية، بقذف قنبلةٍ يدويةٍ في بُحيرةٍ، فألتقطها من صفحة الماء وأطهوها من دون زيت. سكن معنا لأنّ ابنتي قليلة الصّبر، ولم تُطق حماتها. «سنقيم في الطابق العلوي إلى أن تكبر ابنتي، ثم نشتري بيتًا نتوسّع فيه»، قالتْ لي ولأمّها.

قمرة تردّدتْ، أمّا أنا، فلم أمانع. توسّمتُ فيه رجلًا لا يتطّفل على ما لا يخصّه. ثمّ تضايقتُ من نغم صفعاته على وجه زوجته، لكنّني كتمتُ حنقي. أنا أيضًا فعلتُ مثله في زمن سلَف. سمعتُ أبي مرّة يقول: «المرأة يربّيها أبوها أو زوجها».

والحقّ أنّ غضبي من زوجتي لم يكن نتاج عنادها أو أنّها تُصدر صوتًا حين تأكل، بل كنتُ لا أتحكّم في يدي كلّما أسرفتُ في حقدي على رفاقي القدامى إزاء ما فعلوه بي. قمرة ظلّت صبورة في تحمّل نزَقي. ترمُقني بعيْنَيْها الصافيتَيْن واللامعتَيْن مثل عيون العنزات، وهي تكرّر حكمتها:

– اللي يزرع الريح يحصد الغبار.

فأردّ عليها:

– مَن أغضبتْ زوجها، لعنتْها الملائكة.

لكنّها ما زالت على رأيها: «لازم تتبدّل». ماذا بوسعي أن أغيّر عدا الندم على أيامي!

جلس صهري جنبي، في الصالون الذي أغلقتُ مصرعَي نافذته، حذَر الشمس، ما أعتم النظر إلى صورة أمّي المعلّقة، بين لوحتَيْن مقتبستَيْن من أعمال إيتيان ديني، وشرع كعادته يسأل عن صحّتي. فهو يصرّ على الاطمئنان إليّ، كمَن لا يرجو سوى أمراض من شيخ كحالي، أو لعلّه يفكّر في إيداعي دار المسنّين من غير أن يصارحني. لا أريد أن ألتحق بأولئك العجزة، الذين يتبادلون أحاديث عن الماضي لأنّه لا حاضر لهم ولا مستقبل، فطمأنته إلى أنّ أموري كلّها بخير.

– قِستَ ضغط الدم؟

– في مستواه الطبيعي.

لا أعاني آلامًا، منذ أن أقلعتُ عن تناول السكّر، قلّلتُ من الملح وألتزم بمواعيد أدويتي. ما زلتُ قادرًا على السير على قدميّ، مع أنّني أشعر بضيقٍ في التنفّس إذا قطعتُ مسافات متوسّطة، فأُضطرّ إلى التوقّف حتّى أسترجع أنفاسي. كما يعاودني الضيق كلّما انقطعتْ الكهرباء ليلًا وتوقّفتْ المِروحة عن الدّوران، وأحسّ بجفاف ريقي. لكنّني لستُ بحاجة إلى بخّاخ مثل ياقوت. ولم تمسَسْني أمراض من الماء الملوّث أو من شدّة القيظ كما حصل مع غيري.

لم أُخبره بذلك كي لا أرضخ لنصائحه بأن أُجري فحوصات معمّقة، فأضطرّ إلى الطواف بين أطباء وممرّضين والانتظار قصد الظفر بدَورٍ، كما أنّني لا أودّ زيارة طبيبٍ فأكتشف أنّني مصاب بمرضٍ أو ورمْ. ليتهم يبحثون عن دواءٍ مضادٍّ للشيخوخة أو يمحو آثار الكيّة في

ظهري، مثلما يبحثون عن لَقاحٍ يشفي من هذا المرض، الذي يسمّونه السيدا. أعلم أنّني أدنو من حتفي، لكنّ ثقتي بربّي أن يُطيل عمري. وصلتُ إلى الشيخوخة وأنا في استعدادٍ لها. تعوّدتُها مثلما تعوّدتُ أن يشملني مخلوف بكلماتٍ مهذّبةٍ: «أشمّ فيك ريحة بابا»، يقول لي. لكنّه لم يشمّ رائحة رأفةٍ في زوجته، التي أقنعت ميلود بالتنازل عن الشكوى التي أودعها ضدّه، بعدما خلّف لها عجزًا دام ثلاثة أيّام. وغيّرتُ مجرى أسئلته عن حالي:

– متى تنجب أخًا لابنتك؟

يريد ذكَرًا «يملأ البيت»، كما يقول دائمًا.

ضحك وذلك ما تخيّلتُ منه أن يفعله، وهو يلمح مينة تعانق هرّتها بعدما أتعبها اللعب معها.

– كلّ شيء بالمكتوب.

– تنوي على ضرّة؟

رغم ما انطوى عليه السؤال من سخريةٍ، فقد امتقع لون وجهه. كم أنا فاشل في إضحاك غيري... غمغمت.

– ابنتك في الصون.

إنّه يقبض راتبًا مُجزيًا من عمله، يؤهّله للتفكير في زوجة ثانية. ألا تُغريه إحدى اللواتي يتسكّعن في وسط المدينة، وهنّ يطلين وجوههنّ بكريمات تفتيح البشرة ويرتدين ثيابًا مثيرة ومستوردة؟ كلّما اشتدّ الحرّ، أشرق جمالهن. وعندما أصادفهنّ أتمنّى امتلاك عصا، فأطلّ على ما يُخفين تحت تنانيرهنّ. رغم أنّ عددهنّ قلّ، منذ أن صار ملثّمون، يمتطون درّاجات ناريّة، يهجمون على مَن تكشف عن ساقيها بالحمض أو بمِشرط على مَن ترتدي ثوبًا ضيِّقًا، ثم يعلّقون ملصقات على الحيطان، تحذّر من «فساد الأخلاق»، كما يقولون.

ويوصون بعدم مشاهدة القنوات الأجنبية التي تدخل البيوت من صحونٍ لاقطةٍ، «تستبدل مساوئ الأخلاق بمحاسنها».

لكنّني لا أريـد أن يستبدل أخـرى بابـنـتي، فيضاعف من أوجاعها. عدّلت كلامي إلى سؤاله عن حاله في المشرحة، فذكّرني بخصامه مع مدير المستشفى، وتأفّفه من أشخاصٍ يتقدّمون إلى المشرحة بغرض رشوته ونيل أعضاءٍ بشريةٍ يستعينون بها في السحر والشعوذة، وأضاف:

– كلّ يوم موتى... هذا طعنَ هذا، هذا شنقَ هذا...

حدّثني عن جثتَي طفلَيْن وصلا إلى مكان عمله، بعدما خنقتهما أمهما، فشعرتُ بالتواءٍ في معدتي.

«أرادت استخدام يدَيْهما في وصفات شعوذةٍ»، قال.

وقد نوى ملازمة البيت، هذه الأيام، حتّى يتعافى من وعكةٍ من كثرة العمل، وأنا أتفهّم أن يقضي لياليه في ارتشاف نبيذٍ، قصْدَ تناسي المآسي التي يراها. فحين كنتُ على الجبهة الإيطالية، كنتُ أثمل كلّما خلوتُ إلى راحةٍ، فأنسى الجثث والأعضاء المبتورة التي أراها في ساحات القتال، مثلما كنتُ أشرب سنوات حرب التحرير، كي أنسى أنّ البوليس قد يداهم بيتي، في كلّ حين. حتى وقعتُ في غلطةٍ مع ياقوت لا أزال نادمًا عليها؛ أنجبتُ منها طفلًا لم ينعم بوالدَيْه الحقيقيَّيْن. أنا ومخلوف شريكان في مجاورة الموت. ولن أُحرجه بسؤالي إن كان يختلي بامرأةٍ أخرى كما تظنّ قمرة، فللرجال طباع واحدة؛ ينسون زوجاتهم كلّما ازداد قلقهم.

ظننتُ أنّ الفرصة مواتية فسألتُهُ عن عكوري، الذي يرقد في المستشفى، ولم أعرف شيئًا عنه منذ أن سحبوا منه جهاز التنفس.

– تقصد ذلك الحركيّ؟

قالها بصوتٍ مرتفعٍ، بسبب ضَعف سمْعي، وهو يرفع حاجبَيْه.

كلّما سمعتُ كلمة حركيّ تذكّرت شهلة البرق. أطلقوا عليها تلك التسمية، لأنّها كانت تنفّذ عملياتها بسرعة البرق، منطلقةً إلى الأمام لا تلتفت خلفها. كانت فدائية في حرب التحرير، مع زميلاتٍ لها، تزرع متفجّرات في أمكنةٍ عامّةٍ، وتمتنع عن إخفاء الأقراص السامة تحت ياقتها، في حال اعتقالها وتعذيبها. «الأعمار بيد الله»، تعوّدتْ أن تقول. وبعد الاستقلال، عندما عدتُ من نزع الألغام على الحدود مع تونس، شاركَتْ رفاقي القدامى في تسويطي وتغريقي في حوض ماء، ثمّ صعقي بالكهرباء على إبطَيَّ وخِصيتَيَّ، وأنا أجلس إلى كرسيٍّ مكبّلَ اليدَيْن من الخلف، مع تهديدي بكلبها من نوع «الراعي الألماني»، الذي كان لسانه يتدلّى على الدوام.

تعاودني آلام الأيام التي قضيتُها أنا وعكوري وآخرون، في قبو فيلا خلّفها فرنسي، فتحوّلت إلى دار ثقافة. ترتعش فرائصي وأرغب في الصراخ. ظننتُ يومها أنّني لن أخرج حيًّا، أنّ أمري سينتهي بدفني في قبرٍ لا شاهدةَ فيه، كما دفنوا آخرين أُلصقت بهِم التهمة مثلي.

عادت إلى بالي، وأنا تحت التعذيب، ذكريات طفولتي. تصفّحتُ حياتي وما جرى فيها. تذكّرتُ أشخاصًا عرَفتهم وآخرين أحببتُهم. رأيتُ نفسي أُمسك بيد أمّي، وأسير جنبها على شفير جُرف. أسألها ماذا يجدر بي أن أفعل، كي لا تزِلّ بي قدمي، فلا تجيب. تمنّيتُ أن أبتلع قُرصًا من أقراص قمرة، التي كانت تزوّد بها فدائيات، فيمُتنَ موتًا رحيمًا بدلًا من التعذيب، وانخرطتُ في هَذيانٍ مُناجِيًا ربّي. خفتُ على ابنيَّ؛ خشيتُ أن يكبرا يتيمَيْن، أن أموت ولا يعرفا قبري.

كلّ رفاق شهلة كانوا يسقون السجين ماءً. هي امتنعتْ وخمّنت أنّني وشيتُ بها إلى بوليس الاستعمار، الذي حكم عليها بالإعدام لولا فرارها من السجن:

– أنتَ حركي وادّعيتَ العمل جنب المجاهدين!

صرختْ في وجهي وعارضتُ كلامها.

– جدّكَ خدم الفرنسيين!

– هل أنا مسؤول عمّا فعله جدّي؟

– وانخرطتَ في جمعية «قدامى الحرب العالمية»، الموالية للمُستعمِرين.

– للتمويه على نشاطي في حرب التحرير، أجبتُها.

– إذا لم تعترف، والله ندخّل صباطي في منخارك الكبير.

لم تصدّق قولي وسألتْني مَن وشى بها. نفيتُ علمي بالفاعل، خافضًا بصري والخوف يعوي في بطني. وكان الوقت منتصف النهار، فهاجت:

– سآكل لحمك.

شعرتُ ببولي يسيل حارًّا بين ساقَيَّ، عندما دخل رجل ضخم مثل خِزانةٍ ذات مِصراعَيْن، ملثَّم الوجه. اقتدى بأوامرها وكوى ظهري. شعرتُ بلهيبٍ يسري في جسمي وأنا أنادي أمّي أن تقوم من قبرها وتُغيثَني، حتّى فقدتُ أنفاسي وأُغميَ عليّ. حين أفقتُ بدلوِ ماء على وجهي، أطلقوا سراحي. داويتُ الكيّة بالعسل، متجنّبًا التعرّض للشمس، وممتنعًا عن حكّ مكان الحَرق، مثلما تمنّعتُ عن الخروج إلى الشارع طوال أيام. جرّبتُ أن أغرق في النوم لأنّ النوم يعصِمني عن التفكير في الألم. لكنّني كنتُ أستفيقُ كلّما أغمضْتُ عينَيّ، إذ يراودُني كابوس أرى فيهِ نفسي أُوَجِّهُ مسدَّسًا نحوَ جماعةٍ تودّ الانقضاض عليّ، فأضغط الزناد لكن لا رصاصة تخرج منه. فقدتُ شهيّتي للأكل مثلما فقدتُ التحكّم في بَولي، وعزمتُ على الهجرة إلى مارسيليا، مثلما فعل أخي، فهناك لن ينتقم منّي أحد، هكذا فكّرتُ. ثمّ تراجعتُ على أمل استعادة حقّي وطال انتظاري. صرتُ عاجزًا عن

الإنجاب، من جرّاء التعذيب وصعقات الكهرباء التي أطفأت جذوة فحولتي؛ مَن خمدت فحولته سكن الغمّ قلبه. وظنّت زوجتي أنّ العلّة فيها أو أنّ سِحرًا مسّها، فخافتْ أن أطلّقها. وخفتُ أن يكرّر رفاقي القدامى فَعلتهم بي.

عندما سألتْني عقيلة، منذ أيام، عن شهلة البرق تظاهرتُ بعدم سماع سؤالها، تفاديًا للردّ عليها، أو الخوض في شؤون الجمعية الخيرية التي تصرف عليها تلك المرأة، كصدَقةٍ جاريةٍ عن والدها المتوفَّى. مثلما تبنّى مخلوف جمعية الأيتام، صدَقةً جارية عن أبيه، بعدما قضى سنينَ مجرّد متطوّعٍ فيها. وأنا صرتُ أتلافى المرور جنب دار الثقافة، كي لا تعاودني كوابيس ما جرى في قبوها.

أجبتُه:

– مَن قال إنّه حركي؟

توقّعتُ أن يعتذر ويقول إنّها زلّة لسان، لكنّه امتلك ذريعة رفعتْ من نبضات قلبي، ونغّصتْ عليّ متابعة الشريط عن الحيوانات المهدَّدة بالانقراض.

– أنا الذي حرّرتُ شهادة وفاته، ورأيتُ الكيّة على ظهره.

لا حول ولا قوة إلا باللّه! لقد مات عكوري مثلما مات زملاء آخرون لي. «وحداني غريب في بلاد الذيب»، هكذا عاش وبات يرقد في مربّع الحركى، لذلك لم تُقَم له جنازة. مَن يمُت مثله تتكفّل بجثمانه مصلحة الدفن في البلدية، لا أهله، الذين أرجّح أنّهم تبرّأوا منه، لذلك لم نعلم بأمر مماته. فقد غابت جارتي نوسة عن الأنظار، كما أنّني اتّصلتُ من أيامٍ على هاتف دار الثقافة، التي يُديرها نجل عكوري، لكن لم يردّ أحد على مكالمتي. مؤسّسات الحكومة لا تردّ على المكالمات كالعادة.

هكذا يرحل الذين أحبّهم، وسأظلّ وحدي مثل صنم.

لكنّ مخلوف، الذي يتكفّل باستصدار شهادات الوفاة، كان طفلًا أيام الحرب. مَن أعلمه بمغزى الكيّة؟ لماذا قدّر أنّها علامة عمَّن اتُّهموا بالخيانة؟ قبل أن أسأله، أجابني وهو يلتفتُ برأسه يَمنة ويَسرة، كمَن يخشى أن يسمع كلامه شخص آخر:

– رحم الله بابا. غداة وفاته، أخبرتْني يمّا بحكاية الكيّة.

عطف على أبيه ولم يفضح سرّه، حرّر شهادة وفاته ولم يُبلغ عنه. بل أبلغ عن عكوري، وجعل منه عارًا في قبره. كان صهري يتكلّم بنبرةٍ واثقةٍ، كمَن يعلم كلّ ما جرى، وأنا أؤمن بأنّ «مَن قال أنا أعلم فهو لا يعلم».

رحم الله محجوب الأعور، الذي خلّف ابنًا قبيح القلب. لو عاد إلى الحياة لشقّ رأس ابنه مخلوف بعصاه، المصنوعة من خيزران:

– أبوك لم يكن من الحركى!

لكنّ مخلوف لم يجارِ كلامي.

– ربّي يعفو علينا وعليه، ردَّ وهو يُشيح بصره عنّي.

محجوب الأعور كان يكتفي برغيفٍ واحدٍ في اليوم، يقتسمه مع عائلته. فارع القامة مثل برج إيفل، بخيل إلّا مع زوجته وابنه. يقسو عليهما في السر ويعطف عليهما أمام أعين الناس. زوجته كانت لا تردّ له أمرًا فنظنّ أنّ الزوجات خُلقن مطيعات. لكنّ عمله كحجّام، لم يُغنه عن الحاجة. كان يشرّط جلد الوافدين إلى دكّانه، ويسحب منه دمًا داكن اللون. يقول إنّ مهنته تشفي من التهاب المفاصل وتزيد من حيوية الجسم. لكنّها لم تزد من حيوية جيبه، وأُرغم على تكسُّب فرنكاتٍ من الفرنسيين. يفيدهم بأسماء زبائنه وأسماء زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم، فيعتقلون مَن يشكّون في انتمائه إلى المجاهدين، أمّا هو، فيقبض منهم ما يُعينه على تلبية حاجات

أهله. لم يكن راضيًا عمّا يفعل، لكنّه افتقر إلى مالٍ من أجل أن يكبر ابنه وينال تعليما لائقًا، فيصير طبيبًا.

سجنتْه شهلة البرق وعذّبتْه، كوتْ ظهره وعورتْ عينه. ثمّ أطلقتْ سراحه، بعدما تيقّنتْ أنّه لم يشِ بها.

– شهلة البرق حسابها في الدنيا قبل الآخرة، قال صهري.

لقد أخبرَتْه أمّه بكلّ ما وقع ووددتُ أن ألعنها. أمّا مخلوف، الذي يتكلّم مثل أنبياءَ ويتصرّف مثل جهلةٍ، فيودّ لعن شهلة ومسح وجهها بالخزي.

ما تفعلُه لن يرضي والدك في قبره... قلتُ في سرّي. ولا يُرضيني أنا أيضًا.

بعدما تمنّعتْ عائلات المدينة عن مصاهرة هذا الرجل الذي يجلس جنبي، بسبب شُمعة أمّه التي ساءت بين الألسن، ببطشها وحدّة لسانها، فهو ابنها الوحيد ولم تُرد أن يرتبط بأخرى سوى بشروطها. قبلتُ أن أزوّجه ابنتي، خوفَ أن يتقدّم بها السنّ. فرِحتُ بزواجهما أكثر من فرحتي بزواجي، ويساورني أنّه سيسوِّد وجهي كذلك.

لا بدّ أن أكلّم أمّه فتنهاه عن فضح مَن كُوِيت ظهورهم ولفّقتْ لهم التهم، وإن لم تفعل فسوف أتصرّف. بما يجنّبني أن أصير مسبّة في قبري، في حال اكتشف الكيّة على ظهري، هكذا حسمتُ في قرارة نفسي. وعليّ أن أسرع في قراري.

* * *

مكتبة ياسمين
telegram @yasmeenbook

نفى عزوز أنّ له رغبة في الانتقام من شهلة البرق:

– عرفتُها زمن حرب التحرير.

هي صارت رمزًا من رموز النضال وهو شُطب اسمه.

– مَن وشى بها للاستعمار؟ سأل إدريس بادة

– لا أعرف.

سحب المفتش ربوة تبغ من تحت شاربه وقذف بها على البلاط، ملمّحًا في كلامه إلى أنّ إصرار محدّثه على الإنكار لا يخدم سير الاستجواب.

– تظنّ أنّني أفتري عليك! ألم تكن عميلًا إبّان الحرب؟

ضيّق عزوز عينَيْه وهو يحدّق إلى مفتّش الشرطة. شعر بجفافٍ في ريقه وهو يهمس في جوفه: أنا الذي أنفقتُ مالًا من أجل أن تنجبك أمّك في أحسن حال، تصفني بالعميل؟... لكنّ محدّثه لا يعلم هذه القصّة، ولا منفعة من مفاتحته بأمرها، كما حسم، فاكتفى بالردّ، بصوتٍ خافت:

– معك حقّ، فأنتَ أيضًا تصدّق ما يفترون.

قالها وهو يشعر بصعوبة في التنفس.

– هذا كلام شهلة البرق. برّر مفتّش الشرطة قوله.

– لا ألومها، فقد خدعوها هي أيضًا.

– أرجو ألّا تخدعني أنت!

– لا أودّ أن أخدعك، فقد عرفتُها منذ زمنٍ بعيد. ثم انقطعت علاقتي بها.

وأضاف بنبرةٍ منكسرةٍ:

– لماذا تظنّ أنّني رغبتُ في الانتقام منها؟

– لأنّك تحقد عليها!

وعلم عزوز من لسان إدريس بادة أنّ عقيلة قد أجرت عملية لعينها، أودت إلى إطفاء بصرها.

هل امتثلتْ إلى رغبة مخلوف، الذي ودّ عور عين شهلة انتقامًا لأبيه؟... كتم سؤاله وأخذ يعرق.

– هي ابنتي لكنّني لا أتدخّل في شؤون عملها.

وأردف:

– إن رغبتُ في الانتقام من شخصٍ أنتقم منه بنفسي، لا أوكّل غيري.

– لكنّك خالفتَ قناعتكَ ووكّلتَ ابنتكَ هذه المرّة!

ط

دعتْ قمرة ذات مرّة: «الله يحرق الحركى في الدنيا قبل الآخرة»، هكذا يقول الآخرون كذلك. أتخيّل حالها إذا علمتْ أنّ زوجها في عداد مَن دعتْ عليهم، هل ستكرّر دعواها؟

وجلستُ إلى الأريكة، فقفزتْ الهرّة شيشيرة إلى حُجري. مسّدتُ فروها، فخفضتْ رأسها وهي تخرخر. ثمّ قلبتُها على ظهرها، لأتأكّد من أنّها أُنثى لا ذكر، وقدّرتُ أنّ عمرها في الخامسة لأنّ عينَيْها لامعتان وصافيَتان وفروها لا يزال ناعمًا. خبرتي في القطط تعود إلى طفولتي في القرية... فيما مينة تفترش الأرض قبالتي، تصفّف ألعابها البلاستيكية في خطٍّ مستقيمٍ، سيارة خلفها كرة تليها دمية، كأنّها تشيّد جسرًا تودّ العبور منه إلى سنّ الرشد، هربًا من عقيلة التي تزجرها، بصوت يشقّ جذوع النخل لأبسط الأمور.

– أنا نحب بابا خاطر ما يضربنيش، ونحب يمّا خاطر تشريلي ألعاب.

هكذا ردّتْ حفيدتي عندما سألتُها عمَّن تفضّل بين والديها. وإن سألها أحد عن عمرها فإنها تبسط راحة يدها، وتطوي الإصبع الوسطى، في دلالةٍ على الرقم أربعة، من غير أن تعلم أنّها تؤدّي إشارة بذيئة، فتثير غضب أمها التي تمنع عنها الحلوى حذر أن تتسوّس أسنانها وتجبرها على لقم حساء الخضر (لأنّها لا تعرف طبخ أكلات أخرى). وإن تمنّعت تلوي شحمة أذنها، إلى أن تستفرغ ما في بطنها وتركض هاربةً منها إلى زوجتي، وهي تبكي بصوتٍ مبحوحٍ مثل مذياعٍ تكاد تنفَد بطّاريته، فتحضنها قمرة وهي تكيل الشتائم لابنتنا، بأنّها مستهترة ولا تستحقّ أن تتزوّج أو تنجب: «يا ربّ يجيني خبرك مدهوسة بسيّارة»، تقول لها غاضبة.

يُفترض أن تصير زوجتي شاعرة، فهي تحفظ الشتائم كلّها، مثلما تحفظ مقالب الجيران وهمومهم.

لقد فرّتْ عقيلة من حماتها فوقعت في شَرَك أمّها، التي لم تفهم أنّ المرأة لا تولد أمًّا، بل تصير كذلك أسوةً بوالدتها. أمّا ابنتي وأمّها، فيفصِل بينهما برزخ، وعقيلة تستنزف وقتها في عملها، ولا ترى صغيرتها سوى سُويعاتٍ في اليوم. كيف بوسعها أن تصير أمًّا وهي غائبة عن البيت؟ أليست مداواة مرضاها أَولى لها من بقائها بين أربعة جدران؟ وزوجتي تفضّل ميلود عليها: «ولدي سيّد الرجال»، تمتدحه.

تتكلّم معه أكثر ممّا تفعل معي. ورأس يمّا لو أنّها تعلم ما فعله، للعنتْه إلى يوم الدين، ولتوقّفتْ عن الإمساك بحَفنة ملحٍ في قبضة يدها، كلّ صباح، فتدوّرها فوق رأسه وهي تعدّ من واحدٍ إلى سبعةٍ، ظنًّا منها أنّها تُبعد عنه الحسد. فيما عقيلة تغادر البيت، تحمل في جيبها لعنات أمّها، فلا تردّ عليها معتصمةً بصمتها، إلى أن تهدأ أعصابهما ثم تتصالحا، وبعد ذلك لا تلبثان أن تتخاصما مرّةً أخرى، وأنا متشبّث بالحياد. فعقلي يدور مثل آلة غسيلٍ؛ مستاء ممّا فعله مخلوف بعكوري وما فعله ابني بريمة. لستُ أعلم هل أُخبر زوجتي أنّ ميلود قد أخفى عنها سرًّا بمقدوره أن يهدّ جبلًا لا مجرّد قلب بشرٍ، وأنّه أحبل فتاة خرجت من صُلبه؟ أم ألجم لساني؟ لا بدّ أنّه اختلى بها في نُزل «الراحة»، الذي يؤجّر الغرف بنظام الساعة، في وسط المدينة. ولا بدّ أن أعثر على حلٍّ لهذه المصيبة فتجهض ريمة ويعتذر ابني عمّا فعل. لكن، لا معرفة لي بنسوةٍ يَمتهنّ الإجهاض، ومَن قصدتْهُنّ ياقوت هجرن صنعتهنّ، خوفًا من أن يكتشف الأمن أمرهنّ فيُسَقنَ إلى السجن.

لستُ أدري كيف أتصرّف، فرأسي لم يكفه الشيب بل زاده قلقًا. لقد تقدّم بي العمر، ولم يعد الجسد يحتمل مسرّاتٍ أو خيباتٍ أخرى. كلّ يوم أستيقظ فيه أحمدُ ربّي أن أطال في عمري ووهبني مهلةً لإخفاء كيّتي.

أترقّبُ فرصتي مع بودو، أن يساعدني ويصوّر معي لقاءً أشرح فيه حالي وحال زملائي، ثمّ أرضى بموتٍ رحيم. سيسير الناس في جِنازتي وأدخل قبري ببالٍ مبتسمٍ، وإن لم يفعل فسأعرف العار كلّه، لأنّ مخلوف قد لا يرحمني مثلما لم يرحم عكوري. من المحتمل أن يشيع تُهمتي بين الألسنة، وتصير ابنتي ابنة حركيٍّ وابني ابن حركي. أمّا زوجتي، التي يَطرب قلبها حين يناديها أحد بـ«أمّ الطبيبة»، وهي صفة لا تتغلّب عليها سوى مَن كان ابنها إمامًا، فسوف تكفّ عن حضور أعراس أقاربها، ولن تطأ قدماها الحمّام العامّ مرّة أخرى، الذي تقصده صبيحة كلّ جمعةٍ؛ تتطهّر فيه من أعباء مشاغلها في البيت، تغسل بمائه غضبي منها وحقدها على ابنتنا، تتبادل فيه النمائم مع نسوةٍ، عمَّن تزوّجتْ ومَن تطلّقتْ، عمَّن أنجبتْ ومَن جفّ رحِمها.

موتي سيجبر أهلي على العيش في خفاء. كيف بمقدوري أن أقاوم هذا المصير المهين؟

«لماذا تفكّر في أهلك بعد موتك؟» رنّ صوت أمّي في أذني، التي بدتْ مبتهجة في آخرتها أكثر ممّا كانتْ عليه في دنياها. معها حقّ، فحين أموتُ لن يحاسبني أحد إلّا ربّي، وعندي من الحجج ما يكفي لأُبرّئ نفسي من ظلم رفاقي القدامى لي.

لم يحفظ أحد سرّي، إلّا ياقوت وزملائي في جمعية «قدامى المناضلين المستبعَدين» غير المعتمَدة، مثلما حفِظتُ سرّهم. ما فعلوه يُبوّئهم مرتبة الأشقّاء، وأنا الذي فقدتُ شقيقي الوحيد، الذي فرّ إلى فرنسا قبل زهاء ثلاثين عامًا، فلم أره بعدَ ذلك. عندما

يسألني عنه ابنايَ أو زوجتي أقول إنّه هاجر طلبًا للُّقمة، مخفيًا عنهم تهمته. ومات فلم أحضُر جِنازته، أمّا بناته، فانقطعتْ رسائلهنّ. قطعن علاقتهنّ بي ولستُ أعلم ما حلّ بهنّ. سألتُ عنهنّ روح أمّي، التي انفصلتْ عن بدنها المدفون، والتي أتحاور معها أكثر ممّا أفعل مع زوجتي، فأجابتْ بعدم معرفتها بهنّ. استفسرتُ ماذا تفعل روحها إذن، فردّتْ: «أحرسكَ وحدك». وأنا أحرس سُمعتي، وأرجو أن أصير ممنونًا لبودو. إمّا أن أجني من زيارته رضا وأصير بجلدٍ جديدٍ، أو خيبة أخرى وحينئذٍ فلأتهيّأ للأسوأ. مع أنّ أحد زملائي اقترح شيئًا آخر، أثار اضطرابًا في معِدتي، بعدما أعلمتُه بأنّ صهري وشى بعكوري. اقترح أن نتخلّص من مخلوف، قائلًا: «موته سوف يقينا غدره، سواء سمح لنا بودو بالظهور في التلفزيون أم لا».

ظلّ رأسي يغلي، وأنا أحدّق إلى حفيدتي تلعب وأمسّد فرو الهرّة، التي ودّ ابني أن يستعيدها منها، لكنّ مينة عاندتْ رأيه. أُحبّ عناد هذه الطفلة، التي تتفوّق على أمّها في استماتتها على رغباتها.

وأحسد القطط على عيشها الذي لا خداع فيه! غمغمتُ وأنا أفكّر في سفري، الذي أنويه إلى العاصمة. لقد سألتْني عقيلة عن علّة السفر، فأجبتُها: «نخليهالك مفاجأة»، سوف أخبرها في حال تحقّق ما أصبو إليه. سأركب الحافلة في الرابعة صباحًا، لأنّ سكّة الحديد التي صرفتُ فيها عرقي في شبابي لم تعد صالحة، وأفترض أن أصل إلى مبنى التلفزيون في الحادية عشرة. أوصل الرسالة التي صغتُها مع زملائي، مرفَقةً بقبّعة شابلن كهديةٍ إلى بودو، ثمّ أتمشّى بين جادّات المدينة وأحيائها. أتذكّر أيام فقري فيها وعملي في الميناء واختلاس قوارير نبيذٍ من حاوياتٍ قبل شحنها في بواخر، ثم بيعها بنصف ثمنها للسكارى. قبل أن أعود في الحافلة عينها، التي تصل إلى بوسعادة

نحو منتصف الليل، في الساعة التي يحضُر فيها الجنّ ويتوارى فيها الإنس. سوف أقطع 600 كلم، ذهابًا وجَيئة، في يومٍ واحد.

ربّنا المُستعان. تمتمتُ حين رنّ الهاتف، ورفعتُ السمّاعة فلم أسمع سوى زفرات، ثمّ انقطعتْ المكالمة.

يحبّ اللعب بأعصابي. هذا المجهول الذي يصرّ على الاتصال، في كلّ حينٍ، من غير أن ينطِق بكلمة. عدتُ إلى جلوسي وشغّلتُ التلفزيون، بعدما عادت الكهرباء.

بلغَني صوت جاري من وراء الحائط، يوبّخ ابنه القاصر بصوتٍ عالٍ وكلامٍ أخجل من تَكراره، وأنا أشاهد القناة الوطنية، التي عرضتْ صورًا عن حملة تشجير في قرى نائيةٍ، بينما قناة أجنبية حكتْ عن حربٍ في شرق أفريقيا، ترافقها مجاعة من جراء الحرّ والجفاف. مع تحذيراتٍ من شحّ الغذاء ومن أنّ الملايين من رؤوس الماشية سوف تنفُق. لماذا لا يذهب مخلوف لإغاثة المحتاجين هناك ولا يعود؟ ذلك ما بدر في ذهني، من غير أن أدري أنّ فاجعة في انتظاره وأخرى في انتظاري.

* * *

تلا إدريس بادة على مسمعه ما ورد في القانون بشأن تحريضه على طمس بصر شهلة البرق، وتحفّظه على ممتلكاتٍ ثقافيةٍ، كإخفائه قبّعة شارلي شابلن.

– أنا لم أحرّض أحدًا على طمس بصرها!

شعر عزوز بانقباضٍ في صدره. وأضاف محدّثه أنّ بوسعه الدفاع عن نفسه أمام المحكمة.

– لكنّك لا تمتلك دليلًا يدينني في الشبهتَيْن!

– أجوبتك أيضًا غير مقنعة!

استغرب عزوز كيف أنّ شارلي شابلن توفّي عام 1977 وهو معاقب بسببه في 1990

– يبدو الأمر دُعابةً...

– القانون ليس دُعابة.

– واستنتاجك ليس صائبًا.

أخبره أنّ مهمّته تدوين أقواله لا الحكم عليه.

– لقد شرحتُ لك ما جاء في القانون وكفى.

– أنتَ نفيتَ عنّي صفتي كمناضلٍ في حرب التحرير، من دون دليلٍ، بل بناءً على أقوال شخصٍ آخر!

– ليس هذا كلّ شيء!

– ماذا تقصد؟

– هناك شبهة أخرى، أودّ سماع أقوالك بشأنها!

ي

نجتْ ياقوت والعاملات في بيتها، من خناجر وعصيّ ملثّمين بأجسامٍ ضخمةٍ، مثل ثيران مصارَعة. هجموا على بيتها في الليلة السابقة، بعدما تسلّلوا من النافذة، عقب اقتلاع حاجزها. شتموهنّ بالكلمات كلّها ونعتوهنّ بأقبح الصفات، ثم أحالوهنّ إلى أسوأ ذكرى في حياتهنّ.

«طردوا الزبائن، بعد صفعهم ولكمهم واحدًا تلو الآخر وسلبهم مالهم، ثم تكفّلوا بأمر النسوة»، قالتْ لي بفكٍّ سُفليٍّ يرتجف، بينما يدها اليسرى ترتعد وهي تمسك بخنصرها الأيمن، الذي بصق عليه أحد المعتدين لاستلال خاتمها، بعدما هدّدها بقطع الإصبع إذا تعذّر عليه سلب غنيمته.

ركلوا البنات على بطونهنّ، غير مبالين بتوسّلاتهنّ، ومَن سقطتْ منهنّ أرضًا داسوا ظهرها أو وجهها بأرجلهم، أو جرجروها من شعرها. «جرَّدوهنّ من حليّهنّ»، أضافتْ.

إحدى البنات حاولتْ أن تقاوم، فرسموا مثلّثًا على ظهرها بخِنجرٍ، ثم نزلوا على أكتاف أخرياتٍ بعصيّ. أولج أحدهم عصا في فَرج إحداهن، وأخرجها مضرّجةً بالدم، فأُغمي على الفتاة. ووشموا خطوطًا على نهد إحداهنّ بشفرة حلاقة. مَن توسّلت عطفهم طرقوا الحائط برأسها، إلى أن تطاير دمها، وتوعّدوا بدفنهنّ حيّاتٍ، مثلما توعّدوا بحرق البيت، في حال عدنَ إلى ممارسة عملهنّ، وهم يصرخون: «جبتو السيدا». لا بدّ أنّهم سمعوا عن ذلك المرض في التلفزيون، مثلما سمعتُ عنه.

بعثروا كلّ ما احتوته الخزائن من ثيابٍ ووطأوا بأقدامهم أغراض زينتهنّ في الحمّام. حطّموا الصحون والكؤوس في المطبخ. ولم تسلم منهم أُصص النباتات في الحوش، التي قذفوها بأرجلهم.

ففرّت النساء مذعوراتٍ إلى الخارج، بعضهن نصف عارياتٍ، يسترن عوراتهنّ بأيديهنّ، ويصرخن بلا مغيثٍ، بعدما جاوزتْ الساعة العاشرة، منتظراتٍ أن ينتهي الضرب والشتم ويغادر الملثّمون، الذين حذّروا ياقوت من العودة إلى صنيعها.

بعدما كان الرجال يُفرغون كبتهم وإحباطهم في هذه الدار، قرّروا أن يفرغوا فيها رعونتهم.

شعرتُ ببردٍ يتسلّل إلى ظهري، وأنا أصغي إلى كلامها. تخيّلتُ نفسي معهنّ. كان الملثّمون سيظنّون أنّني من الزبائن، وأنال ما كتبه الله لي من صفَعاتٍ، مثلما صفعتْني شهلة البرق، ويجرّدونني من مالي. لن يهمّهم إن كنتُ محاربًا في حربٍ عالميةٍ أو مناضلًا وطنيًا جارَ عليه القدَر. تخيّلتُ وجهي تحت لكمات المعتدين، بأنفٍ مكسورٍ ويسري دم من مِنخري. كان سيُغمَى علي، وينتهي أمري ملقًى على الأرض، من غير أن يلتفت أحد إلي. مَن يهتمّ لحال عجوزٍ، القبر أقرب إليه من الحياة؟ كان يمكن أن تصيبني نوبة قلبية من هول المشهد، ثمّ يكتشفون الكيّة على ظهري، فيلعنني الناس إلى يوم الدين.

عندما اقتحم المعتدون بيتها، كنتُ في طريق العودة من العاصمة، بعدما أودعتُ الرسالة وقبّعة شابلن في مبنى التلفزيون.

– مَن تظنّينه الفاعل؟

طرحتُ سؤالي لأنّني لم أجد ما أقوله لها، وأنا مدرك أنْ لا علم لها بمَن يهجم على نساءٍ مسالماتٍ، لا يُسمع لهنّ ضجيج أو شكوى. نساء يستكنّ إلى بيتٍ، في المخرج الشمالي من المدينة، يتّسع حوله خلاء مُقفر ولا جيران لهنّ. مَن عساه يجاور مبغى!

أشفقتُ على حال ياقوت، وشعرتُ بأنّ سكّينًا اخترق صدري. لم أُطق أن أراها في تلك الحال، وهي التي عرفتها يافعةً تهرول إلى مباهج الدنيا، منشرحة البال تغدق عليّ من صدقها ومحبّتها. ورغم

أنّ العمر قد تقدّم بها، لم يُنقِص شيئًا من بهاء قلبها، سوى أنّه بيّض خُصلًا من شعرها، وأضاف تجاعيدَ على جبينها وحول شفتيها، وإلى جيبها بخّاخًا، يخفّف ضيق تنفّسها. ولستُ أعلم هل لا تزال تحبّني أم كفّتْ شعورها نحوي. الحبّ يظهر صريحًا في عيون اليافعات، أمّا المسنّات، فيكتمنَ ما في صدورهنّ.

– وصلتْني تهديدات في ما سبق، أجابتْني.

مرّة يتّصل أحدهم بها في الهاتف، فتظنّ أنّه زبون يودّ ضبط موعدٍ، قبل أن تسمع منه وعيدًا بقطع ثديَيْها. آخر يدعوها إلى الهداية مذكِّرًا إيّاها بعذاب منكَرٍ ونكيرٍ، ومرّة يطلّ أحدهم من الباب ويبصق متوعّدًا بسوء العقاب. وأحيانًا تقصدها نسوة يعترضن على ما تفعل، بحكم أنّ أزواجهنّ يخونونهنّ مع بنات الدّار.

– لماذا لم تُبلغي الشرطة؟

لم يسبق للشرطة أن حلّتْ ببيتها، لكنّهم يحفظون لها حُسن سيرةٍ في تعاونها معهم. كلّما حدّثوها في التلفون، أجابت عن أسئلتهم. من غير أن تفضح اجتماعاتي مع زملائي. وأحتمل أنّهم كانوا سيتدخّلون ويتّخذون من مهدّديها عبرة للآخرين. لكنّ ياقوت سخرتْ من مهدّديها، ظنّتْ أنّهم يكنّون لها غَيرة فحسب. دار الزمن وسخر منها... ذلك ما همستْ به روح أمّي في أذني، فوددتُ تَكرار قولها، ثم تراجعتُ كي لا أعمّق شجن ياقوت.

– الشرطة لن تفعل شيئًا.

قالتْها لي بصوتٍ شبه مبحوحٍ، متحسّرةً على أنْ لا ابن لها يعمل في الأمن ويُعينها في محنتها، بعكس صديقتها القديمة باية، التي صار ابنها إدريس مفتّش شرطةٍ، وقطعت علاقتها بياقوت، عقب عودتها من الحجّ.

– لماذا تظنّين أنّ الشرطة لن تفعل شيئًا؟

– طلبوا منّي تغيير نشاطي وامتنعتُ.

احتاجتْ إلى مَن يُشعرها بأمان، مَن يحضنها إلى صدره ويوقف يدها عن الارتعاد، من جراء المشاهد التي رأتها، حين أطبق أحدهم خِنجرًا على عنقها.

– التمسَ منّي وعدًا بعدم العودة إلى عملي.

وعدتْه بفعل ما يريد، راجيةً أن يُبعد سلاحه عنها. كلّما عادتْ تلك الصورة إلى بالها، شعرتْ بألمٍ في ظهرها وتمنّت لو أنّها ماتت قبل أن يقع ما وقع. بات الفزع يسكن قلبها، مثلما سكن قلب ثامر، الذي فرّ بدلًا من أن يجابه الملثّمين.

– تركني وحدي، قالتْ لي.

كان بمقدوره أن يعرفهم من مجرّد سماع نبراتٍ أصواتهم، أو النظر في أعينهم، لكنّه امتطى السيارة وترك نسوةً في مواجهة وحوشٍ فرّتْ من أقفاصها. أعلم أنّه ليس مِقدامًا كما يدّعي. صحيح أنّه أفلتَ من سجنٍ، لكنّ ذلك ليس بيان شجاعة. من المقدّر أنّه فرّ منه مهابةَ السجناء، خاف أن يعتدوا عليه أو يفعلوا فيه فعلًا فاحشًا. وإن عاد وكلّمني عن ابنتي فسوف أتبوّل عليه. ليس يكفيه أنّه هارب من العدالة، يحيا بهويّةٍ مزوّرةٍ، بل إنّه أجبن من الوقوف في صفّ نسوةٍ مغدورات.

ظللتُ أحدّق إلى ياقوت، أنثر كلامًا يراوح بين غضبٍ وحزنٍ، مشفقًا على حالها، مثلما أشفق على حال ابنتي عندما ينزل عليها غضب زوجها. ثم سألتُها:

– مَن يجرؤ على هذا الفعل؟

– مَن لا ضمير له.

كلّما تقدّمتُ في السنّ صرتُ لا أعرف هذه المدينة ولا أهلها، قلتُ في سرّي، ولا من أين يخرج هؤلاء الخلق المشوّهة أفئدتهم.

مَن يرَ البشر في النهار، في شغلهم في السوق، في محالّ الحرف أو متاجر الألبسة أو الأغذية أو أمام طاولاتٍ تعرِض خضرًا وفواكه، أو سجائر بالتجزئة، يخيَّل إليه أنّنا نترف في سلام. لكن للّيل حكاية أخرى، عندما يعبق الجو برائحة الحشيش، وتمتلئ العقول بخمورٍ رخيصة الثّمن، أحيانًا منتهية الصلاحيَة، عندما تبرق أعين أولئك الشبان، الذين يقضون يومهم في التسوّل، قصد كسب مالٍ يشترون به حاجتهم من شربٍ أو لِفافاتٍ، فيشرعون في القتل وتقطيع البشر كمَن يقطّع لحم بعير.

– صرتُ غريبة في هذا المكان، علّقتْ ياقوت.

فقد قطع الملثّمون كابل التلفون كذلك.

نحن نحيا في مدينةٍ اختلّ عقلها. نحن البسطاء الذين لا يصغي إليهم أحد، في مدينةٍ احتلّها قوم يمارسون شبَقَهم في وشم نهود النساء بشفرات حلاقةٍ، بعد أن يسكروا باستنشاق الغِراء أو البنزين. لم يعد الشارع وحده خطرًا على النساء، بل إنّهنّ لسن آمنات في بيوتهنّ كذلك.

نويتُ إلغاء موعدي مع زملائي، ذلك الصباح، الذي صادف 16 مايو، ذكرى تأسيس جمعيّتنا غير المعتمَدة. وخطرتْ في بالي ريمة، التي ورثتْ جمال أمّها لا سماجة ابني. تخيّلتُ ما حلّ بها من وجَلٍ وبكاءٍ، تخيّلتُها عارية تفزّ إلى الشارع، قبل أن تلتحق بها ياقوت والأخريات. لحسن الحظ لم تصبها ضربة خِنجرٍ أو عصا، لم يتحتّم نقلها إلى المستشفى في سيارة أجرةٍ، مثل بنات الدار الأخريات، لأنّ سيّارة الإسعاف معطّلة. أجابتْ:

– إنّها نائمة من شدّة التعب بعدما جفّتْ دموعها.

وددتُ رؤية تلك الفتاة التي صار يربطني بها وثاق دمٍ، وبتُّ حريصًا عليها أكثر من ذي قبل.

– لقد صارحتْني بمَن أحبلها، أضافتْ.

لم يهمّني سماع المزيد، لأنّ تفكيري انحاز إلى أمرٍ روّعني؛ أن يكون ميلود مَن دبّر هذه المكيدة، أن يكون قد استأجر أولئك المعتدين، ومن المقدّر أنّ هذه الفَعلة ليست سوى فاتحة أعمالٍ أخرى، فيدفن عاره بأن يدفن ريمة وياقوت والعاملات في دارها. عندما فاتحتُها بما جال في بالي، ردّتْ:

– سأودع شكوى عند الشرطة وأذكر اسم ابنك.

– قلتِ إنّ الشرطة لن تفعل شيئًا؟

رجوتُ لو أنّني كنتُ معها ومع نسوتها، فأموتُ بطعنةٍ بدلًا من أن يسوقني ابني من خِزيٍ إلى آخر. قبل أن أعود إلى بيتي، فأسمع خبرًا جعلني أجثم على ركبتَيَّ وأبتلع لساني حزنًا.

* * *

في الصباح الأخير قبل وفاة مخلوف، تبادل معه عزوز تحيّةً مقتضَبة. ثمّ رآه يغادر البيت، وهو يضمّد يده المجروحة.

– لم نخض في حديثٍ بعينه.

على ما يذكر فقد كان صهره دائمًا في تمام صحّته. لا شيء يوحي أنّ أمرًا ينغّص عليه.

ودّ مفتّش الشرطة أن يعرف إن وقعتْ خلافات بينهما، ما عدا استياءه من فظاظة صهره تجاه ابنته.

– عاملتُه مثل فردٍ من أهلي وهو «شمّ فيَّ رائحة باباه»، كما قال.

– ...

– صحيح أنّ ابني أودع شكوى ضدّه، بعدما بالغ في تعامله غير اللائق مع ابنتي، أمّا أنا، فلم أمكر به.

استحضر عزوز اللحظة التي سمع فيها نبأ وفاته.

– عندما عادتْ زوجتي وابنتي من المستشفى.

– ثمّ؟

– دخلتا إلى البيت، ساعة العصر، بوجهَيْن مُصفرَّيْن، وأبلغتاني ما حصل بعينَيْن دامعتَيْن.

– كيف كانت ردّة فعلك؟

– شعرتُ بأنّ الدم قد تجمّد في عروقي. جثمتُ على ركبتَيَّ وعجزتُ عن الكلام.

ساد صمت بينهما، كسره عزوز قائلًا:

– الموت يجعلنا نحتقر الحياة.

– ...

– أمام الموت لا نستطيع ادّعاء عكس ما يدور في صدورنا.

– هل تخيّلتَ موتك؟

كلمات إدريس بادة سرّعتْ نبضاتِ قلب عزوز، الذي زادت شراهته للسجائر في ذلك الحين:

– كلّما سمعتُ موت أحدهم تخيّلتُ موتي.

– أنت خائف من حلول أجَلك؟

يعلم أنْ لا شيء أساء إلى عيشه أكثر من الخوف.

– هل تظنّني أكذب عليك وأقول عكس ذلك!

عادتْ القسوة إلى عينَي مفتّش الشرطة، الذي تخلّى عن تحفّظه في الكلام، وهو يعلم أنّ أيّ مشتبهٍ به لا يتقيّأ اعترافاتٍ مرّة واحدة، بل على دفعات.

– تظنّ أنّني سأقضي نحبي في السجن؟

قال عزوز مندهشًا واضطرب صوته.

ك

عقب الاعتداء على ياقوت، توفّي مخلوف.

أحزنني موت صهري أكثر ممّا سرّني. أَشعَرني بخلاصٍ كما أشعرني بأنّ عمودًا من أعمدة البيت قد انهدّ على رأسي. «والبيت الذي يزوره الموت يستحقّ الهجران»، همس صوت أمّي في أذني. لكن لا مكان لي أهجر إليه، فما حصل جعلني أفكّر في أنّني الاسم التالي في قائمة عزرائيل. أنا الأكبر سنًّا في هذا البيت وأتحلّى بمقاسات مَن يستحقّ ارتداء كفن.

لقد شملتُ مخلوف بمحبّةٍ وتمنّيتُ أن يردّ عليّ بمثلها، لكنّه أحالني على ليالٍ من أرقٍ، عقب علمي بما فعله بعكوري.

إثر زواجه بابنتي شعرتُ بأمانٍ؛ أن أصاهر نجل رجلٍ عرفتُ فيه الصبر وتحمّل شظف العيش، ثمّ خانه الفقر مثلما خانني الرفاق القدامى. فرِحتُ حين وُلدتْ ابنته يمينة أو مينة، رغم امتعاضي منه، وهو يتطاول على زوجته، مثلما كان والده يتطاول على أمّه. لكنّ موته شقّ قلبي أن أرى حفيدتي تيتّمتْ. لقد غرقَتْ رِجلها في وحل الفَقد، ولن تحظى بأبٍ آخر بالتبنّي، مثل ابني الذي رُزقتُهُ من ياقوت. ولستُ أعلم إن كان حيًّا، وإن كان يقيم في هذه المدينة أم غادرها. لكنّني على يقينٍ إن كان حيًّا فهو يصغر عقيلة بنحو عامٍ، ويصغر صهري المتوفَّى بنحو ثمانية أعوام.

أقمتُ جِنازة تليق بذكرى مخلوف، حضرتْها جمهرة من الجيران ومن معارفه وكذلك أطفال من جمعيّة الأيتام، شعورهم تحنّ إلى مِقصّ حلّاقٍ، وأنا أُمعن في تعزية أمّه، التي كانت تناديه «عيني». فهو عينها التي كانت تُرشد ساقيها في أزقّة الدنيا. ربّتْه مثلما يربّي الجيش الجنود، على الامتثال والطاعة؛ يُعينها في الجلوس والوقوف،

بعدما فقدتْ قبله ابنَيْن، فارقا الدنيا قبل أن يفارقا المهد، بعدما أصابهما إسهال شديد وتغوّطا دمًا. ولم يكن الجوّ ملائمًا فألومها على ما أفضت به إليه، من حكاياتٍ عمَّن نُعتوا بالحركى، ولا أن أسألها عمّا تنوي فعله بأموال ابنها، فقد كان يدسّ في جيبها جلّ ما يكسب.

لكنّ ما سمعتُه من ابنتي أثار ريبتي، وهي تلحّ عليّ بأن أحفظ السرّ في صدري. فقد أخبرتْها الشرطة بما زاد من شحوب وجهي:

– مخلوف أصابه تسمّم... قبل أن تنقلب سيّارته.

ذلك ما توصّلتْ إليه الخبرة العلميّة، ويرجَّح أنّه تناول مبيد فئران، قبل أن تنقلب سيارته، ما أودى بحياته. لكنّه لم يمت في سيارته الهوندا، بل في أخرى.

– رينو 4 صفراء اللون، يزيّنها من الخلف رسم (خمسةٍ)، أضافت عقيلة.

هل هي سيارة ثامر؟ كتمتُ سؤالي وأوصيتُها أن تكتم الأمر عن حماتها، إلى أن تتبيّن الشرطة الحقيقة. لقد فكّرتُ في التخلّص منه كذلك. خطر في بالي أن أتدبّر مكيدة فيغادر المشرحة، وينتقل إلى بلدةٍ أخرى، أو أثير ما بوسعي من مشاكلَ فيُفصَل من عمله، وهما خِياران عسيران. بينما قدّر زميلي موحو أن نُسكته بطلقةٍ من مسدس (ماط 49)، لا يزال يحتفظ به منذ سنوات حرب التحرير، لكن هناك مَن ناب عنّا.

تحوم الشكوك حول ابنتي، فهي أرملته التي كانتْ تطهو أكله، ولها سبب للتخلّص منه. أظنّه لم يتحمّس لزواجه بها، بل تقدّم إليها تلبيةً لرغبته ورغبة أمّه في إنجاب ذكر. فهل تحمّلت عقيلة قسوته معها كي تنتقم منه في الخاتمة؟ لكنّني لا أستبعد ميلود كذلك، فقد سبق أن قدّم شكوى ضدّه، ثمّ سحب شكواه. كلّ منهما كان يظنّ نفسه سيدًا للبيت من بعدي. ولن ترحم الشكوك قمرة، لأنّها خالطتْ

السموم؛ تعرف الزِرنيخ ونبتة الشوكران السامة. تعلّمتْ كلّ ذلك من شقيقها العشّاب. كانتْ تجرّب أقراصها على حيواناتٍ أليفةٍ، تتأكّد من نجاعتها ثمّ تزوّد بها الفدائيات، يتناولنها إذا أوشكن أن يستسلمن للبوليس، فيُغمَى عليهنّ وتكفّ قلوبهنّ عن الخفقان.

من المحتمل أن تُخضعنا الشرطة كلّنا للمساءلة: أنا وزوجتي، وابنتي وابني. ورأس يمّا سنصير في نظر القانون عائلة مذنبين. مع أنّني لا أستبعد أن يكون الرجل قد انتحر. سئم من حياته جنب الموتى، من ضغط العمل وما يرافقه من قلقٍ، من خصوماته مع مديره في المستشفى، فتناول سمًّا. أو أرهقه تأخّر إنجاب زوجته ذكرًا، فودّ مفارقتها. أنا أيضًا فكّرتُ في الانتحار وأعرف ماذا يخالج صدر إنسانٍ مقبلٍ على الموت، من شعورٍ بالوحدة والاكتئاب وعدم جدوى العيش. هل فكّر مخلوف في ابنته، قبل أن يبادر إلى فَعلته؟ هل فكّر في مينة، التي قالتْ لي مرّةً: «نحب نولي كبيرة كي بابا».

سوف تكبر من دون أبيها، فقد مات مخلوف وأماتَ قلبي معه. لن أسمع مرّةً أخرى مَن يقول لي: «أشمّ فيك ريحة بابا». ذهب إلى ملاقاة عكوري، في السماء، وسوف يسوّيان حسابهما في جنّةٍ أو نار. لكن كيف وصلتْ إليه سيارة ثامر المسروقة؟ هل يعرف أحدهما الآخر؟

شعرتُ بأنّ السقف سينهدّ على رأسي لا فقط عمود من أعمدة البيت، لأنّني أنجبتُ طِفلَيْن، ولستُ أعلم مَن منهما مذنب. تزوّجتُ بامرأةٍ أشكّ في تورّطها. رعَيتُهم كلّهم كي يغدروا بي في آخر عمري. أنا بريء ممّا حصل لصهري، لكنّني لستُ بريئًا من أنّني عاشرتُ الشخص الذي أودى به إلى قبره.

جريدَتان نشرتا صورة صهري، مع تعزية وزير الصحة لأمّه وابنتي، في اليوم الثاني عقب وفاته. إحداهما بالفرنسية والأخرى بالعربية. خصّصتا له مربّعًا أعلى الصفحة الأخيرة، بصورته وهو يواجه

الكاميرا نصفَ مبتسمٍ بحاجبَيه المُتّصلَيْن، وقد جاءتْ التعزية من دون إسرافٍ في الكلمات، ومن غير أن نعرف أنّه مات في حادث سيرٍ، بعد تعرّضه لتسمّم.

18 مايو 1990

تعزية

ببالغ الحزن والأسى، يتوجّه وزير الصحة، باسمه الخاصّ ونيابةً عن جميع الزملاء، بأحرّ التعازي وأصدقها إلى أرملة الدكتور مخلوف تومي الذي وافته المنيّة في بوسعادة وإلى والدته.
وإذ ننحني أمام قضاء الله وقدره، فإنّنا ندعو المولى عزّ وجلّ أن يتغمّد الفقيد برحمته الواسعة ويُلهم ذويه الصبر والسلوان ويُسكنه فسيح جنانه.
إنّا لله وإنّا إليه راجعون

موته أحزن الناس، الذين عرَفوه رجلًا صادقًا في مساعدة الأيتام، كما أشعل فضولهم كذلك. فلا يكاد أحد من ساكنة المدينة لم يسمع بموت صهري.
فضولهم إزاء موته لن يطول، سأنوب عنه وأصير محلّ أحاديثهم.

* * *

تعوّد مخلوف ملاقاة رفاقٍ له، خارج العمل، يتناول معهم الكؤوس:
– احتمال أن يكون أحدهم الفاعل.
– لم يكن له رفاق خارج العمل، قطع إدريس بادة شكوكه.
– أين كان يقضي وقته بعد الدوام إذن؟ تساءل عزوز كأنّه لا يعرف الحقيقة.
– في جمعية الأيتام أو في التسكّع.

– كان يعود إلى البيت مخمورًا!

– هل تودّ أن نحقّق في خصوصيّات الناس؟

– بما أنّه تعاون معكم، فأنتم أدرى منّي إن كان له أعداء!

استاء عزوز مرّة أخرى أن أخطأ التقدير، عندما صدّق كلام صهره، الذي لطالما برّر تأخّر عودته إلى البيت بملاقاة رفاقٍ له.

– لقد مات متسمّمًا ونشكّ في المقرّبين منه.

علّق إدريس بادة، منتهزًا خبرته في قضايا تسميمٍ سبق له أنْ حلّها، وأفاده التحقيق فيها بأنّ المتورّطين من المقرّبين من الضحية.

– أوافقك الرأي أن يكون الفاعل من معارفه.

أشار إليه مفتّش الشرطة أنّ أقرب الناس إليه هم أنسباؤه.

– هذا لا يعني أن يكون أحد أفراد عائلتي.

– ...

– كان يقضي وقته في العمل أكثر من وقته في البيت. لماذا لا تحقّقون مع زملائه في المستشفى؟

أعلمه أنّ مدير المستشفى كان غائبًا في إجازةٍ، وأنّ الممرّضين لا يجرؤون على مصاحبة مخلوف، امتثالًا لرغبة المدير، الذي أوصاهم بمعاداته.

– أنا أيضًا أستبعد تورّط أحد من بيتي.

– ...

– صحيح أنّ علاقته بابنتي كانت غير مُطمئِنةٍ، لكنّها لم تبادر إلى تسميمه.

حدّق إليه إدريس بادة بنظرةٍ صامتةٍ وقال:

– إنكار الجرم أسوأ من الجرم نفسه.

– لماذا لا تشاطرني رأيي بأن يكون قد سمّم نفسه، قصد الانتحار؟

ل

بعد دفن مخلوف ونهاية المأتم، الذي طال أسبوعًا، وانصراف المعزّين، تسلّمتُ رسالة من ساعي البريد.

المؤسّسة الوطنية للتلفزيون
السيد (ة) المحترم (ة): عزوز خالدي
نشكركم على رسالتكم، واهتمامكم بنقل انشغالكم.
تأكّدوا أنّنا سنُطالع ما ورد فيها بتمعّنٍ، ثمّ نُحيلها على الجهات المعنية، للنظر فيها واتخاذ التدابير اللازمة.
تقبّلوا منّا عبارات الاحترام والتقدير

كنتُ قد أوصلتُ رسالتي إلى مبنى التلفزيون، وقد تسلّمها منّي موظّف الاستقبال. دوّن اسمي، مع تاريخ التسلّم وساعته، متعهّدًا إيصالها إلى بودو. ألتمسُ فيها منه أن يُتيح لي ولزملائي فرصة الكلام أمام الكاميرا، نشرح وضعنا لإزالة التهمة التي لُفّقتْ لنا. فلماذا يريدون تحويل أمرنا إلى جهاتٍ أخرى؟ أعدتُ قراءة ذلك الردّ، ثلاث مرّات، وشعرتُ بأنّني لم أفهم ما جاء فيه، فقد تعوّدتُ سوء تفسير كلام الغير. وحسمتُ أن أتلو فحواه على عين الطير في التلفون، من غير أن أعلم حينذاك بما حلّ بقبّعة شابلن، التي أرفقتُها مع رسالتنا. وعندما دخل ابني ميلود، دسسْتُ الورقة في جيبي.

وقف ابني جنب مينة أمام باب الصالون، ثمّ عدّ من واحدٍ إلى ثلاثةٍ، وانطلقا في سباقٍ إلى غاية الأريكة التي لا تبعد عنهما سوى أمتارٍ قليلةٍ، متعمّدًا أن يتنازل لها عن الفوز. فأطلقَتْ ضحكةً تشفي القلب، تظهر منها أسنانها الحليبية، وطلبَتْ منه أن يكرّرا السباق فسايرها، محاولًا أن يُنسيها والدها. وقد شُفي من الاغتمام الذي سكن

قلبه في الأيام السابقة. ثمّ مدّدها على الأرض، انحنى عليها ودغدغ بطنها برأسه، قبل أن يحملها من ساقيها فتدلّى رأسها إلى الأسفل، وازدادتْ عيناها اتساعًا. شعرَتْ أنّها تطير وشاركتْها الهرّة في مرحها وهي تقفز من حولها. تعوّد ابني ممازحة الطفلة، كلّما عاد من عمله وصادفها في طريقه. يشتري لها أغراضًا للتّسلية، وقد وعدها بمرافقته إلى التخييم في الجبل، فسألتْه:

– كاين في الجبل غزال؟

مثل الذي رأته في رسومٍ متحركةٍ، فردّ بإيجاب. ثم أضافتْ:

– كاين أرنب كما أرنب أليس؟

فقد روتْ لها أمّها حكايتها، وردّ بالإيجاب مرّةً أخرى، وواصلتْ حماستها:

– كاين في الجبل قطط؟

أجاب:

– تجي معنا شيشيرة.

ثمّ طلبَتْ منه أن تذهب معهما جدّتها قمرة أيضًا، أمّا أمّها، فلا... وهي ترمش بعينَيْها، مخافة أن تعاقبها من فرط كثرة حركتها، وأنا أرمقها بعينَيْن ضاحكتَيْن.

– يمّا واعرة، أضافتْ.

وأنا تمنّيتُ ألّا يصطحبها معه، لأنّني صرتُ لا أثق فيه.

لطالما تصوّرتُ أنّ علاقة ميلود بهذه الطفلة إنّما هي علاقة خالٍ مع ابنة أخته. لم يخطر في بالي أنّها نابتْ عن ابنته، التي لم يرافقها في صغرها. بعدما غرس البذرة في أرض أمّ ريمة، عادتْ هذه الأخيرة إلى زوجها، فسرّه أن رآها حاملًا، بعدما ظنّ أنّ الأقدار قد خانتْه، كما أَعلمتْني ياقوت. تربّتْ ريمة وهي تظنّ أنّهما والداها، ولم تعد أمّها للعمل في بيت ياقوت، التي طردتْها مثلما تطرد كلّ حبلى. تكفّل ابني

بدفع نفقة لها، أغنتْها عن الحاجة، إلى أن ماتتْ إثر عملية زرع كُليةٍ لم تنجح، وما أكثر العمليّات الفاشلة في هذه البلاد. عندما كبرتْ ريمة، تقدّم إليها عرسان رفضَهم زوج أمّها.

«صار يندسّ في فراشها، يجرّدها من ثيابها وهي متصلّبة في مكانها، تقاوم في صمت فيزجرها، وإذا تمنّعتْ أغواها بمالٍ، وإن أصرّتْ صفعها»، هكذا أفضتْ ريمة إلى ياقوت. تدّعي أنّها مريضة كي ينصرف عنها لكنّه يستميتْ. سألتْه لماذا يفعل بها ذلك، فأجابها: كي نشوفك نتفكّر أمّك.

أعرف هذا النوع من الرجال؛ لأنّهم خائبون ولا يثقون في أنفسهم، يعتدون على مَن يصغرهم. ردعتْ ريمة انفراده بها، وفرّتْ إلى بوسعادة. نامتْ على أرصفة جنب السكارى والمتشرّدين، ترتدي ثيابًا بالية. قبل أن تؤويها جمعية الأيتام، التي وفّرتْ لها المبيت أيامًا، ثمّ اهتدتْ إلى بيت ياقوت، بعدما سمعتْ عنه من أفواه الناس. وسارعتْ صاحبته إلى إبلاغ ميلود، بعدما علمتْ هُويّتها، فدفع مالًا واستأجر لها سريرًا، لأنّ الإيجار في أمكنةٍ أخرى أغلى ثمنًا.

وأَدَتْ ريمة حنينها إلى القرية مثلما وأدْتُ حنيني إليها. «هي قرية لا ترأف بأناسها»، كما همس في أذني صوت أمّي. ظلّ ميلود يترصّد خرجات ابنته إلى الشارع، حين تبضّعها أو تسكّعها، أو تردّدها على جمعية الأيتام، التي تقبض منها معونات، على الرغم من زحمة أشغاله في العيادة. تهاتفه ياقوت وتُبلغه بمقصدها فيباشر تعقّبها. استمر الحال كذلك إلى أن أحبلها، وهي لا تعلم أنّه والدها.

– متى تحظى هذه الطفلة بابن خالٍ أو ابنة خال؟

سألتُ ميلود وأنا أشير برأسي إلى مينة وأعلم أنّ لها ابنة خال. فنظر إليّ مبتسمًا، وعلّق بسخريته المألوفة حين يودّ الفِرار من أسئلتي:

– كلّ شيءٍ بالمكتوب.

عندما أصرّتْ عليه أمّه، ذاتَ مرّة، أن يتزوّج على أن تتكفّل بإيجاد العروس الأنسب له، تُنسيه الممرّضة التي رغب فيها، ذمّ النساء كلّهنّ. ادّعى أنّه ما من إحداهنّ تلائم ما يرغب فيه، مُخفيًا أنّ المرأة التي أحبّها وأنجب منها سرًّا تركتْ وشمًا في قلبه مثل الكيّة على ظهري، فلم يستطع أن يفكّر في غيرها.

كم أحسد ابني على وفائه، عكسي أنا الذي عشتُ مشتّتًا بين امرأتَيْن، إحداهما في النور والأخرى في العتَمة. ولستُ أدري هل ما زلتُ أُحبّ ياقوت أم إنّني أُجلّها لوفائها لي. فقد تنازلتْ عن ذكر اسم ميلود في شكواها للشرطة، بعدما وعدتُها أن أستلّ منه حقيقة تورّطه في الهجوم على بيتها من عدمه، فوثقتْ فيّ وأودعتْ شكواها ضدّ مجهول. مع أنّها تشكّ في أن يصل الأمن إلى المعتدي، فأعمال النهب والحرق وانتهاك أملاك الغير باتت شُغلًا يوميًّا، والمخفر لا يتوفّر سوى على عددٍ قليلٍ من العناصر.

– هل سمعتَ بالعراك، الذي نشب في المخرج الشَمالي من المدينة؟ في مكانٍ يسمّونه دار بابا ياقوت!

في الغالب أتحادث مع ابني عن أحوال الطقس، عن أخبار السوق والخضر، عن أسعار العملات الأجنبية وأثمان تأجير المنازل والمحالّ، عن تكاليف الحجّ، مع أنّني لم أسافر إلى مكّة... لكنّني بادرتُهُ بذلك السّؤال غير المعتاد، مع ما انطوى عليه من مراوغة. من دون أن أُسرف في القول إنّ ملثّمين اعتدَوا على نساءٍ وعلى ابنته، كما لو أنّني لا أدري شيئًا، آملًا شقّ أحشاء أسراره، واستفزاز لسانه. فقد قضى الأيام الأخيرة في عزاء مخلوف، ثمّ عاد إلى العيادة، لا يغادرها إلّا نهاية النهار. والمرجّح أنّ ياقوت لم تتّصل به ولم تُعلمه بما وقع، بعدما قطع المعتدون خطّ هاتفها.

لحظتُ وجومًا في وجهه، كمَن سمع خبر وفاة عزيزٍ عليه، فردّ:

– لا، لم أسمع.

مَن رأى ملامحه ذلك الحين فسيظنّ أنّه بريء؛ اتّسعت عيناه وفتح فكّه. ولم يُتِح لي أن أسأله عن نوسة التي تُعامله كابنٍ لها، فقد أوقف لعبه مع مينة، معتذرًا بالخروج لغرضٍ لا يحتمل الانتظار. إنّه من نوع الرجال الذين أُسمّيهم ناس الحيلة؛ وداعتهم تُضمر خُبثهم. حزنَتْ حفيدتي أنْ رأتْه مغادرًا، وعادتْ إلى ورقها وأقلامها، وأتمّتْ رسم وجه أمّها، كما قالت.

– وين عينَيْها؟ سألتُها.

– ما عندهاش.

– علاش؟

– باش ما تشوفنيش.

ليتني كنتُ بلا عينَيْن أنا أيضًا، فلا أرى ما سيحلّ بي وبعائلتي.

* * *

عندما توجّه شرطيّان إلى بيت عزوز خالدي قصد التفتيش، لم يقابلا سوى زوجته.

– حفيدتي في الروضة، وابني ميلود ينوي التخييم في الجبل يومًا أو يومَيْن، قال المشتبه به.

– متى؟

– لا أدري!

– إذا كنتَ أنت والده ولا تدري شيئًا، فمَن يعرف إذن؟

صمتَ عزوز وودّ إدريس بادة أن يعرف منه أشياءَ أخرى عن ابنه:

– يعمل مع شقيقته في عيادتها، فهو ممرّض.

– ماذا أيضًا؟

– لا أسأله أين يذهب ومن أين يجيء.

استغرب كثرة الأسئلة عن ابنه، وأردف:

– أظنّ أنّ شكَّكَ بتورّطه غير صائب.

تهكّم مفتّش الشرطة:

– لقد قضيتَ عمرك في تربية ابنيك كما يجدر بأبٍ أن يفعل، لمَ أشكّ فيه إذن؟

– لي حدس وحدسي لا يخيّبني.

– لماذا لم يبُح لك حدسكَ بمَن سمّم صهرك؟

م

في اليوم العاشر عقب رحيل مخلوف، اشتقتُ إلى ياقوت، التي لم أرها منذ أن اعتدى عليها ملثّمون. قصدتُ بيتها وندمتْ. دخلتُ كعادتي من الخلف، من باب المرأب الحديدي، ومعي نُسخة من المِفتاح. مشَيتُ بخطواتٍ متأنّية مثلما كنتُ أمشي في حقول نزع الألغام، ثمّ رأيتُ شيئًا جعل جبهتي تنضح عرقًا ويدي ترتجف.

رأيتُ سيارة صهري، من نوع هوندا، بلونها الأخضر الفاتح وترقيمها الذي أحفظه مثلما أحفظ مواعيد أدويتي. فقد ركبتُها مرّات، كما ساعدتُه على استبدال بطاريّتها.

لمستُ غِطاء السيارة بأطراف أصابعي، وظننتُ أنّ مفاجأتي سوف تكتمل بأن أرى الميّت ممدّدًا داخلها. وددتُ فتح بابها لكنّه كان مقفَلًا. أعدتُ التأكّد من ترقيمها، معتقدًا أنّ شيخوختي توهمني بأشياءَ لا وجود لها، ثمّ مَضيتُ. بدلًا من أن أنعطف إلى الحجرة، التي تعوّدتُ فيها الاجتماع بزملائي، واصلتُ سيري إلى الأمام، ودفعتُ الباب الذي يؤدّي إلى حوش الدار. رأيتُ ياقوت تُمسك كلبًا من نوع «الراعي الألماني»، بجنزيرٍ مثبَّتٍ على رقَبته، مبتهجةً بأن تأمره بالجلوس فيستجيب.

لقد انطوتْ في وحدتها.

– انصرفتْ النسوة الأخريات عنّي، قالت.

فرّت كلّ منهنّ إلى مخبأٍ يعصمها من عودة المعتدين. منهنّ مَن غيّرت مكان نشاطها، وأخريات هجرنَ مهنتهنّ. لم تبق سوى ريمة، وبات المكان شبه خالٍ؛ لا نشمّ فيه لِفافات حشيشٍ تعبّق الجوّ، ولا موسيقى تصدح من الغرف فتموّه عن وحوحةٍ، ولا بنات يتجمّعن

في الحوش، وهنّ يتندّرن على الزبائن. لم يعد الباب الرئيسي يُفتح ويُغلَق كلّ حين.

– سوف يحرسني ويحرس البيت، أردفتْ وهي تشير إلى كلبها.

وهبها الله من المال ما يؤهّلها لأن توظّف رجلَيْن شديدَيْن يحرُسانها، لكنّ بُخلها أوحى لها بأن تكتفي بكلبٍ اشترته من السوق الأسبوعية، التي تُعرَض فيها الحيوانات جميعها، من طيور الحسّون إلى ثعالبَ وسلاحفَ... بل يبيعون ويشترون فيها القنافذ أو العقارب المحنّطة في زجاجات. لم أصارحها ببغضي ذلك النوع من الكلاب، الذي ذكّرني بأيام التعذيب تحت سَوط شهلة البرق. ترقّبتُ أن تُبادرني بالحديث عن السيارة التي رأيتُها في المرأب. لكنّها أسرفتْ في السؤال عن حالي، فرِحةً برؤيتي، مثل مَن اشتاقت إلى قرّة عينها بعد غياب. وأنا أكذب عليها وأكذب على نفسي بأنّني في أفضل حال.

قصدتُ بيتها، في هذا اليوم، على أمل الانعزال في الحجرة التي أَلِفتُها، فأفكّر في رسالةٍ ثانيةٍ إلى بودو. مع خَشيتي مِن أن يتجاهلنا. اتفقتُ مع زملائي على صياغة رسالةٍ أخرى، أسلّمها بنفسي إلى الصّحافي عند مجيئه إلى بوسعادة، لأنّ الردّ الذي وصلنا من التلفزيون كان مبهَمًا. وقد حسمتُ أن أكتب اسمي الكامل على الظرف، مع كُنيتي في سنوات حرب التحرير «كردادة»، لعلّها لا تذهب سدى مثل سابقتها.

من المحتمل أنّ تسليم هذه الرسالة سيكون آخر مهمّةٍ لي. لستُ واثقًا بجدواها، رغم أنّني وعدتُ زملائي بأن نعثر على حلّ. لماذا حمّلتُ نفسي ما لا طاقة لي به؟ هكذا تعوّدتُ، أن أُفرج عن لساني بأقوالٍ سُرعان ما أندم عليها.

ازددتُ فضولا بأن أسأل ياقوت عن ثامر، الذي تجرّأ على المجيء إلى عزاء صهري. هل سَرَّه موته وودّ الاستفراد بابنتي؟ ظنّ أنّ الملعب بات خاليًا، لا رجل لها وبمقدوره أن يستدرجها؟ ظنّ أنّ الأرملة جسد يسهل مضغه؟ وددتُ صفعه حينذاك، مثلما تصفع عقيلة ابنتها عندما تتبوّل في فراشها. هل ينوي التقدّم إليها؟ لقد سبق أن أفهمتُه أنّني أبوها. ما دمتُ رافضًا له، فلن يتزوّجها، هكذا يقول القانون. لن أُعامله بلِينٍ كما تعوّدتُ، بل سأبادره بما يليق به من وقاحة.

أعلم أنّ ياقوت تدافع عنه، لأنّه مطيع في خدمتها. لكنّني جهّزتُ كلماتٍ ألقيها في وجهه إذا فاتحني، مرّة أخرى، في شأن عقيلة، كالقول: «أنتَ هارب من العدالة»، «أنتَ بلا عمل»، «لا أثق فيك». كلمات بوسعها أن تقضم أظافر رجولته، لكنّني لن أصفه بـ«القوّاد». أودّ لجم أوهامه، لا أن أستفزّه فأعود إلى بيتي بوجهٍ دامٍ إثر لكمات. لا أنفي خوفي من أن يُفرغ غضبه في أخاديد وجهي، الذي تحسّستُ جوانبه قبل أن أسألها عنه:

– لم أره منذ أيّام.

ولا حاجة إليه، فقد انصرفتْ نسوتها إلى حالهنّ.

يمكنه أن يعمل قوّادًا في مكانٍ آخرَ... قلتُ في نفسي.

– يقضي وقته مع مليك، أردفَتْ.

مع أخيه الذي يسير على كرسيٍّ متحرّكٍ، بعدما أصابه شلل في صغره، ويسكن قبو عمارة.

أمّا ريمة، فتوجّهتْ إلى طبيبة نساء.

– وعدتُها بتخليصها ممّا نبت في بطنها.

عثرتْ ياقوت على طبيبةٍ، وستدفع مالًا من جيبها. الإجهاض عمل تشوبه مخاطر، والقضاء لا يتسامح معه. الطبيبات اللواتي يمارسنه في السرّ، لا بدّ أن يطلبن مقابلًا كبيرًا.

– لن أدفع دينارًا واحدًا.

أخطأ ظنّي كالعادة، فلا أحد ينافس هذه المرأة في الشحّ. تؤثِر أن تلدغ عقربٌ يدَها على أن تدسّها في جيبها. قلتُ لها، ذات مرّة، إنّها تملك ما يحلم به الرجال.

– تقصد النساء اللواتي يأوين إلى داري؟

– بل دراهمكِ، أجبتُها.

المال يرفع الرجال أو يُذلّهم. كان الرجال إذا نفِدت جيوبهم قصدوا دارها فينسون فقرهم، وإذا فاض مالهم قصدوها كذلك كي يتفاخروا بالنعم. المال وحده هو ما يحرّك غرائزهم.

هل هي طبيبة تعمل بالمجّان؟! أعلم أنّ جوابها سيكون النفي، فكلّ شيءٍ بمقابلٍ في هذه البلاد. بل إنّ الأحلام لا تزور مناماتنا من غير ثمن.

– الرجل الذي أحبلها سيدفع.

– تقصدين ابني؟

بحكم أنّ ميلود ممرّض، فلا بدّ أنّه قد ساعدها على التوصّل إلى تلك الطبيبة، التي تُجري عملياتٍ في الخفاء. وما دام بوسعه أن يدفع مقابلًا، فسوف أسأله مقابلًا لقاء عيشه في البيت. فهو لا يدفع فواتير ولا يشترك في تكاليف العيش. عكس أخته، التي تمدّني بشبه راتبٍ كلّ شهر، تقتطعه من مالها. لطالما تغاضيتُ عنه، ظنًّا منّي أنّه بحاجةٍ إلى ماله قصد التفكير في مستقبله.

– لا أقصد ميلود.

زارها آخر مرّة، عندما حادثتُه بما وقع في هذه الدار، بحجّة أنّ عراكًا نشب فيها.

– مَن سيدفع إذن؟

– مخلوف تومي.

حدّقتُ إلى عينَي الكلب البنّيتَيْن اللامعتَيْن. وشعرتُ بأنّ الأمور قد اختلطت عليّ، أو أنّ ياقوت شاخت قبلي وشرعتْ تهذي.

– ريمة أقرّتْ بوالد الجنين.

تعرّفَتْ إليه في جمعية الأيتام، التي أوتْ إليها بضع ليالٍ، فأغراها بمالٍ منتفعًا من فقرها. أوهمها بزواجٍ مثلما أوهمتُ ياقوت في شبابها، مُخفيًا عنها أنّ له زوجة اسمها عقيلة وابنة نناديها مينة. أحبلها مخلوف وانتظرَتْ أن يفي بوعده ويتزوّج بها، فكتمتْ سرّه. لذلك قالتْ لي ريمة ذات مرّة: «إن شاء الله يطول عمرك وتحضر عرسي؟». نوتْ الزواج بصهري! وحين أدركَتْ أنّ الرجل قد نقض كلامه، عقب ممانعة أمّه التي قالت له: «تلك الفتاة أقلّ شأنًا منك». فضحتْ ريمة اسمه! لا، لا بدّ أنّها سمّمتْه قبل أن تفضحه. أم إنّ صهري تناول مبيد فئرانٍ بغرض الانتحار، فيتلافى الفضيحة؟

تزاحمتْ الشكوك في بالي وفهمتُ لماذا نوى هجر جمعية الأيتام، كما أسرّتْ إليّ ابنتي. لقد شمّ رائحة خِزيٍ وودّ الإفلات منه. كانتْ قمرة على حقّ عندما جاهرتْ عقيلة: «راقبي زوجكِ». الأمّهات يحدسن ما يغيب عن الآباء. وحسمتُ أن أكتم الحكاية عن ابنتي، لا أريد أن أضاعف شجنها. بادرتْني ياقوت:

– لم تسمح لي، آخر مرّة، بأن أكمل كلامي!

– أيّ كلام؟

– عندما أخبرتُكَ أنّ ريمة صارحتْني بمَن أحبلها.

– تتّهمين ابني ثمّ صهري؟

– لا أتّهم أحدًا.

ثم واصلتْ:

– لم أُجبر ريمة على الكلام. انتظرتُ منها أن تبوح بنفسها، وقد فعلَتْ.

وأنا أيضًا صارحتُ ياقوت:

– مخلوف مات!

أعلمتُها بحادث السير، من غير أن أضيف كلامًا عن تسمّمه، وأنّني أشتبه في ريمة بشأن ما حصل له.

أخفتْ فمها بيدها وأفرجتْ عنه، ونطقتْ تعزية بكلماتٍ متلكّئةٍ، فآنستُ صدقًا في مواساتها. تطلّعَتْ إليّ بنظرةٍ عطوفةٍ لم أر شبيهًا لها منذ زمنٍ طويلْ. فهي لم تبدّل جلدها. تحنّ إلى الأيام المشعّة، التي جمعتْنا، حين كانتْ راقصة في مقهى روز. أحبّتْني وكان حبّها نقيًّا تجاهي.

– هذه أقدار الله، أجبتها.

لكنّني استغربتُ أنّ ريمة حضرتْ العزاء كذلك. جاءتْ متدثّرةً بمِلحفة، فلم أتعرّف إليها، سوى بعدما كشفتْ عن وجهها. استلّتْ ياقوت بخّاخها من جيبها وهي تتنفّس بمشقّة.

– أنت لا تعرف مَن هو زوج ابنتك، قالت لي.

ثم حكت لي كيف كلّفت ثامر مكالمة مخلوف على رقم عمله، يوم 15 مايو الماضي، كي يجبره على أن يدفع مقابلًا للإجهاض، لا للفتاة وحدها بل تعويضًا لها أيضًا. فهي لا تُضيع سانحة في قنص مال. صهري لم يكن يستلطف ثامر، يعيب عليه قبح وجهه، ولم يسمح له بدخول جمعية الأيتام في صغره. «وقع تلاسن بينهما في الهاتف»، قالتْ.

ابتغى صهري مقابلة ياقوت قصد إصلاح الوضع معها. حلّ ببيتها، وهو يضمّد يده المجروحة، في ساعة القيلولة التي لا تتنازل

عنها، فرفضَتْ رؤيته. جالس ثامر في المطبخ وسمع منه كلامها. امتثل بأن رهن سيّارته، إلى أن يتدبّر المبلغ المطلوب منه.

– وتسلّم مخلوف سيارة رينو 4 المسروقة، بعدما اشترطتُ عليه تسوية وثائقها، نظرًا إلى قربه من الشرطة، أضافتْ.

لكنّ الموت لم يُمهله. لم أُخطئ بأن شككتُ في أنّ صهري مات في سيّارة ثامر.

أنتَ أيضًا يا مخلوف ضحكتَ عليّ! كان يصرف ماله في إرضاء ريمة، يملأ جيبها بما يوفّر لها شراء الثياب والعطور، ويملأ وجه زوجته كدمات! يختلي بها، مدّعيًا أنّه على موعدٍ مع رفاقٍ له.

ما دام أغرى ريمة، فماذا يمنع أن يكون قد فعلها مع يتيماتٍ أخرياتٍ! لكن لا يحقّ لي محاسبة ميّت.

– بل ميلود مَن كان يُنفق عليها.

سمعتُ ما جعل فكّي يتصلّب؛ حكتْ لي أنّ ابني كان يختلس أغراضًا من عيادة عقيلة، يبيعها ويسلّم المال إلى ياقوت، كي تدفع ثمن حاجيّات ريمة.

– ودّ أن يبيعني تلك الأغراض ذات مرّةٍ، أضافتْ.

ثم يتّهم جيران العيادة بالسرقة.

أنتِ أيضًا ضحكوا عليكِ يا ابنتي!

– مخلوف مات متسمّمًا.

وجب أن أواجهها بالحقيقة، أنّ السمّ سرى في دمه قبل أن تنقلب سيارته. فأرختْ ياقوت يدها الممسكة بالجنزير، الملتفّ حول عنق كلبها، الذي ظلّ ذيله منتصبًا، يريد أن تلاعبه كما كانا يفعلان قبل مجيئي. ورفع ساقه الخلفية تحت شجرة التين وأطلق بولًا حارًّا، أظنّه مفيدًا للتربة في ظلّ انقطاع الماء عن الصنابير. أيقنَتْ أنّها في مأزقٍ أكبر من مأزقي وأنّ السيارة المركونة في مرأب بيتها دليل إدانة.

– سأُبلغ عن ثامر، قلتُ.

هكذا أتخلّص منه، أُجنّب عائلتي التحريات، أحمي ريمة من الشّبهة، وأنتقم لحفيدتي مينة التي تيتّمتْ، وزادتْ نرفزتها. صارت تطعن أطفال الروضة بأقلام التلوين، من دون أن تكفّ أسئلتها: «وين بابا؟ وقتاش يرجع؟».

أشكّ في أنّ ذلك القوّاد هو الذي سمّمه، فقد كان آخر شخصٍ التقاه قبل أن يَلقى حتفه. لقد صارحني ذات مرّة بقوله: «عمري ما نسامح مخلوف». وأنا أيضًا لن أسامحه على ما فعل. انتفضتْ ياقوت في وجهي ويدها تلوّح مهدّدةً:

– إذا أبلغتَ عنه فسوف تؤذي ابنك منّي.

لم أعهد رؤيتها وقد تملّكها غضب ممزوج بخوف. شعرتُ بعقب سيجارتي يحرق إصبعي، وسمعتُ روح أمّي تعاتبني، لكنّني صمَمتُ أذنيّ وانصرفت.

ازداد غمّي عندما قابلتُ نوسة وأنا أهمّ بالدخول إلى بيتي. اِستمَتُّ في استمالة لسانها فأخبرتْني، بنبرةٍ خافتةٍ وهي تخفض بصرها، كيف دفنوا عكوري، في مربّع الحركى. نوتْ إقناع مصلحة الدفن في البلدية ببراءته من التهمة، لكنّ أمرًا وصلهم بمواراة جثمانه في ذلك المكان.

– راجل بنتك هو اللي باعو. باحتْ لي.

لم أعرف كيف أردّ عليها وقد أشعرتْني بالذنب في ما حصل.

– فات الحال، أردفتْ.

فعلًا، وعجزنا عن إصلاح الأمر.

– بصح راجل بنتك مات موتة كلاب، ختمَتْ.

* * *

رغب إدريس بادة في أن يخبره عزوز بما يخفيه في علاقته ببودو.

– لستُ وحدي مَن عرَفه.

عاد إلى مساءلته عن الرسالة التي كتبها له.

– أوصلتُ الرسالة إلى مبنى التلفزيون بنفسي، مرفَقةً بقبّعة شارلي شابلن هديّة له، التي صارت دليل إدانةٍ ضدّي، كما وصلني ردّ كذلك.

انتبه محدّثه إلى أنّ الشّرطيَّيْن اللذَيْن أوفدهما لتفتيش بيته، لم يوافياه بالردّ الذي تحدّث عنه.

– بوسعكَ أن ترسل أحد أعوانك، سيجده في الخِزانة، جنب سريري.

وسوف يرى صورتي الوحيدة مع قمرة، بالأسود والأبيض، وهي تبتسم في حياءٍ... تمتم عزوز وهو يسحب نفَسًا تلو الآخر من سيجارته.

– ما دمتَ عرفتَ ذلك الصحافي، فلا بدّ أنّك تفقه في شؤون السياسة، قال له مفتش الشرطة.

– لا أفقه في شؤونها أكثر من متابعتي نشرات الأخبار. أنا مشغول بارتفاع الأسعار لا بارتفاع شعبية حزبٍ أو تهاوي شعبية حزبٍ آخر.

– لكنّكَ عرفتَ بودو أكثر من آخرين!

– عرَفتُه شخصًا صادقًا، والصدق يجلب لنا أعداءً لا رفاقًا.

ودّ إدريس بادة تدوين إفادة عزوز خالدي عن بودو في محضرٍ منفصلٍ، ثمّ إرسالها إلى أمن العاصمة.

– لماذا؟ سأل عزوز.

– أنتَ تعرف ما وقع له.

البنت

17

في اليوم الثاني والعشرين عقب رحيل زوجي، ودّعتُ عيادتي.

بعدما أَجريتُ عملية على عين طفلٍ وُلد بتشوّهٍ في الشبكية، وبساقَيْن مقوّستَيْن، فأغدقتْ عليّ أمّه من الدعوات ما يرشّحني لدخول الجنّة من غير حساب، وأهدتْني علبة حَلويَاتٍ، مبتهجةً. «خدمتهم بيدي»، قالتْ وهي تُخفي خُصلًا أطلّت من تحت خِمارها.

نويتُ أن أُكرم مرضاي بتلك الحَلويات، مُطمئنّة البال إلى أنّ سالي ستُخلّص ريمة من مأزقها، كما أعلمتْني في التلفون. سوف تستقبلها في شقّةٍ تملكها لا في المستشفى حذر النمّامين، وقد طلبتْ منها مبلغًا من شأنه أن يُحيي الموتى. «المعيشة غلت»، برّرتْ المبلغ المرجوّ. إنّها مغرورة من برج الثور، كلّما أجهضتْ امرأة وفّرتْ مالًا لشراء ثيابٍ جديدةٍ أو تغيير قصّات شعرها. نصحتُ ريمة بأن تتفاوض معها لتخفض المبلغ، فهي شاطرة في الكلام، ومَن تعرف الكلام تعرف خفض الأسعار. قبل أن يبلغ مسمعي تصايح شبّانٍ، في الشارع، رغم أنّ مصرعَي النافذة كانا مغلَقَيْن:

telegram @
yasmeenbook

– مات.

– ما زال حيًّا.

– أُقسم باللّه مات.

– هذا كلام الناس.

لم أفهم مَن مات أو مَن لا يزال حيًّا. فتّشتُ في ذهني عن اسم شخصٍ من شأنه أن يشغل بال الشباب، ليتخاصموا على مماته أو حياته، فلم أعثر على مَن يستحقّ هذا الهرج. فتحتُ النافذة، أتحرّى عمَّن يتجادلون، فسمعتُ أحدهم يقول:

– بودو رجل حرب.

– وين تعرفه؟ ردّ آخر.

لم أقدر على سؤالهم، فجيراني صاروا يتفادَون الكلام معي، بعدما علموا بالشكوى التي أودعتُها ضدّهم. تساءلتُ: ماذا حلّ ببودو؟ يُفترض أن يصل اليوم وألتقيه في الغد. هل جنّوا فأشاعوا موته؟ أعرف أنّ الشائعات تُنسيهم عَوزَهم، لأنّهم بلا شغلٍ، كما أنّها تخفّف عنهم وطأة الحرّ. لكن ليس من عادتهم أن يرفعوا سقف شائعاتهم، حدّ إصابة صحافيٍّ في التلفزيون! استخبرتُ شقيقي عمّا يحصل، ورأيتُ مرضاي ينصرفون. لا نصيب لهم من الحَلويات، همستُ. أجابني ميلود:

– لا أعرف!

وهو يحكّ حاجبه كما لو أنّ سؤالي ضايقه.

تسرّب الفضول إلى دمي وأنا أدور حول نفسي، فيما الوقت جاور منتصف النهار. قبل أن أسحب، من تحت منضدتي، مذياعًا اشتريتُه من مغتربٍ، يسترزق من خردةٍ يجلبها من مارسيليا. شغّلتُه بحثًا عن محطّةٍ تُذيع نبأً عن بودو، وتُطمئِنني إلى أنّ أموره في أفضل حال، فقد حضّرتُ ملفًّا لعرض مشروع كُليّة الطّب عليه. ورجائي أن

يكون كلامي مقنعًا، فيستمع إليه مسؤولون وكذا رئيس نقابة الأطباء في العاصمة، فيوصي خيرًا بي وأستفيد من دورات تدريبٍ في الخارج، لكنّ الإذاعة الوطنية انشغلتْ بأمورٍ أخرى: «تعتزم الحكومة إرسال مساعداتٍ إلى دولٍ في شرق أفريقيا، أصابها جفاف وشحّ في الغذاء...». فمَن يرسل إليّ معلوماتٍ عن صحافي التلفزيون؟

من المحتمل أنّ الإذاعة الوطنيّة لا معلومة لها عنه، وينتظر العاملون فيها توفّر الأنباء ليُطمئِنوا المستمعين. لكنّ أعصابي لا تحتمل طول انتظار. غلى رأسي ووددتُ أن أعرف في الحين ماذا يجري. وبما أنّ مرضايَ ألغوا مواعيدهم وانصرفوا، مستسلمين لفضولهم، فكّرتُ في أن أعود بدوري إلى البيت، لعلّ التلفزيون يحمل ما يؤكّد الشائعاتِ أو ينفيها، فسألتُ شقيقي مرافقتي.

– أُفضّل أن أنتظر. قد يتّصل مرضى آخرون يضبطون مواعيد في الأيام المقبلة.

تتحاشى المشي مع أختك في الشارع؟... غمغمتُ. مع أنّ رأيه بدا رصينًا.

نزعتُ مِريلتي وخرجتُ، وكانت آخر مرّة أرى فيها عيادتي. يسكنني ارتياب، وألتفتُ من حولي عندما أسير على رصيف. وهو شعور لم يفارقني منذ أن زارني مفتّش الشرطة إدريس بادة، قبل أسبوعَيْن، وخاطبني: «أنتِ أيضًا مشتبه بها في تسمّم مخلوف تومي».

مضيتُ جنب حديقة الأطفال، التي علتْها لافتة تفيد بتحويلها إلى عمارةٍ من ستّة طوابق، بعدما خِلتُ أنّهم سيهيّئونها للصغار. هدموها مثلما تهدّمتْ أحلامي في الحبّ. «يهدمون حديقة أطفالٍ قصد إرضاء الكبار»، تمتمتُ.

ثمّ مررتُ بالمدرسة الثانوية للذكور، التي ترفرف على مدخلها الراية الوطنيّة، ورأيتُ التلاميذ يُهرعون إلى الخارج، يتشاجرون

بمحافظهم ويتبادلون شتائم تثير الضّحك، فرحين بالشارع كمَن خرج من حبس. هل يستحقّ هؤلاء الرعناء أن أشقى من أجلهم للظفر بكليّة طبٍّ؟ وهم الذين يمزّقون كراريسهم في ابتهاجٍ عند نهاية كلّ موسم. سألتُ الحاجب عن علّة خروجهم مبكّرًا، فردّ عليّ ولمحتُ أسنانه المتسوّسة، وهو يضلّل جبهته بيده كي لا تصفعها الشمس: «المدير أمر بتسريحهم».

لا شكّ أنّه من المديرين الذين يُفرغون المدارس من أجل التفرّغ لانشغالاتهم الأخرى، فالمديرون مثل الأساتذة يقتاتون بالتجارة، أو بمقايضة الدينار بالفرنك، لأنّ أجرة التعليم لا تكفيهم في تأمين خبزٍ أولادهم، ينوّعون أسباب تغيّبهم قصد تنويع مداخيلهم.

في طريقي لم أصادف روّاد المقهى، الذين منعوا دخول النّساء بحجّة منع الاختلاط، فقد أقفل صاحبه بابه، وساد سكون جنب نُزل «الراحة»، الذي أحرقه ملثّمون الأسبوع الماضي، بحجّة تأجيره غرفًا لعشّاقٍ غير متزوّجين. وتمنّيتُ لو أنّ ميلود طاوع كلامي ورافقني، فلا أحد يهتمّ بحال عينَيْه، في هذه الساعة. لأنّ الناس تسمّروا أمام شاشات التلفزيون. ينتظرون مَن يؤكّد لهم خبرًا أو ينفيه عن بودو، خمّنت.

ولمحتُ العجوز، التي ترصّع ذقَنها بوشمٍ من خطَّيْن. والتي اشتكتْ، قبل شهرٍ أو أكثر، التهابًا في مفاصل رُكبتيها، وهي تمشي مع زوجها مُمسكَيْن أيديَهما، جنب ورشة مسجد، يشرف عليها محسّنون. كم أحسد المسنّين على حياتهم الهانئة! عندما أبلغ عمرها، لن يكون لي زوج أتمشّى جنبه، هكذا ظننتُ، وصفعَتْ وجهي ريح حارّة تُنذر بعاصفةٍ رمليّةٍ، أحتمي منها في العادة بالمكوث خلف أربعة جدران.

عندما وصلتُ إلى الحيّ الذي أسكن فيه، أطلّت طاطا نوسة من شبّاك بيتها، وقد صارتْ تزهد في الكلام، لكنّ فضولها وخز لسانها هذه المرّة في معرفة ماذا يجري:

– علمي علمكِ، أجبتُها.

وجدتُ أمّي منهمكة في التنظيف بخِرقتها، مثل مهووسٍ بمحاربة الغبار، متأفّفةً من انقطاع الماء عن الصنبور. بينما أبي قبالة التلفاز في الصالون، ينفث دخَانه:

– صرتَ تشاهد القناة الوطنية؟

– اليوم فقط.

جلستُ قربه، فرفع حاجبَيْه مستغربًا اهتمامي بترقّب نشرة الأخبار. لم تكن تعنيني، بل تعنيني مصلحتي من بودو. كي أعرف هل سيأتي أم لا! قصدي كي أعرف هل هو حيّ أم مات، وأنا أمسّد الهرّة التي تمدّدتْ على بطنها. لكنّ تلاوة القرآن طالتْ، في الشاشة، وتأخّرتْ نشرة الأخبار.

«ننتظر معك نشرة الأخبار الأخرى في الثامنة مساءً!»، خاطبتُ أبي، الذي لم يكن ينهي سيجارة حتى يُشعل أخرى، فلم يردّ عليّ.

هو أيضًا غير متأكّدٍ من المعلومة التي سمعها في الشارع. التزمنا صمتًا؛ نستمع إلى القرآن وإلى هدير المِروحة الكهربائية، وأنا أمسح عنقي بمِنشفةٍ مبلّلةٍ، أداوم عليها كلّما اشتدّ الحرّ، قبل أن ينقطع صوت المقرئ وتليه نشرة الأخبار التي ظهر فيها المذيع دامعًا كمَن فقد والديه، وهو يبثّ الخبر التالي: «توفّي الزميل بودو، صباح اليوم في كلالة، إثر حادث سيرٍ، وهو في طريقه إلى بوسعادة...».

أعرف أنّ كلالة بلدة تسودها الخضرة، لكنّني أعيش بين رمال. أعرف أنّها بلدة أقام فيها ثامر، وركّاب السيارات يهلكون فيها مثل الذباب. طريقها ملتوية تربط الشَمال بالجنوب، لكنّها غير معبّدةٍ،

وبتّ أعرف أنّ بودو قد مات فيها كذلك. لكنّني لا أعرف ماذا أفعل. هل أدمع مثل المذيع؟

تخيّلتُ حسرة ميلود من سماع الخبر وحدّقتُ إلى أبي، الذي توقّف عن استنشاق سيجارته التي تناثر رمادها تحت قدمَيه، بينما أمي منحنية بظهرها تمسح البلاط، مكتفيةً بـ: «الله يرحمه مسكين».

استغفرتُ ربي وسبّحتُ، وكففتُ عن التفكير في ما عليّ لبسه. تحقّقت رغبة مخلوف، في أن أنسحب من نقابة الأطبّاء وأتراجع عن ملاقاة صحافي التلفزيون. رغبات الموتى أقرب إلى السماء من رغبات الأحياء. أنا بريئة من موت زوجي، ولا شيء أخشاه. لكنّني أودّ أن أعرف مَن سمّمه. فعندما ألححتُ على أمّي، أوّل من أمس، لماذا قالتْ لي ذات مرّة: «راقبي زوجكِ»، واصلتْ تجاهلي. وعندما واصلتُ إلحاحي، أجابتْ: «كي لا تخطفه منكِ امرأة أخرى»، لكنّ الموت خطفه منّي. وأثنتْ على سيرة الراحل، فندمتُ أنّني شككتُ فيها.

هل تعرّضتْ سيّارة بودو لحادثٍ قدّره الله ولا مفرّ من أقداره، أم هناك أمر خفيّ مثلما خفي عليّ سبب انقلاب سيارة زوجي؟ كان بودو صحافيًا سليط اللسان، فهل سلّط عليه القدر أعداءً؟

لم يعد رأسي يحتمل أسئلة أخرى، ورغم أنّ اسمي عقيلة يعني امرأة عاقلة، فإنّني شعرتُ بأنّني أكاد أفقد عقلي، عندما رأيتُ أمّي تغادر الصالون وهي تتمتم كأنّها تكرّر قولتها: «اللي تزرع الريح تحصد الغبار».

وقمتُ من مكاني لإحضار ابنتي إلى البيت، حذر أن تشتدّ الريح في الخارج. ارتجفتْ يدي وشعرتُ بخيبةٍ من عدم ملاقاة بودو، كما تصاعدتْ دقّات قلبي حزنًا على وفاته، بينما الهرّة تطوف بين قدمَيّ.

كنتُ كلّما أودعتُ مينة الروضة، خشيتُ ألّا أراها من جديد. أتخيّل أنّها تسلّلتْ إلى الخارج ودهستْها سيّارة أو اختطفها مجهول

من الذين يتاجرون بكُلى الأطفال. هكذا تفكّر الأمهات؛ يلدن أبناءهنّ ويخشين مفارقتهم.

نظرتْ إليّ ابنتي بعينَيْن مشعّتَيْن، وأظهرتْ لي رسم أرنب بأُذنَيْن، فرِحةً بصنيعها: «نعرف نرسم؟».

ردَدتُ عليها بإيجابٍ، وسمحتُ لها بأن تتناول قِطعتَي حلوى مكافأةً لها، ثمّ جاورتْني ليلًا في السرير. حكيتُ لها قصّة وأغمضَتْ عينَيْها، محتضنةً قِطًّا من قطنٍ اشتراه لها ميلود. تمنّيتُ أن أعود إلى صغري مثلها، عندما كان الجميع يعطف عليّ. لكنّني سأعود إلى المخفر، مستجيبةً للاستدعاء بالمثول.

علمتُ في المخفر أشياءَ جهلتُها، وندمتُ على الحياة التي عشتُها.

* * *

خالج عقيلة أنّ شهلة البرق استسلمتْ لأوهامها بأنّ ضرًّا مسّ عينها ولم يعد بالإمكان تداركه.

– لقد فحصها الدكتور قدور جندال وأكّد شكوكها.

– أشكّ في رأيه، أجابتْ.

باغتَها المحقّق حين قال إنّ قدور أدلى بشهادةٍ طيّبةٍ عنها، في غضون التحقيق بشأنها، عندما ورد اسمها من بين الأشخاص الذين كانوا سيقابلون بودو.

– مع أنّه يبدو عكس ذلك، علّقتْ.

ثمّ سألها إن حازتْ إذنًا من والدة سمير قليش قبل اقتلاع قرنيّته، من غير أن يعلم أنّها اقتلعت القرنيتَيْن الاثنتَيْن:

– أحوز إذنًا من الله.

– ...

– أليس هو القائل: «مَن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعًا».

نظرتْ إلى ساعة الحائط وقد أشارتْ إلى الرابعة عصرًا، لكنّها لم تتأكّد من الوقت منذ أن سمعتْه يقول إنّ تلك الساعة لا تفيد بالوقت الصّحيح، وأضافت:

– أنا امتثلتُ قوله في إحياء بصر مريضةٍ.

– مَن يُطِع قول الله فلا يرجو جزاءً من العباد.

فيما هي قبضتْ مالًا من شهلة، وقبضتْ من أمّه قرطَيْن من ذهبٍ، لكنّه لن يذكّرها بهما، تفاديًا لإحراج نفسه. ولا سبيل لها لمعرفة أنّها أمّه التي، خلافًا لغيرها من النساء، حافظت على اسمها، ولم تتقمّص اسم والده.

– لم أفرض عليها تسعيرة، بل رضيتُ بما دفعته لي.

– دفعت لكِ ضِعف راتبكِ!

ثمّ أردف:

– الأصل في مهنة الطب هو الصدق.

– وأنا صادقة مع نفسي.

– لكنّكِ أخفيتِ فعلكِ عن عائلة قليش.

– كانوا سيرفضون التبرّع بالقرنيّة.

– وكان عليكِ احترام رأيهم.

لم تعرف كيف تردّ عليه، سوى تذكيره بأنّها لم تنكّل بالميّت، بل خاطتْ جَفنه عند الانتهاء من شغلها، وهي تلجم لسانها من سؤال شغل بالها: هل تقدّمتْ فوزية الخيّاطة بشكوى ضدّها؟ لن يطول الحال وتفعل، حسمتْ في ذهنها.

صارحها بأنّ انتهاك حرمة الميّت يعاقب عليه القانون بالسَجن. فشعرتْ بتصلّبٍ في فكّها السفلي. وأفهمتْه أنّ زوجها المتوفّي أجبرها

على اقتلاع القرنيّة، وقبض ثلاثة أرباع المال الذي دفعته شهلة، فأحسّ برأفةٍ على حالها.

– شقيقكِ الممرّض كان على علمٍ بما تفعلين؟

– لهذه الغاية تصرّ في سؤالك عنه؟ أجابت، مدركةً أنّها لم تورّط ثامر فحسب بل ميلود كذلك، الذي قد يحاسَب لتستّره على زرع قرنيةٍ مسروقة.

– هل لديكِ أقوال أخرى؟

صمتتْ، وربط جمال درقين ساعته في معصمه.

– عثرنا على مبيد فئرانٍ في عيادتكِ.

أحسّتْ أنّ الكفّة مالتْ إليه. وخشيتْ ألّا يصدّق كلامها إن دافعتْ عن نفسها مرّة أخرى.

– يستخدمه شقيقي في التخلّص من الفئران التي تتسلّل إلى الداخل.

وكلّمتْه عن جيران العيادة، الذين يربّون حيواناتٍ في شققهم. فأبلغها أنّ بوسعها أن تخلّص نفسها من التهمة، عندما يُحيلها إلى المحكمة، مثلما خلّصتْ أمّه من عماها، في غياب دليلٍ يجزم تسميمها مخلوف. كما يجوز لها أن تدحض زرع قرنيةٍ متضرّرةٍ، بحكم أنّ مخلوف أجبرها على ما فعلتْ، بعدما أخفى عنها ساعة موت سمير قليش. ثمّ لطم آلته الكاتبة، وطلب منها توقيع محضر السماع:

– أريد ماءً...

أجّل الردّ عليها وكرّر طلبه:

– أرجو منكِ التوقيع أسفل تاريخ اليوم 9 جوان 1990.

عجّلها كي ينصرف إلى توقيف ثامر، فسمعتْ بكاء ابنتها في أذنها، وشعرتْ بضيقٍ في التنفّس.

تخيّلتْ نفسها في المحكمة، محتجَزةً في مقصورةٍ يحيط بها شرطيّان. يطرح عليها القاضي أسئلة وهي تجيب من غير أن يصدّق كلامها، بينما أمّها تنظر إليها في استياء. فتمنّتْ لو أنّها عمياء، لا ترى ما يجري لها. تمنّتْ أنّها لم تستسلم لرغبة مخلوف في اقتلاع قرنيّات الموتى وغالبتْ مبتغاه. حكمتْ على نفسها قبل أن تُحاكَم. ودهمتْها دموعها، مع أنينٍ يطلع من أحشائها.

تذكّرتْ كرافاش بولحية، الذي دفعه لها فقيدها مهرًا. نوتْ أن تتنازل عنه لأمها، فتبيعه وتصرف منه حاجاتِ مينة. ثمّ تراجعتْ عن فكرتها، وأمل ينمو في صدرها بأن تنجو من التهمة التي لُفّقتْ لها، أن تعود إلى بيتها وعيادتها. أن تعود إلى مرضاها وإلى الكتب التي لم تطالعها. ثم ملأتْ بصرَها غِشاوة، وأحسّتْ بالأرض تدور تحت قدميْها، فطلب جمال درقين ماءً يرشّه على وجهها. خشي أن يُغمى عليها وهي تكرّر اسم ابنتها.

الأب

ن

أتذكّر عندما حرّرنا قرية إيطالية، إبّان الحرب العالمية، وشرعتُ أنا وبودو مع مجنّدين آخرين في تمشيط حاراتها ومسالكها، بحثًا عن بقايا الأعداء المختبئين بين جنَباتها. فلم يطُل الحال، ونحن نتنقّل من ركنٍ إلى آخر، أن فقدنا الاتصال بالسريّة المكلّفة حماية ظهورنا، التي تأخّرتْ أثناء عبورها نهرًا، ووقعنا في كمين. أحاط بنا قنّاصة، من خلف صخورٍ، وتصاعدتْ طلقات نيران.

التجأنا إلى مغارة، نرجو وصول السرية وتخليصنا من ورطتنا، لكنّ مجيئها تأخّر وقد شارفتْ الشمس على المغيب. وبدأ الخوف يدِبّ في القلوب. أخذتْ يدي ترتجف وأنا أُمسك برشّاشي، من غير أن يغادر إصبعي الزناد، حين قام مجنّد سنغالي من مكانه، وصارحَنا:

– لن أنتظر نهايتي مثل عجوزٍ في سريره، سأخرج وليحصل ما يحصل.

وددْنا نهيه لكنّه أصرّ. لم يركض أكثر من خمسين مترًا، وهو يطلق عباراتٍ في الهواء، حتى سقط برصاصةٍ في الظهر، وازداد خوفنا من أن نلقى مصيرًا مثله.

تحسّستُ كفني في حقيبة ظهري، ذاكرًا ربّي، وفعل بودو مثلي ثمّ خاطبني:

– جئنا إلى هذه البلاد كي نموت.

أجبتُه:

– ألم تقل لي: إذا لم نَقتل فلن ننجو؟

صمتَ هُنيهة وواصل:

– إذا بقينا في مكاننا، فسوف نُقتل.

ثمّ نوى أن يخرج هو أيضًا ويلاقي مصيره، كما قال:

– الانتظار شبيه بالموت.

لكنّني تسلّحتُ بصوت أمّي الذي همس في أذني: «اِصبر». فكرّرتُ الكلمة على مسمعه، وتلوتُ عليه كلماتٍ أخرى من شأنها صدّه عن قراره. ذكّرتُه في أمّه وأهله ومعارفه:

– تحب يمّاك تبكي؟

فردّ عليّ بالنفي. والحقّ أنّني وددتُ مماطلة خروجه لا منعه، فحين يعزم على شيءٍ لا يتراجع فيه. دماغه صُلب بصلابة جبل. عكسي أنا الذي كنتُ أتقلّب في الرأي، أدلي بقولٍ وأفعل عكسه. وقد أفلحتُ في ردع رغبته، فصارحني بلكنة تهديدٍ:

– إذا طال الليل ولم تصل السرية، فسأخرج من المغارة. ثقتي في ربي أن يطيل عمري.

كان يعلم أنّ قراره انتحار. ولم يكن بوسعي ثنيه من جديدٍ، ولا سيما عندما أطلّ مجنّد آخر برأسه إلى الخارج، فأصابته رصاصة. مات

بين ذراعَيَّ وهو يهذي بكلامٍ ثم يصمتُ، مستذكرًا أهله في كورسيكا، إلى أن وقع رأسه من يدي.

من لطف ربّي أن التحقتْ بنا السَرية وفرّ القنّاصة. خرجتُ أنا وبودو، من المغارة، من غير أذى. دفنّا الميّتَيْن، وقلتُ له:

– الحظّ أنجانا.

فردّ عليّ:

– مَن نجا اليوم فلن يموت، وهو يمسّد لحيته التي طالتْ.

لكنّه أخطا التخمين، فبعدما أفلتَ من رصاصات العدوّ لقي مصرعه في حادث سيرٍ، مثلما قال المذيع.

ازدادتْ نبَضات قلبي ولوّثتُ الجوّ من حولي مثل مَدخنةٍ، وأنا أحدّق إلى ابنتي، التي تركتْ عيادتَها وهرولتْ إلى البيت تتحرّى ما يجري، وخيبة تزحف على ملامحها. لكنّها ستتجاوزها مثلما تجاوزت ترمّلها. سرّني أنّها لن تلتقي ذلك الصحافي فتكفّ عن شَغل بالها في أمور السياسة، كي لا تشيب وهي شابّة، وترضى بمصارعة أمّها، التي اكتفت بقولها: «الله يرحمه مسكين».

أنا المسكين... وددتُ أن أجيبها، لكنّ إجابتي كانت تقتضي منّي شروحاتٍ ليست لي طاقة عليها. لقد تمنيّتُ أن يطول عمر بودو، وأن أموتَ قبله فأضمن شاهدًا يدافع عنّي. كنتُ أحتمل أن يصون سُمعتي إن أُهيل التراب على جثّتي وأصرّ قومي على اتّهامي بالعمالة. صحيح أنّ مخلوف قد غادر دنيانا، لكن ماذا يضمن أنّه لم ينشر الحكاية على الألسن؟ وأنّ الناس ينتظرون أظهُرًا عليها أثار كيّة، فيحيلونها إلى زاوية العار في الجبّانة، وأصير خِرقة رجلٍ بعدما عشتُ مناضلًا؟

احتلّ خبر بودو معظم نشرة الأخبار، مع إطالة المدائح عن حياته، من غير ذكر شائبةٍ عنه. كما لو أنّه عاش قدّيسًا. لم يتحدّث

المذيع عن زلّات الراحل، ولم يقل إنّه كان منفيًّا ومطرودًا. لم يذكر زوجته الأولى التي أحبّها فانتحرتْ بعدما ثبتَ عقمها، ثم تزوّج أخرى أنجبتْ أربعة أولاد. لم أذمّ المذيع الذي لا يعرف عن بودو سوى ما تكتبه الجرائد. وقليلون يعلمون علاقتي به، على غرار زملائي في جمعية «قدامى المناضلين المُستبعَدين» غير المعتمَدة، الذين أتخيّل خيبتهم بسماع الخبر، وهم يترقّبون أجَلهم واحدًا تلو آخر.

لماذا لم يقبِض الله روحي قبل أن ينتقم منّي رفاقي القدامى؟ فمَن بلغ مثل سنّي لا بدّ أن يتهيّأ لآخرته، بالصلاة والدعاء. أمّا أنا، فأُصلّي وأدعو بأن يطول عمر زفَراتي وشهقاتي، أدعو ألّا يتوقّف قلبي، فيكتشف أحدهم ما أُلصق بظهري من غدر.

تلَت نشرةَ الأخبار نشرةُ الأحوال الجويّة، في عرض درجات الحرارة، من هذا اليوم 7 جوان 1990، الذي تذيب فيه الشمس النّخل والحجر. لم أحتمل البقاء في البيت من جراء الحَيرة التي شلّت ذهني؛ أين تسير بي الحياة؟ لكنّ روح أمّي غابت عن الإجابة عن سؤالي، وأخبرتْني ابنتي أنّها ذاهبة إلى الروضة لتعيد مينة إلى البيت. «الحال يخوّف»، علّقَتْ. وجاريتُها في الرأي.

حثّني خوفي على الخروج إلى الشارع. كلّما تلاطم القلق في رأسي داويته بالمشي. أمشي في الظلّ وتحت الحيطان فلا أثير فضول الآخرين نحوي، مثل «وحداني غريب في بلاد الذيب».

دلَّكَتْ وجهي ريح خفيفة وأنا أخطو شارع «إميل فراي»، الذي داوى مجاهدين إبّان حرب التحرير. وعندما مات سُمّي الشارع باسمه إجلالًا له، لكنّ رئيس البلديّة يودّ تغيير اسم الشارع باسم قريبٍ له لاقى ربّه زمن حرب التحرير كذلك. ظللتُ أمشي على غير هدى، ألمح كلابًا ضالّة تقضي قيلولتها تحت الحيطان، إلى أن بلغتُ محلّ «حَلويَات الهناء»، المغلق منذ أن أشعل فيه غاضبون نارًا لأنّه

عرض حلوى رأس العام «تشبّهًا بغير المسلمين»، كما قالوا. انتظرتُ أن يصفعني أحدهم ويخبرني أنّ بودو لم يمتْ، وأنّ بوسعي الاتكال عليه في استعادة صفتي كمناضلٍ سابق. لكنّني لم أصادف أحدًا يتمشّى على الأرصفة، عدا دوريات الشرطة.

لم يكن الجوّ يبعث على الأمان، كأنّ المدينة خلتْ من ساكنتها، بعدما كانت تشبه مملكة نمل. اختفى الأطفال الذين كانوا يحمِلون صينيّاتٍ على رؤوسهم فيها أطعمة للبيع، وفرّ الكبار إلى بيوتهم مثل فئرانٍ تفِرّ إلى جحورها. وقبالة جمعية الصمّ والبكم، التي تعلو مدخلها نقوش بالعبرية، بعدما كانت جامعًا لليهود، رأيتُ شابَّيْن يتبادلان حديثًا بلغة الإشارة، لم أفهم شيئًا منه. مضيتُ في طريقي ورأيتُ مقهىً بابُهُ موارب، تتسلّل منه تلاوة قرآن. أطلّ منه شابّ حدّق إليّ في حَيرة مَن يحدّق إلى رجلٍ يمشي عاريًا، بينما سيارات تعبر مسرعةً، كأنّها تركض خلف لصٍّ أو يطاردها سجّان. نظرتُ مِن حولي، فلم أرَ سوى امرأةٍ تلتحف البياض وتعجّل خُطاها، جنب آخر حانةٍ أُغلقتْ من جراء شكاوى الجيران، فبات الناس يقتنون شرابهم خفيةً تحت الطاولات، مثل مَن يقتني أسلحة مسروقة.

تخيّلتُني سأموتُ مرّتَيْن؛ مرّةً عندما يحين أجلي، ومرّةً عندما يكتشف أهلي التهمة التي أُلصقتْ بجلدي. اشتدّتْ ريح الشهيلي الحارّة، فكنستْ أوراقًا متناثرة على الأرض وصفعتْ الأبواب الموصَدة، منذرةً بعاصفةٍ رمليّةٍ، أحتاطُ منها كعادتي بدسّ قِطعتَي قطنٍ في أذنيَّ ومِنخريّ. لكنْ لا سبيل للاحتراس من العاصفة التي نشِبتْ في رأسي، سوى الكفّ عن التفكير في موتي اقتداءً بنصيحة روح أمّي، فلا أحد سيذكُرني بالحسنى كما حصل مع بودو، بل سأصير موعظةً في المهانة.

عـدتُ إلى البيت، أحسّ بطعم زبـدةٍ في لساني وتـدِبّ في قلبي رغبة في النوم، في أن أغمض عينَيّ، فأسمع صوت أمّي يدندن أغنياتٍ، وأرى نفسي صبيًّا يعدو في القرية، ألعب مع أخي الغمّيضةَ وأعجز عن العثور عليه. عارضتُ تفجير مقهاه كي لا أخسره، لكنّه هاجر وقطع صلته بي. تصدّيتُ لرفاقي القدامى، فنزعوا عنيّ كُنيتي «كردادة» وانقلبوا عليّ. هل كانت حياتي ستسير على ألطف حالٍ لو أنّني امتثلتُ لأمرهم، ولم أغالب مجرى النهر؟

س

ابني الذي أنجبتُه من ياقوت اسمه مليك. هكذا أطلق عليه الزوجان اللذان تبنّياه. ولم يطل بهما الحال أن رُزقا طفلًا من صلبهما، سمّياه ثامر: «استعجلتْ الزوجة الإنجاب، وقلقها أجّل حملها. بعد التبنّي انتفخ بطنها»، قالتْ ياقوت.

ثمّ فرّ الأب إلى فرنسا، إثر اتهامه عقب الاستقلال بالعمالة.

– هناك مَن قال إنّه وشى بشهلة البرق، أردفَتْ.

وأعادتْ الأمّ ترتيب حياتها مع رجلٍ آخرَ، بعدما أودعتْهما مركز رعاية الطفولة وغيّرتْ سكنها. أصاب مليك شللُ الأطفال ولم يدخل المدرسة، ولم يتحمّل ثامر سخرية زملائه ونعتهم له بأخي المعوّق، بل راح يردّ عليهم بالصفع والركل. «لا يأكل قبل أن يطمئنّ إلى أنّ مليك شبع»، أضافتْ.

يتسلّى ساعات الفراغ بقطع أذناب قططٍ أو كلابٍ ضالّةٍ أو فقء أعينها. ثم تفاقمتْ مشاجراته مع أقرانه، فدخل سجن القصر بعدما كاد يكسر جمجمة أحدهم بحجر. عندما خرج، سرّحه مركز رعاية الطفولة مع مليك، بحجّة اكتظاظ المكان بأطفالٍ أصغر سنًّا منهما. قصدا جمعية الأيتام وتمنّع مخلوف عن قبولهما. «ازدراهما الناس، لأنّ أباهما الذي حملا اسمه شاع اتهامه بخدمة الاستعمار». سكنا قبو عمارةٍ غير مبلّطٍ، تُزاحمهما فيه قوارض وحشرات. غيّر ثامر اسمه واسم مليك العائلي، كما يسمح به القانون، ثمّ أصرّ على اكتشاف ذكورته. زار دار بابا ياقوت، وودّ الدّخول فنهتْه. «لم يكن يملك دينارًا».

لكن ما لبث أن استسلم قلبها حين علمتْ بحكايته. «رأيتُ صورة ابني في عينَيْه».

كانتْ شاهدة على أولى رعشاته في السرير، مع فتاةٍ تكبره بعشر سنين. وتكرّرتْ زياراته إلى دارها، ثمّ صار مليك يرافقه. فأحسّتْ بأمومتها وهي تطهو لهما طعامهما وتغسل ثيابهما. قبل أن يعود ثامر إلى السجن، وقد أتمّ سنّ الرّشد، «استولى على تبرّعاتٍ وصلتْ إلى جمعيّة الأيتام، وهبها لمليك كي لا يشعر بالحرمان».

أبلغ عنه مخلوف الشرطة، ودخل ابننا في اكتئاب. دفعتْ ياقوت كفالة وخرج. ثمّ توسّطتْ له للعمل محصّلًا في حافلةٍ على خطّ العاصمة، لم يمكث فيها أكثر من عامٍ، قبل أن يختلس نقود السائق ويُسجن مرّةً أخرى ثمّ يُفرج عنه. «أوصيتُ به خيرًا أحد زبائن الدار، الذي يقيم في كلالة، على أمل إبعاده من تجارة الحشيش التي زادت من شقائه».

عمل في مصنع الحليب، يرسل كسوة إلى مليك كلّما توفّر مال في جيبه، ثمّ عاد بعد إفلاس المصنع، وبعدما سطا على مسدّسٍ واعتُقل ثمّ فرّ. جعلَتْ منه قوّادًا، وواسطتها في الاطمئنان إلى ابننا، الذي لا يعلم أنّها أمّه وأنّني أبوه.

تعذّر عليّ تصديق كلامها، وأنا معلّق بين دهشةٍ وحُرقةٍ إلى حضن مليك. هل سيعفو عنّي أم يصدّني؟

«لم أشأ أن تعرف أنّ ابننا مُقعَد»، برّرتْ ياقوت إخفاء أمره عليّ. ولم تشأ أن تخبرني مَن سمّم مخلوف، لأنّها غير واثقةٍ مَن الفاعل.

التقاه ثامر في هذا البيت. جالسه في المطبخ، وهو يكتم رغبةً في الاقتصاص منه. شرب معه قهوة، ابتزّه في ماله، فماذا يمنع أن يكون هو مَن دسّ له السمّ؟ كما أنّ نسوة الدار تفرّقن، وأُرجّح ألّا تتذكّر إحداهنّ زيارة صهري، ما يضمن أنْ لا شاهدة تُقلق ثامر عدا ياقوت. هل تواطأ معها في تسميم المرحوم؟ قبل أن يتسلّم منه مِفتاح سيّارته الهوندا ويسلّمه سيّارة الرينو 4 المسروقة، وهو يدري أنّ فراملها

بحاجةٍ إلى تصليح. ثمّ حضر العزاء قصد التضليل؟ قبل أن يعزم على هجر بيت ياقوت؛ يهجر المسرح الذي ارتكب فيه فَعلته!

«أعرف ثامر. عيوبه لا تُحصيها أصابع اليدين، لكنّه لا يقتل»، دافعتْ عنه ياقوت وشكٌّ يلازمها بشأن ميلود.

لقد نقضتْ وعدها لي وأخبرتْه بحَمل ريمة.

– اتفقنا أن نحلّ همّها في الخفاء، من غير أن يتفاقم الأمر.

– هو أبوها ومن حقّه أن يعلم.

– وأنتِ من حقّكِ أن تُمسكي لسانكِ.

لقد اتصل بها ميلود، من كابينة تلفونٍ في الشارع، شتمها وشتم مخلوف. «مَن يَدْنُ من ابنتي، فسيدنو من جهنمّ»، قال لها. حين يدنو رجل من ابنة آخر، من غير عقدٍ شرعيٍّ، يصير المحرّم مباحًا، هكذا جرتْ العادة.

– متى اتصل بكِ؟ سألتُها.

كالمَها يوم 15 مايو الماضي، قبيل وصول مخلوف إلى بيتها، قبل أن يجري السمّ في دمه، قبل أن تلوذ إلى قيلولتها، وقبل أن يصل الملثّمون ليلتها.

«نعم، كالمْتُها يوم 15 مايو، ولا أنفي كلامها. أنا ميلود خالدي، وهذا ما حصل لي:

وصلتُ إلى المشرحة في منتصف النهار... حين تبدُّل مناوبة البوّابَيْن على مدخل المستشفى. الأوّل يغادر موقعه قبل الأوان، والثاني يصل متأخّرًا. بينما ينصرف الأطباء والممرّضون إلى استراحتهم، ويكون المرضى غارقين في آلامهم. إنّه الوقت الذي يمرح فيه الشيطان من غير أن يبالي به أحد.

عندما رأتْني جارتي نوسة أدخل، أخفتْ وجهها بعجار وهي تتدثّر بمِلحفة، لكنّ عينَيْها المكحّلتَيْن لا أخطئهما بين مئة امرأة. أخفتْ تُرمس قهوةٍ تتوسّطه خطوط ذهبيّة اللون، في سلّتها المصنوعة من حَلْفاء، بعدما صبّتْ ما تبقّى منه، في فنجان أبيض عليه زخرفة بالأزرق، وانصرفتْ مودّعةً مخلوف. من غير أن أسألها، قالتْ إنّها جاءت في زيارةٍ إلى قريبتها في مصحّة التوليد، واغتنمتْ وجودها للاطمئنان إلى مخلوف «بعدما ارتاح من وعكته»، التي حتّمتْ عليه المكوث في البيت، في الأيام الماضية. «أحضرتُ له قهوة متبّلة بحَبّ الهال ونبتة الشيح». لم تدعُني لتذوّقها، بل خفضتْ رأسها وحثّتْ خُطاها مبتعدة.

حدّق إليّ صهري وقد اعتمرتُ قبعةً، وعلتْ الدهشة ملامحه:

– أهلًا ميلود!

فاتحتُه بما جئتُ من أجله، فظلّ منشار العظام الذي حمله بين يدَيْه يرتجف، عندما علم أنّ ريمة ابنتي، أردف:

– سأتكفّل بإجهاضها.

وعد بدفع مقابلٍ وظنّ كعادته أنّ المال يشتري الأحياء والموتى. لمحتُ فِنجان القهوة، الذي ملأتْه نوسة قبل مغادرتها، وفكّرتُ في أن أستعين به على قضاء مصلحتي، فقد تعلّمتُ خلطات السموم من أمّي. لكنْ تعذّر عليّ مبتغاي في وجوده.

لم أغفر له أنّه تسبّب في سَجني، عقب اختلاسي كُليةً، أردتُ منها إنقاذ امرأةٍ أحببتُها. زرعَتْها في بلدةٍ مجاورةٍ لكنّ العملية لم تُفلح. أراد مدير المستشفى تسريحي، لكنّ مخلوف وشى بي إلى الشرطة فجرى سَجني. أراد التخلص منّي، فلا يسمع مَن يؤنّبه على ما يفعله بشقيقتي. نفى شكّي به وأنا لم أصدّقه. يظنّ الآخرين مغفّلين وهو الشاطر وحده.

لقد لازم البيت، في الأيام الأخيرة إثر وعكةٍ، ما حتّم عليّ تأجيل ما نويتُه. انتظرتُ عودته كي يلقى خاتمته جنب الجثث المحفوظة في الثلّاجة.

أدرك أنّني لن أخرج قبل أن أنال ثأري، فبادرني بلكمةٍ نحو وجهي أفلتُّ منها، لكنّه لم يفلتْ من لكمتي نحو صدره. تشابكنا بين حيطان المشرحة الباردة، وأنا أترقّب اللحظة التي أطبق فيها يديّ على عنقه. وعندما لم يتسنّ لي مبتغاي، أمسكتُ مِبضعًا ونويتُ أن أثقب وجهه، لكنّه أخفاه وأصابتْ الضربة يده. ارتفع صوته عندما ركلتُه على بطنه، وخشيتُ أن يدخل أحدهم ويراني بصدد الإجهاز عليه، فأجّلتُ أمره.

هرولتُ مغادرًا المستشفى، أحمل المِبضع في يدي، كي لا أخلّف أثرًا مثلما أخفتْ طاطا نوسة تُرمس القهوة، ملتفتًا من حولي، كأنّ أحدًا يترصّدني. اتصلتُ بياقوت، من كابينة تلفونٍ في الشارع. وفرّ منّي لساني: «مَن يدنُ من ابنتي، فسيدنو من جهنمّ».

شتمتُ صهري وشتمتُها بسبب إغماض عينَيْها عن ابنتي، فحملَتْ. كانتْ تقبض مالًا منّي لرعايتها. تنصّلتْ من مسؤوليتها وألقتْ المسؤولية على ظهري. شكّتْ في أنّني أحبلتُ ريمة؛ «يا امرأة، أجُننتِ!». ظنّتْ أنّ نُكتي البذيئة عن مفاتن ريمة تودي بي إلى بذاءة الفعل.

اعتذرتْ عن سوء ظنّها بي وعدتُ إلى عملي في العيادة، أعاني صداعًا، بعدما تخلّصتُ من القبّعة والمِبضع، وحذاءٍ أكبر من مقاس رجلي ذهبتُ به إلى مقصدي.

اتصلتْ بي ياقوت وأخبرتْني أنّ مخلوف حلّ ببيتها ورهن سيارته، إلى أن يدفع لها مقابل الإجهاض. وحلّتْ ابنتي بالعيادة. سمعتُها من خلف الباب تتحادث مع أختي، من غير أن أتبيّن كلامهما

الهامس. حين همّتْ بالخروج قلتُ لها: «بالشفاء عليكِ»، فيما لسان حالي يودّ سؤالها: «كيف ضحك عليكِ مخلوف؟». أيضًا حرقتُ صورته التي تحفظها عقيلة في دُرجها.

في المساء، لمحتُه يركن سيارة رينو 4 صفراء بعيدًا عن البيت، كي لا يثير فضول أحد. تناول العشاء ثمّ عاد إلى ورديةٍ ليليةٍ، وهو يضمّد يده التي أصبتُها بالمِبضع. تفاديتُ مواجهته في البيت حرصًا على قلب أمّي، ألّا ترانا نتعارك. في اليوم التالي، بلغني خبر وفاته وتكرّرت منامات أراه فيها يلومني على ما فعلتُ. ثمّ انقضتْ أيام، وأَعلمتْني ياقوت أنّ الراحل أصابه تسمّم قبل أن تنقلب سيارته. وظنّي أنّ نوسة مَن سمّمتْه. زارتْه في ساعةٍ يغيب فيها البوّابان، فهي تعرف المستشفى من كثرة ما حكيتُ لها عنه. كما أنّها لا تُرجئ أمرًا تنوي عليه، خشية أن «يفوت الحال» كما تقول. لا أدري لماذا قامتْ بفَعلتها، لكن «العين ما تعلو على الحاجب»، فقد أرضعَتْني والمُرضعة في مرتبة الأم. والرجل السويّ لا يشي بأمه».

ميلود لم يسامحه على ما فعله بريمة، مثلما سامحه عندما اعتدى على عقيلة. وفهمتُ حرصه على جلب هرّةٍ إلى البيت. أراد أن يجرّب فيها السمّ قبل أن يسمّم صهري، مثلما كانت تفعل أمه في تجريب خلطاتها. لكنّ مينة أنقذتْ شيشيرة، كانت عنيدة في وجه خالها وحامتْ عن هرّتها. كان بوسع ابني أن يُبلغ الشرطة ويجبر مخلوف على تحمّل تهوّره، لكنّه «خشي أن ينفضح نسب الفتاة إليه»، علّقتْ ياقوت.

لقد شبّ ابني عنيدًا. لا ينام قبل أن يثأر من خصمه، مثلما عرفتُه. ماذا كان سيفعل بي أقارب ياقوت إذا علموا أنّني أحبلتُها ذات يوم؟ لكن لا أقارب لها. نبذوا أمّها لأنّها أنجبتْها من غير زواج.

عاش صهري حريصًا على كل خطوةٍ يخطوها مثل يربوعٍ، لماذا لم يحسب مآل فَعلته مع ريمة؟ الرجال عبيد شهواتهم، وأنا أحدهم.

من لطف ربّي أنّني تريّثتُ ولم أُبلغ عن ثامر. وأقدّر أنّ الشرطة لن ترحم ميلود، بحكم سابقته في دخول السجن. لا أستبعد أن يُساق إلى زنزانةٍ، فالشرطة في متاعب، من كثرة أعمال التخريب التي بلغت حرق محلّ خيّاطٍ أمازيغيٍّ، ففرّ وعائلته. ورأس يمّا، لن يُضيع الأمن وقتًا في التحقيق مع ابني، سيُحيلونه إلى أبخس أيامه. لكنّني لم ألحظ ما يدينه في الأيام الماضية. سلوكه لا رِيبة فيه وأظن أنّ شكّي ليس صائبًا.

هل يعلم مَن قام بالفَعلة ويتستّر على الجاني؟ التستّر لا يفرق عن ارتكاب الجرم. هل يُعقل أنّ نوسة هي مَن انتقمتْ من مخلوف من جرّاء ما فعله بعكوري؟ وشمتتْ به عندما خاطبتْني: «مات موتة كلاب»!

لم أصارح ياقوت بما جال في بالي. وإن شاع الخبر فإنّ الجرائد لن تكتب أنّ مخلوف مات في «تصفية حسابٍ»، ولن يذكروا اسم جارتي في مقالاتهم، بل سيقولون: «ابن حركي يقتل طبيبًا»، سيجدون في القضية سببًا في معايرتي كذلك. أنا الحركي، كما يتّهمونني.

ممسكةً بخّاخها وهي تحدّق إلى الفراغ، تترقّب أن يطرق شرطيّ بابها، ويسألها عن السيارة المركونة في المرأب، فتصير محلّ شبهة، سألتْني ياقوت:

– ماذا تنوي أن تفعل؟

أنوي أن أزرع رصاصة في رأسي. لأنّ عين الطير هاتفني منذ يومَيْن، وأعلمني أنّ عكوري وشى بمحجوب الأعور، عقب الاستقلال، فعذّبتْه بدوره شهلة البرق. قدّر أنّ مخلوف أراد الانتقام من عكوري وحده، إكرامًا لروح أبيه، لا منّا جميعًا. كان مسرورًا أنّ الأمر لا يعنيني ولا يعنيه: «عندما يدنو أجلنا، فلا أحد سوف ينتقم منّا»، ختم قوله.

صِرتُ من نوع الرجال الذين أُسمّيهم عُميانًا، ينظرون إلى الأشياء بعيونهم لا بقلوبهم. وأودّ أن أرتاح من صوت روح أمّي، الذي يدعوني إلى التعقّل. أيّ عقلٍ بقي لي وأنا أشعر بأنّه سيُغمى عليّ! أودّ أن تصيبني نوبة قلبية فلا أنجو منها، مثلما نجوتُ من سابقتها، وليبصق الناس على قبري بعد دفني! من حقّهم أن يتنكّروا لي، فقد عشتُ ملعونًا، من غير أن أعرف أنّ مليك ابني، وأنّ ريمة حفيدتي وأنّ ثامر أُغرم بابنتي. كان يترصّدها بسيارة الرينو 4 المسروقة، ويتصل على رقم بيتي، راغبًا في الإصغاء إلى صوتها في السمّاعة.

«طلب منّي رقم بيتكَ فاستجبتُ له»، أقرّتْ لي ياقوت، ونحن وحدنا في هذه الحجرة، التي تعوّدتُ فيها الاجتماع إلى زملائي.

أتممتُ سيجارة وأتبعتُها بأخرى؛ أفكّر في ما بوسعي القيام به، ليتفادى ابني الشبهات في موت صهري، سواءٌ كان هو الفاعل أو يتستّر على أحد. فنويتُ على فعلٍ أعرضتْ عنه روح أمّي؛ أن أنتحل الجرم.

لا، لم أعش ملعونًا بل معاقبًا. نكّلتْ بي الأيام لأنّني فرّطتُ في ابني مليك. لأنّني عارضتُ زواج ميلود بممرّضةٍ، بعدما توجّستُ شرًّا من أمّها، التي عملتْ في مقهى روز. عشتُ خوّافًا، مبالِغًا في ظنوني إزاء غيري. وحلّ الوقت الذي أسدّد فيه دينًا يكاد يشقّ ظهري..

«سأخرج بالسيارة. لا بدّ أنّ الشرطة تبحث عنها»، أردفتُ.

سيظنّون أنّني سمّمتُ رجلًا عاملتُه في مصافّ الابن. أن أذهب إلى السجن فذلك لن يضرّني، بما أنّني مسجون قبل اليوم. حياتي خلف قضبانٍ قد تكون أرحم، فأدّعي أنّ الكيّة على ظهري من جراء تعذيبٍ، كي أقرّ للأمن بمَن شاركني الكيد بصهري. ذلك ما جال في خاطري وأنا أسمع ياقوت تعترض على نواياي، وتقترح أن نتخلّص من السيارة، فأجبتُها:

– لا يمكن أن نبيعها أو نستبدلها بأخرى، فوثائقها باسم المرحوم.

وأضفتُ:

– إن تخلّصنا منها، فلا شيء يضمن ألّا يصل الأمن إلى ابني.

لمَ لا أستبق الأمور؟

– لم تتبقّ لي سوى أيامٍ قليلةٍ في هذه الحياة، أقنعتُها.

إن جرى توقيف ميلود، فقد تصيبني نوبة قلبية أخرى. وهذه المرّة لن يُسعفني مخلوف، مثل المرّة السالفة. أذلّني بِكري لكنّني لا أودّ رؤيته في ذلّ. نويتُ التبرّؤ منه، لكنّني كذَبْتُ على نفسي. وسينوب عنّي عندما أدخل سجني. فنحن نلد أطفالًا كي ينوبوا عنّا في حال غيابنا. ميلود لم يُسعفه القدَر بأبٍ كما أراد؛ قسوتُ عليه مثلما قستْ عليّ الدنيا، ولا يسعني سوى إتاحة هذا المعروف، فيذكرني بالحسنى بعد موتي. وإن أوقفت الشرطة نوسة، كما يوحي لي شكّي، فستدخل قمرة في اكتئاب. سوف تكتئب كذلك في حال سَجني. ماذا بوسعي أن أفعل!

من أجل إلهاء ياقوت عن اعتراضها، ولِتتوقّف عن التحديق إليّ وهي تجحظ عينَيْها، سألتُها عن ريمة. ردّت وقد صار بخّاخها يرتجف في يدها:

– غدًا تُجري العملية. ستُشرف عليها طبيبة اسمها سلوى عديلي، ينادونها سالي. شاطرة. لكنّها طلبتْ مبلغًا أصابني بصداع، قالت.

ثم أضافت هامسةً:

– المال يروح ويجي...

طمأنتْني إلى أنّها ستدفع تكلفة العملية، فأفضيتُ إليها:

– حبّك خفّف عنّي شقائي.

لو أنّني ارتبطتُ بياقوت، هل كانت حياتي ستسير بأخفّ الأعطاب؟ بالقرب منها لم أشعر بأنّني وحيد ولا غريب ولا في «بلاد الذيب». بالقرب منها يهبّ نسيم الحبّ، كما سمعتُ في إحدى الأغاني.

راجيًا أن يخفّف كلبها من وَحدتها، تسلّمتُ منها مِفتاح سيارة الهوندا، وانطلقتُ نحو باب الخروج وأنا أعدّ خُطواتي. كلّ خُطوة تُبعدني منها وتقرّبني مِن تعاستي. شعرتُ بتيبّس في رَبلتَي ساقيَّ وفكّرتُ في التراجع. «مَن ينقلب على كلامه تهُن سُمعته»، همس صوت أمي في أذني، متراجعًا عن اعتراضه على فعلي. أحسستُ بالتواءٍ في معِدتي، وأنا أركب السيارة، التي تدلّتْ أسفل مرآتها الداخلية تميمة، نقشتُ عليها آية الكرسيّ، وعلى ظهرها صورة مينة.

أحبّها والدها من غير إسرافٍ... تمتمتُ وأنا أشغّل المحرّك، متسائلًا في سرّي: هل أحبلَ صهري ريمة في المقعد الذي أجلس إليه؟ أم في نُزل «الراحة» الذي كان يؤجّر غرفًا للعشّاق والذي التهمتْه نيران؟ أم في جمعية الأيتام التي حوّلها إلى جمعية نزواتٍ؟

لا بدّ أنّه قضى شبابه مع يافعاتٍ يتيماتٍ، ما ألهاه عن الزواج حتى سنٍّ متقدّمة.

أثناء سير السيارة، شرعتُ في تحضير أجوبةٍ في ذهني عن أسئلة الشرطة. فيما زوجتي، التي فارقتُها ذلك الصباح، تنتظر عودة الماء إلى الصنبور، فتسقي نباتاتها وتُحمّم الهرّة.

تقدّمتُ في الطريق، أفكّر في ابنتي عقيلة، التي قصدتْ المخفر بالأمس ولم تعد منه. ذلك المخفر الذي كان ثكنة فرنسيّين، في سِنِيّ حرب التّحرير. لقد نوى رفاقي القدامى زرع قنبلةٍ فيها، لكنّهم عجزوا عن الوصول إليها. شرعتُ في محادثة نفسي كما هي عادتي منذ صغري، شاعرًا بيد أمي تربّت كتفي. ثمّ لمحتُ صورة رئيس البلدية معلّقةً على عمود كهرباء. أظنّه الأوفر حظًّا في كسب الانتخابات، بسبب تقاريره ضدّ مَن يغتاب الحكومة. وخلف صورته ورشة بناءٍ نبتتْ بعد إزالة نخيلٍ، شيّدتْها شهلة البرق. لا شكّ أنّها مَن حرضّتْ الشرطة على إقناع ياقوت بتغيير نشاطها، كي يتسنّى لها زبائن يقتنون الشقق التي تنوي بناءها؛ فلا أحد يسرّه مجاورة مبغى.

تذكّرتُ يوم رأيتُ قبّعة شارلي شابلن تسقط من رأسه، من غير أن أدري أنّ حياتي ستسقط على رأسي. شابلن الذي قال إنّ «كلّ واحدٍ له مكان في هذا العالم»، أمّا أنا، فلم أعثر على مكانٍ لي. هكذا غمغمتُ عندما أشار إليّ شرطي، في حاجز أمنٍ، أن أركن السيارة إلى اليمين. طلب منّي وثائقها، فاستحضرتُ جملة ميلود: «الأب يدفِنه ابنه».

دعوتُ أن تُفلح خُطّتي وتُعفيه من الشكوك، وعلمتُ في المخفر ما خفي عنّي؛ أنّني قضيتُ عمرًا في تشييد عائلةٍ من رمل.

* * *

أظهر له إدريس بادة علبة رُسمت على وجهها قوارض، وكُتبت على ظهرها تعليمات استخدامٍ بالعربية والفرنسية.

– ما هذا؟ سأل عزوز.

– ألستَ تعرف؟

– لا!

– مبيد فئران.

– لا أستخدمه في البيت.

رجا أن يخبره مَن رآه يستخدمه.

– أنتَ المكلّف التحقيق لا أنا.

أدرك مفتّش الشرطة أنّ محاولته في استمالة لسان المشتبه به لن تنفع، فغيّر نبرته.

– مَن سمّم مخلوف؟

بلع عزوز ريقه، مفضّلًا الصمت.

– على مَن تتستّر؟

– لا أتستّر على أحد!

– أين كنتَ يوم 15 مايو؟ يوم تسمّم صهرك، وقبل يوم من تعرّضه لحادث سير؟

يعلم عـزوز أنّ إجابتـه ستُخرجه مـن حيّـز المشتبه فيهم، فاكتفى بالردّ:

– لا أتذكّر.

ظنّ أنّ جوابه يكفي في إزاحة ابنه من الشكوك.

– كنتَ في الجزائر العاصمة، عقَّب إدريس بادة.

يراقبون مَن يركب الحافلة؟ فكّر عزوز، قبل أن يواصل مفتّش الشرطة كلامه:

– موظّف الاستقبال، في التلفزيون، تسلّم منك رسالتك بتاريخ 15 مايو، في الحادية عشرة والنصف صباحًا، مرفقةً بالقبّعة، مثلما يشهد بذلك خَتم التسلُّم.

ما يؤكّد أنّ عزوز لم يلتقِ مخلوف في اليوم الذي تسمّم فيه؛ فالحافلة التي ركبها انطلقتْ في الرابعة صباحًا، فيما لم يعد صهره إلى البيت قبل الخامسة صباحًا، بحكم ارتباطه بورديّةٍ ليليّةٍ، ذلك اليوم.

أخذ عزوز يتعرّق وأدرك أنّ ما خطّط له لن يُفضي إلى نتيجة. بما أنّهم يحاسبونني على قبّعة شابلن، فلماذا لم يطالعوا الرسالة التي أرفقتُها معها، ويحاسبوا مَن أساؤوا إليّ؟ خالج باله.

– على مَن تتستّر؟

كرّر إدريس بادة سؤاله، وصارت عيناه تقدحان بشررٍ، وهو مستاء من تجاهل عزوز سؤاله.

– تعلم أنّ شهادة الزور تكلّف صاحبها سجنًا!

فهمَ المشتبه به أنّ الوضع ازداد عسرًا.

– صهرك كان رجلًا صالحًا، لا يُخفي شيئًا عنّا.

– رحمه الله.

– هو الذي أبلغنا عن ابنك، الذي اتّهم باختلاس كُليةٍ في المستشفى.

تصلّب فكّ عزوز ورفع حاجبيه، غير مصدّقٍ ما يسمع.

– لكنّك ربّيتَ ابنك على الحيلة، فلم نتوصّل إلى دليلٍ ضدّه.

واصل مفتّش الشرطة:

– كيف تفسّر توقيفك وأنت تسوق سيّارة المرحوم؟

هذا السؤال تهيّأ له عزوز.

– ركنتُها في المخرج الشَمالي للمدينة في اليوم السابق.

– ...

– فقد تعطّلتْ بطّاريتها. واشتريتُ أخرى، فغيّرتُها ثم قدتُ السيارة نحو البيت حين أوقفني زميل لك.

– من أين اشتريتَ البطارية؟

– من السوق.

– اسم البائع؟

– لم أسأله.

– مَن أذن لك بسياقتها؟

– مفتاح السيارة كان في البيت.

أعلمه أنّ ابنته قد أبلغتْ عن اختفاء تلك السيّارة، فأدرك أنّ الحكاية التي ابتكرها لن تفيد.

فضّل مفتّش الشرطة ألّا يخوض معه بشأنها، ويُحيل الأمر على المحكمة لاستلال اعترافاتٍ منه، يقرّ فيها على مَن يتستّر في تسميم مخلوف تومي. وسأله عن سيارةٍ أخرى؛ الرينو 4 الصفراء اللون، التي لاقى فيها صهره مصرعه.

– ورأس يمّا لا أعرف صاحبها ولا كيف وصلتْ إليه.

عادتْ إلى بال عزوز صورة إدريس رضيعًا في القماط، ممدّدًا في حضن أمّه باية. «كان يمكن أن تصير ابني»، همس في سرّه ثمّ تراجع. كلّ أبنائي أورثوا حزنًا في قلبي. وأراد أن يستفسر إن وصلوا إلى الأشخاص الذين اعتدوا على بيت ياقوت، لكنّ محدّثه لم يتح له فرصة كلامٍ، وخاطبه:

– أنتَ محلّ توقيف.

شعر بـدُوارٍ حين قـدّم إليه مفتّش الشرطة محضر السماع، وطلب منه التوقيع.

– وقّعْ أسفل تاريخ اليوم، 9 جوان 1990.

عجّل الانتهاء من أمره، كي ينصرف إلى قضيّة المرأة التي عثروا على جثتها، عقب تبليغها عن تعرضّها لاغتصاب. ثمّ لينشغل في تأمين الانتخابات البلدية، التي تفصله عنها ثلاثة أيّام. سيُدلي بصوته وصوت زوجته، كما يفعل الرجال مع نسائهم.

تذكّر عزوز زوجته، وعزم أن يتنازل لها عن ساعة الجيب الذهبية، التي غنمها من الجبهة الإيطالية. استلّها من أحد القتلى، وأخفاها ما يربو على نصف قرن. سألتْه قمرة، أكثر من مرّة، أن يبيعها ويصرف من مالها على العائلة، وهو ينوي توريثها أحدًا من خلَفِه. قدّر أن تنال من بيعها مالًا يعفيها ويعفي مينة من الحاجة، إلى أن يحسم أمره؛ أن يقرّ بما يعرف عن ابنه وجارته أو يطول مكوثه في الحبس. يعلم أنّ الإقرار سيُنجيه، سيُعيده إلى بيته وإلى زملائه، مثلما يعلم أنّ ياقوت ستعتني بمليك وريمة.

telegram @
yasmeenbook

أغالب مجرى النهر — في هذه الرواية، مشرحة، عيادة، وغرفة تحقيق تُستجوَب فيها امرأةٌ متّهمة بمقتل زوجها.

في الطرف الآخر من المدينة، مناضلون قدامى يرجون رفع تهمة العمالة التي لُفّقت لهم.

حدثان مختلفان تتكشّف العلاقة بينهما مع تقدّم الرواية، التي تؤرّخ لنصف قرن من تاريخ الجزائر، من الحرب العالميّة الثانية حتّى مطلع التسعينيّات، مرورًا بحرب التحرير وما تلاها، والتي تكشف اللثام عن المسكوت عنه: الشروخ بين الأجيال، بين الآباء والأبناء، الزيجات الفاشلة والتداوي بالعلاقات السرّية، الأمومة، التبرّع بالأعضاء البشرية والاتجار بها...

في هذه الرواية أناسٌ من مدينة نائية في الأطراف متسلّحون بالأمل، معلّقةٌ أقدارهم بشخصٍ آتٍ إليهم من عاصمة البلاد.

«تسير حبكة الرواية سيرًا تصاعديًّا لا يملك معه المتلقّي سوى مواصلة القراءة».

— بهاء بن نوّار، كرّاس الثقافة (الجزائر)، عن رواية «نهاية الصحراء»

سعيد خطيبي — كاتب جزائري (مواليد بوسعادة، 1984)، حاصل على ماجستير في الدراسات الثقافيّة من جامعة السوربون، وليسانس في الأدب الفرنسي من جامعة الجزائر. صدرتْ له خمس روايات آخرها «نهاية الصحراء» (نوفل، 2022) التي حازت جائزة الشيخ زايد للكتاب (دورة 2023). تُرجمتْ رواياته إلى سبع لغات.

telegram @yasmeenbook

ISBN 978-614-06-0589-3
9 786140 605893
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان A.

مكتبة ياسمين